
شيرين هنائي
فريق
متميزون
E-BOOK
لاشين
الكتاب العاشر - نوم العصاري
كتوبيا
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
رواية

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

لاشين

(الكتاب العاشر – نوم العصاري)

شيرين هنائي

عن الرواية..

تحاول سهير وأسامة قضاء وقت عائلي مع أبنائهما، لكن شريف ابنهما يورط العائلة مع لاشين ومهدي أبركان في العثور على مصباح سحري، ينكسر المصباح إثر مشاجرة عائلية تنتهي إلى طلاق أسامة وسهير، ووقوع الجميع في غيبوبة يستغل فيها المصباح السحري أعمق أمنياتهم في نسج خمس حيوات مختلفة لهم، يجيب من خلالها عن سؤال يدور في أذهان الجميع (ماذا لو فعلت كذا بدلا عن كذا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الإهداء..

إلى الأعزاء:

م. أيمن حويرة ونهى عودة.. لكم الفضل الأكبر بعد الله سبحانه وتعالى. أشكركم.

ا. عمرو يسري.. البداية كانت من أوديوهات العزيزة.. شكر لك ولها.

الفنان الدكتور محمد خميس.. إيمانك بالشخصية، وأدائك لها أضاف لها الكثير.

إلى زوجي.. صديقي.. شريكي..

أحبك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



شكر خاص:

لجامعة برشلونة، ولمركز جوزيف بانكس راين، وللجمعية الروحانية البريطانية على جهودهم المستمرة في التعليم ونشر المعرفة.

السيد إد وارن وزوجته السيدة لورين وارن.

الدكتور محمد أحمد خالد توفيق.





مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوَّل عليه، سواء كان من عائلة الدجَّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أُدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبمَ ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلٍ بشريٍ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

-١- زيارات مكّوكية

تفرك الذبابة الضخمة كفيها –هل هاتان كفاها حقًا؟- أمام فم أسامة شِبه المفتوح، إذ استلقى على الأريكة الخشبية خارج بيت الحاجَّة مريم في ريف طنطا.

يتجمَّع المزيد من الذباب على بقايا الشاي في الأكواب فوق المنضدة المجاورة. اختلاف درجة الحرارة بين الحقل وبين ما تحت سقف مدخل المنزل قد يزيد عن عشر درجات، مما يجعل هذا المكان مفضلًا لدى أسامة والذباب معًا.

تقترب الذبابة أكثر، تنظر في فضول طبيب أسنان إلى قواطع أسامة الناصعة، تشم زفيره المُحمَّل برائحة الشاي بالنعناع، فتقرر القفز إلى هاوية حلقه المظلمة.

يسعل أسامة ثم يدرك أن ما في حلقه ذبابة، فيقوم جالسًا وهو يبصق ويمسح لسانه بطرف جلبابه قصير الكُمين.

تُطل رانيا من باب المنزل وهي تُمسك إصبع «بسكويت» نشادر.

- الذباب مرة أخرى؟

- اللعين. لقد أضاع عليَّ نومة لم أنمها منذ سنوات. أين الجميع؟

تخرج رانيا إليه وتناوله طبقًا صغيرًا به كعكتان بالسكر وقطعتا غُريبة وعدة أصابع بسكويت. يفكِّر أسامة قبل أن يأخذ منها الطبق، ويُمسَّد على بطنه المتكوِّر علامة الشبع. لقد عاهد أسامة نفسه أن يفقد بضعة كيلوجرامات كي يوازن فرق الحجم بينه وبين سهير.. أم لعله فرق الحجم بيني وبينه؟

- أمي تجلس مع طنط مريم، وشريف نائم بالداخل جوار عمر، ومشموش يستمتع بقلب الأوعية في المطبخ ولَعق بقايا الطعام من أطباق الغداء.

- لم تصل خالتك رجاء بعد؟

تزفر رانيا في ضيق وتترك الطبق على المنضدة وتدخل إلى المنزل مفتوح الباب. يهز أسامة رأسه يمنة ويسرة، ثم يتصل بابن عمه محمد الصاوي.

- أبا حميد.. أين أنت؟

- فاتتك صلاة العصر. عرَّجت على الحاجّ مدحت في محل الحلاقة. لديه تكييف ممتاز هناك. ساعة وسأعود معه، لا تقلق.

والحاج مدحت هو عم سهير، وزوج الحاجَّة مريم بالطبع. مُسن بشوش ذو حس فكاهي لا يناسب كل الأوقات، لكن المزاح هو الشيء الوحيد الذي يخفف عنه مصابه في زوجته، ([1]) وما سبق ذلك من أحداث مريبة.

كاد أسامة أن يتمدد مرة أخرى على الأريكة الخشبية ليسمح للذباب باستكمال لهوه، لكنه تذكَّر صلاة العصر التي فاتته، فانتعل الخفين ودخل إلى المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طرقت سهير باب حجرة المَضيَفة (لا توجد مضايف الآن في أغلب منازل الريف الحديثة، لكن بما أنهم في رحلة ريفية، فيجب الالتزام بقواعد تهيؤات أهل المدينة عن الريف كي لا يشعروا أن هناك خللًا ما) فجاءها صوت شريف من الداخل يسمح للطارق بالدخول.

رأته جالسًا على الفراش يمسك هاتفه المحمول، وجواره كوب شاي بارد، امتلأ حتى نصفه بالبسكوت الغارق الذي لم ينتشله أحد في الوقت المناسب. جلست سهير جواره، فنظر لها ثم ضحك؛ كانت ترتدي إيشاربًا مُربَّعًا صغيرًا تربطه إلى الخلف (ليس منديلًا بـ«أوية» فلاحي ذا كرات ملونة حول حافته بالطبع. لم يعد أحد يصنع هذه الإيشاربات المريبة إلا لغرض بيعها كملابس تنكرية أو لمصممي أزياء مسلسلات الريفيين التي تغازل نفس أوهام أبناء المدينة). رفعت حاجبيها متسائلة عن سبب ضحكه، فقال:

- تشبهين بَسَنت.

وكان يقصد شخصية بسنت الريفية الكرتونية، ذات الرأس الكبير والجسد النحيل. ضحكت سهير وتربعت جواره وهي تسأله متحاشية النظر إلى المحادثة المفتوحة على شاشة هاتفه:

- لا بد أنك شردت كثيرًا حتى تحول شايك إلى سيريلاك. أنت حتى لم تتناول أغلب ما وضعه الحاجّ مدحت في طبق غدائك.

- تعرفين أنني.. كنت أتصور شكلًا مختلفًا لأجازة العيد، فقضيناها نأكل كعك طنط رجاء أمام التلفاز، ثم أمِلت أن نسافر إلى مكان أكثر إثارة، فاقترحتما -أنت وأبي- أن تزورا أقاربكما من الدرجة الرابعة والخامسة والعاشرة. لو كنت أعرف لمكثت في المنزل مع رانيا.

- تعرف يا شريف أن تلك الزيارات العائلية هي الأكثر أمانًا. ماذا قد يحدث هنا أو في بيت عم والدك أو خالة جدتي؟ لا شيء! هذا هو بالضبط اللاشيء الذي نحتاجه أنا وأبوك حتى..

قاطعها شريف برفق:

- هذا هو اللاشيء الذي يحتاجه أبي كي يُعيدك إلى القُمقُم.. أليس كذلك؟

- شريف! لا يصح..

- أين الإهانة فيما قلت؟ وافقتِ يا أمي على العودة إلى القمقم على شرط أن تخرجي كل عام مرة، ترين فيها الشمس وتمارسين ما تحبين وما تسمح به لياقة أبي وعقليته. هذه هي المغامرات المشتركة التي تعشمين نفسك بها.

- شريف..

- أمي.. هذا اختيارك ولا أجادلك فيه. أنا فقط أحب أن أسمي كل شيء بمسمَّاه.. في حال فكرتِ في إعادة النظر في شكل حياتك.

- شريف..

- أعرف اسمي جيدًا. شريف أسامة الصاوي، ابن سهير زاهر. أحبهما وأحترمهما، لكنني لست أيهما. وبالمناسبة، وكي لا تتفاجأي.. لا زلت مُصممًا على أن أعرف مدى قدراتي كزوهري. هل أنا نصف جني كما تقول الأقاويل عنا؟ هل خطفني الجان بعد ولادتي مَنحوني قوى خارقة ودمًا من دمائهم؟ هل كان جدي الأكبر زاهر زوهريًّا وورثنا عنه –أنا وأنت والحاجَّة مريم وربما عمر- قدراتنا الغريبة؟

- لن أمنعك يا شريف عن البحث، لكن.. لا داعي لعلاقتك بمهدي أبركان هذا.. هل تعدني؟

قبَّل شريف رأس سهير ولم يعدها، ثم عاود النظر إلى شاشة هاتفه. نظرت سهير حولها فلم تجد عمر، فسألت في قلق:

- عمر! أين ذهب؟

- يلعب بالخارج مع الكلب.

قامت سهير تنادي حفيدها ذا الأعوام الأربع، وهي تجمع جلبابها في صرة أمام بطنها لتتمكن من العدو. تساءلت للحظة إن كانت حياتها المتشعبة في كل صوب حقًا بالحجم الكافي للدخول إلى حيز القُمقُم الآمِن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

-٢- رعب كلاسيكي

وجدت سهير حفيدها عمر جالسًا في براءة على المقعد الخارجي، وقد أكل كل ما تبقى من كعك على الطاولة، وربما أكل كذلك الذباب الذي اختفى في ظرف غامض. تنظر له في ريبة وهي تبحث عن الكلب، لكنها ترى عند بداية المشَّاية الترابية بين حقلي الفول سيارة الحاجّ مدحت تقترب، ومن خلفها سيارة لم تميِّزها، لكنها لمحت رجاء في مقعدها الأمامي.

حملت سهير الطفل وهرولت داخلة، تنادي:

- أسامة.. رجاء وصلت وكذا الحاجّ مدحت. رانيا.. أين أنتِ؟!

تضع سهير حفيدها على الأرض، وتقف في منتصف صالة المنزل تفكر من أين تبدأ. هل تغير ملابسها، أم ستكون الجلسة جلسة رجال؟ هل ستَحضَرها رانيا أم لا داعي للمشاكل؟ الأهم.. هل سيحضرها عمر؟

الأكيد أن الضيوف سيحتاجون إلى ضيافة، ولا ضيافة خير من كعك العيد طبعًا. دخلت حجرة الحاجَّة مريم تبحث عنها، وقد كانت أعراض الشلل النصفي الذي أصاب الأخيرة منذ سنوات قد تحسَّن قليلًا، فصارت قادرة على الحركة باستخدام عكازين بعد جلسات علاج طبيعي مُطوَّلة. انحنت سهير تُخرِج بعض الكعك والبسكويت من أسفل فراش عمها، حيث خزَّنوه في صناديق من الورق المقوى.

لا يخلو بيت الحاجَّة مريم من ابنه الحاجّ فلان أو زوجة «الواد» علان، يخدمونها ويحضرون لها أطعمة المواسم بكميات هائلة. تعتقد سهير أن مخزون الكعك أسفل الفراش قد جاوز الستين كيلو جرامًا.

شهقت سهير وقد فاجأها الشيء الأبيض الذي يعدو تحت الفراش. صاحت: - أسامة! شريف!

نظرت حولها فلم تجد أثرًا لأيهما ولا للشيء الأبيض بالأسفل. زفرت، ثم مدت يدها بحرص وجذبت صندوق الكعك لتضع بعضه للضيوف، لكنها وجدت الصندوق مقطوعًا، والكعك مُفتتًا. تعرف جيدًا معنى هذه القضمات الصغيرة من جانب كل كعكة. ضحكت وهي تنادي: - مشموش.. اخرج..

- مياو... ياغووو..

يخرج القط السمين من أسفل الفراش ويمسح أنفه الملوَّث بالسكر في كفها. قبل أن تقوم، سمعت صوت دقَّات عُكازي مريم يقتربان، التفتت خلفها لتراها تدخل مكروبة من باب الحجرة.

- ما بكِ؟

- هل القط هنا؟ توقَّعت أن هناك ما شغله عن.. عمر.

- ماذا حدث؟!

- لا تهتمي. سأمكث أنا مع عمر إن أردتِ أن تخرجي إلى الضيوف.

- ماذا فعل عمر يا حاجَّة؟

تبعت سهير زوجة عمها إلى الشرفة الخلفية، ورأت سهير ما أرعب مريم قبل أن تشير هي إليه. كلب الحراسة «البلدي» الذي يعيش مع العائلة منذ سنوات ملقى أمام الحقل، وعنقه مُحطَّم حتى كادت فقرات عنقه تظهر من خلف الجلد البني المهترئ.

- عمر؟

- لا عليكِ يا ابنتي..

- لماذا فعل ذلك؟ لقد.. لقد أخبرني شريف أن عمر كان يلعب مع الكلب، و..

- ربما شعر الكلب بشيء.. ربما عمر لم..

- بل هو الذي قتله يا حاجة. أعرف حفيدي، ولولا أن مشموش.. مختلف لكان قضى عليه في لحظات.

- مشموش قطٌ وليس حارسًا فقط يا سهير. قط شتَّته الطعام كأي قط آخر. لا بد أن هناك حلًّا يا ابنتي أفضل من أن يرافق الولد قط!

ضربت سهير السور الحديدي بقبضتها الصغيرة، ثم دخلت تبحث عن ابنتها وهي تفكر فيما عساها قد تقوله لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست رانيا على الأريكة جوار النافذة الخلفية، تنظر إلى الكلب الميت، لا تسمع ما تقول مريم وأمها، فهي لم تخلع سماعتي الأذن الضخمتين منذ ساعات.

تبدو رانيا للجميع فتاة فارغة العقل، لا تعبأ بالكارثة التي ألمَّت بابنها، وتلوم أمها دائمًا على أي قرار يؤثر على حياتها هي، حتى وإن كان قرار غلق جهاز التكييف أو طهي الدجاج بدلًا عن اللحم. لكن رانيا تشتعل. بركان خامد يخفي حمم الغضب واليأس والشعور بقلة الحيلة. دخلت سهير إليها حيث جلست، وأشارت بيدها أمام عينيها، فخلعت رانيا السماعة ونظرت إليها متسائلة.

- هل تودين حضور الجلسة؟

- هل تودون أن أحضر؟

- هذا شأنك يا ابنتي ومستقبلك.

تضحك رانيا ضحكة مريرة، وتضع السماعات على أذنيها مجددًا وهي تقول: - شأني؟ مستقبلي؟ حقًا؟

- انتظري يا رانيا. ما مشكلتك؟ منذ متى ونحن نتحكم فيما تريدينه أنت أو أخوك؟

- ماما! ربما لا تكترثين لما نفعل. لكن أبي؟ أبي يساعدنا أكثر من اللازم! أبي يمنعني من أن أفكر في ابني كما هو. لا ينفَكَ يُطمئنني كذبًا أن ما يمر به ابني «حالة نفسية أو عقلية». ابني ليس مجنونًا.. ابني شيطان يقتل الكلاب، ويلتهم اللحم نيئًا، ويخطط لتدمير العالم ما لم يفلح لاشين في قتله قبل ذلك! اتفقنا؟

لمست رانيا أيقونة مُشغل الموسيقا على شاشة هاتفها فانطلقت الأغاني تدوي في أذنيها، ثم ضغطت زر الهاتف الجانبي ورفعت الصوت إلى أقصى درجة.

مسحت سهير دمعة قبل أن تسقط على خدها، ثم خرجت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لرجاء ابنان؛ مروان ومازن، ذهب الأول للعمل في الإمارات في عام ١٩٩٨، ثم أرسل لأخيه الأصغر فسافر مع عائلته. عاش الأخوان في الغُربة من وقتها، ينزلان مصر كل عامين رغبة منهما في تقليل مصاريف السفر. لم تشكُ رجاء ابتعادهما، وإن صارت سهير وزوجها وابناها وحفيدها أولادها بشكل ما.

جلب مازن عريسًا لرانيا منذ سنوات، يعمل معه في الخليج ويكبرها بسبعة أعوام. كانت رانيا وقتها تدرس في السنة النهاية من كلية التجارة، ولم يبدُ أن لها طموحًا معينًا سوى الهرب.. الهرب من طنطا، الهرب من بيتها الذي ارتبط في ذهنها برؤياها للأشباح/الجن/الشياطين في المرايا والأسطح العاكسة، و.. الهرب من أمها.

لا تكره رانيا سهير، لكنها ترى فيها مصيرها ومستقبلها. لا تكره رانيا سهير، إنما تكره حياتها المستسلمة المحدودة. ثم جاء برنامج بعد منتصف الليل بعد طلاق رانيا، وكان لعنة أخرى تسببت فيها «نزوة» أمها في عمر متأخر.

علاقة رانيا بسهير عصيَّة على الفهم –حتَّى على عقلي وشياطيني- ويبدو أن هذا ناتج عن كونها امرأة. كائن يُفكر لسنوات قبل أن يجيب سؤالك البسيط:

«مالِك؟»، وحين تجيبه المرأة تكون قد نسيت أنت أنك سألت، وتراكمت عليك الزَّلات والأخطاء التي تفسر سبب ضيقها.

من قرأ كتابي «حكايات الشمندورة» سيعرف أكثر عن محمد ورانيا، ومن لم يقرأه فيكفيه أن أخبره أنها تزوجت، سافرت الخليج وتمتعت عامين بالتكييفات والمولات المغلقة وروائح العطور الخشبية الثقيلة والرطوبة التي تُنبت الطحالب حتى على مسام بشرتك، ثم انفصلت عن زوجها بعد إصابتها باكتئاب بعد الولادة وانكشاف أمر رؤيتها للأشباح، وهو ما حاولت إخفاءه عن زوجها طيلة عامين.

عادت رانيا حانقة إلى طنطا ومعها طفلها الرضيع، لم تُشف تمامًا من الاكتئاب ولا من رؤية الأشباح، وزاد على ذلك استيلاء شيطان الرعب على ابنها بعدما تسرَّب إلى حياتهم من خلال برنامج أمها الملعون الذي دمَّر حياة مُقدِّمه السابق شريف السعدني ([2]).

اليوم، وفي مدخل منزل الحاجّ مدحت المفتوح على مشهد حقول الفول، يجلس أسامة ومحمد الصاوي والحاج مدحت على أريكة، ومروان ومازن ومحمد طليق رانيا على الأريكة المقابلة. الشاي وأطباق الكعك (أنياب مشموش ظاهرة على حواف الكعك، لكن الشمس كانت في طريقها للمغيب ولم يلاحظ أحد هذا) أمامهم على المنضدة البلاستيكية البيضاء.

هتف الحاجّ مدحت باسمًا، كاشفًا عن سنيه الأمامين الكبيرين تحت أنفه المدور الضخم: - يا ألف بركة. أهلًا وسهلًا. كل عام وأنتم بخير. كيف حال الإمارات على حِسَّكم؟

يبتسم مازن في ارتباك ويجيب:

- بخير يا حاج. الجو حار للغاية.. و.. والرواتب لم تعد تكفي.. و.. ساعات الدوام طويلة.. و..

- مفهوم، مفهوم. خطوة عزيزة يا محمد يا بني.

كان قد مرَّ على جلستهم قرابة نصف ساعة، سلَّم فيها كل واحد منهم على الآخرين ثلاث مرات، ولم يعد هناك مفر من أن يتحدث صاحب الشأن الذي فضَّل الجلوس خارج المنزل على الجلوس في حجرة الصالون لسبب لا يخفى على أحد. الرجل يخاف هذه العائلة من كبيرها (الحاجة مريم) لصغيرها (ابنه عمر).

قال محمد وهو يضع كوب الشاي على مسند الأريكة جواره، ويمسح طرف شاربه السفلي فيكشف عن شفتين بيضاوين من التوتر: - الحقيقة يا حاج، ويا

عمي، أقصد.. يا دكتور أسامة.. أتيت لأتحدَّث بشأن عمر.

هزَّ أسامة رأسه وأفلت قلبه دقتين. ماذا عن عمر؟ ماذا يريد؟ كان أسامة قد تفاءل صباحًا حين عرف بالزيارة، وظن أن محمد جاء ليعيد المياه إلى مجاريها. يبدو أن ابنته على حق في تشاؤمها.

- تحدث يا بُني.. نسمعك.

- الحقيقة.. لقد قررت العودة إلى مصر نهائيًا هذا الصيف وافتتاح مطعم كريب مع بعض أصدقائي..

ظل يتحدث عن مطعم الكريب، وراتب صنايعي الكريب في مصر مقارنة براتب المُدرس في الإمارات، وفنون حشو الكريب بما لم يخطر على قلب بشر. زفر الحاجّ محمد الصاوي وقال كي يُنهي هذه الفقرة: - ألف مبارك. بارك الله لك في الكريب والشاورما وكل ما تتمنى. آمين. ماذا عن عُمر؟ الولد –ما شاء الله- بخير وصحة، وسيدخل الحضانة العام القادم.. أعني.. ال ـ«كي چي». لن يدخل حضانة حكومية طبعًا إن كان هذا ما تخشاه. التعليم أهم شيء عندنا.

- لن أقلق على الولد معكم يا حاج محمد بالطبع. لكني.. سأتزوج في الصيف، وأريد أن يعيش عمر معي وزوجتي. قال أسامة سريعًا وقد لحمرَّ وجهه: - ولماذا يعيش عُمر مع امرأة غير أمه؟ تزوج كما تشاء يا بُني، وخذ ابنك يمضي معك الأيام التي تريدها، أو تعالَ زُره في بيتنا. لكن ما الحكمة في أن يعيش الولد معكما في أول زواجكما على الأقل؟!

- إن لم يرتَح معنا، يمكنه أن يعيش مع أمي وأبي و..

قال الحاجّ مدحت وقد اتسعت عيناه الخضراوان حتى كادتا تنسكبان من محجريهما: - هذا كلام لا يصح ولم نسمع به من قبل. لماذا تحرم أم الولد منه يا بني؟ عمر في سن يحتاج إلى رعاية أمه، ولن نمنعك عن رؤيته أو أخذه لبيتك كما تشاء. هذا كلام يُغضب أي شخص في مكاننا. هذه قلة ثقة.. عيب.. عيب..

هتف مازن:

- لا يا حاج، مقامكم فوق رؤوسنا. محمد خانه التعبير..

قاطعه محمد:

- لم يخني التعبير، وإن لم أقصد الإهانة طبعًا. الحقيقة التي لا تخفى على أحد، ولا تخفى على أمه لا إله إلا الله، أن عمر في خطر معكم. مصر كلها تعرف

أن الولد ملبوس بسبب جدته. الكل يتحدث عن علاقتها بلاش.. بالشياطين وكل هذه الأمور المرعبة. ماذا فعلتم لإنقاذه؟ لا شيء!

هدرت زمجرة أسامة، فوضع محمد الصاوي يده على كفه يمنعه من النهوض وقال: - لا شيء؟ لقد عرض أسامة الولد على كافة تخصصات الطب في أفضل مستشفيات مصر، وتواصلنا مع أطباء في الخارج، وسنفعل أي شيء يساعده بالعلم يا أخ محمد..

ضحك محمد ضحكة قصيرة ساخرة وقال:

- بالعلم؟! ما هذا العالم الذي تعيشون فيه؟ هذا فيلم رعب.. فيلم رخيص كتبه مسطول! أنا لا أصدق أن ابني يعيش مع جدة مستبصرة وأم ترى الأشباح وخال جني، ويدخل عليه في بيته نصف شيطان وآخر ممسوس أو مجنون وكودية زار! أنا سمعت البرنامج وقرأت كتب هذا الذي يُدعى لاشين. أنتم مجانين!!

انفجر محمد أخيرًا، وهذا ما كان يُنبئ به حديثه السخيف عن الكريب. قبل أن يرد أسامة، خرجت رجاء ترفع عُكَّازها وتشير به نحوه وهي تقول: - لا مؤاخذة يا رجال، لكن ابني هو من جلب هذا الشاب إلى حياتكم، وإن كان مُحرجًا منه لأنه صديقه، فدعوني أرفع هذا الحرج عنه وعن الحاجّ مدحت الذي يستضيفه في داره. اسمع يا محمد، هل ترى هذه السيارة؟ اركبها وسيوصلك مازن إلى أقرب موقف سيارات أجره، اركب منه وعُد إلى عالمك الجميل المشرق المليء بـ «قراطيس» الكريب والعاقلين. معذرة، لن نتمكَّن من إعادتك إلى القاهرة، فموعد اجتماع الساحرات السنوي قد حل، وسنقيم حريقًا حائلًا في حقل الفول هذا ونقدِّم الغرباء قرابين للشياطين.

وقف محمد وقد برزت شرايين عُنقه. خرج شريف من خلف خالته، ووقف مرتكنًا إلى الحائط هو يقول في هدوء: - هل يمكن أن يهدأ الجميع؟ أبي، هل ترى حياتنا من منظور خارجي؟ «طنط» رجاء، هل طبيعي أن يقبل أي شخص أن يعيش ابنه في خطر؟

قال أسامة مستنكرًا:

- ماذا تعني يا شريف؟ نترك له ابننا؟

- عمر ابنه مثلما هو ابن رانيا. اجلسوا جميعًا.. اجلس يا محمد..

هتف أسامة هو يندفع نحو باب البيت:

- ادخل أنت يا شريف. هذا كلام كبار.

هتف شريف:

- كلام كبار؟! وماذا أكون؟!

أكمل أسامة كلامه دون أن يلتفت لابنه:

- أنرت المكان يا محمد. أما بشأن ما تقترح، فلي كلام آخر مع والدك. لم يبقَ سوى أن يتحدث الأطفال في أمور مصيرية كهذه.

صافح أسامة طليق ابنته، ثم اندفع إلى داخل المنزل، مُبعِدًا ابنه عن الطريق. وقف الرجال بالخارج يحدقون إلى الأرض، ثم وضع مازن كفه على كتف محمد يحثه على التحرُّك نحو السيارة وهو يقول لأمه رجاء: - سنرحل. هل ستأتين؟

لم ترد رجاء، فهتف الحاجّ مدحت وقد عاد إلى نَفسه الكارهة للنكد: - أقسم بالله لتتناولوا العشاء معنا. المنازل مغلقة على ما هو أكثر من ذلك يا رجال. هل هذه أول مرة تحضرون فيها جلسة عائلية؟! كان لي خال طعن شقيق زوجته في خلاف كهذا بالضبط، ثم تبرع له بالدم وأنقذ حياته وعادا كالسمن على العسل. الشتائم لا تلتصق، حتى أن خالي هذا شتم في مرة..

غمغم محمد مُقاطعًا:

- شكرًا يا حاج. إن كان الدكتور أسامة لا يرى أنني كبير كفاية كي أحدد مصير ابني، فليتحدث إذًا مع أبي عن رأي المحامي فيما تفعله مدام سهير من ترويج للدجل في برنامجها، وفيما تظنه هذه العائلة في ابني وفي أنفسهم.

صاحت رجاء:

- محامٍ؟!

اتجه الرجال الثلاث إلى السيارة الحديثة الواقفة خلف سيارة أسامة. ضرب محمد الصاوي كفًا بكف وهو يشاهد الفراق، ويسمع نحيب رانيا من الداخل وهي تصرخ: «لن أترك ابني لك ولا لأي مخلوق. هل تفهمون»؟

لكن أحدًا لم يرَ عمر هو يقف فوق سطح المنزل، ينظر من فوق السور إلى والده إذ يبتعد في السيارة. لولا ظلال المغيب الطويلة الداكنة للاحظ الحاجّ محمد الجذور السوداء التي نبتت من الأرضية تحت السيارة والتصقت بأسفلها. هبط عمر مسافة نصف المتر التي كان يبعدها –يطيرها- عن الأرض، ثم استدار وسار نحو الدَّرج في خُطوات طفولية متعثِّرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي، وضعت الحاجَّة مريم -بمساعدة رجاء- أطنانًا أخرى من الكعك أمام أسامة وسهير وشريف ورانيا، وفتحت رجاء علبة أخرى من

الأربعة التي أحضرتهم معها وملأتها بالمخبوزات من صنع يديها.

قال أسامة وهو يتربع فوق المقعد:

- كفانا طعامًا يا حاجة. لا زال الإفطار في بطوننا.

- ألف هنا وشفا.

وكأن ما حدث أمس أضغاث أحلام، نظر أسامة إلى النافذة عن يمينه وقال للمرة الألف: - يااااه.. ما أجمل الريف. أتعرفون؟ لم تدخل الكهرباء إلى أرياف طنطا إلا في عهد قريب. بعد صلاة العشاء لا ترى مخلوقًا في الشارع. لا يختلف الوضع في طنطا عن أي ريف آخر بالطبع.. هل تتذكرين هذه الفترة يا سهير؟

هزَّت سهير رأسها، فانطلق يحكي ذكريات طفولته في ريف كفر الشيخ، ثم مراهقته في ريف طنطا.

- حين انتقلنا إلى طنطا كنت في الرابعة عشرة تقريبًا. سكنَّا في المنزل المقابل لمنزل الحاجّ زاهر؛ والد سهير.

لم يكن أي من ابنيه ينصتان إلى الحكاية التي سمعاها عشرات المرات، وظلَّـت الحاجَّة مريم تومئ برأسها، تغالب النعاس؛ هي لم تنم منذ صلاة الفجر، وظلت تراقب عمر عن كثب، لا تعرف ما الغريب فيه ولا علامَ ينتوي.

- وقعت في حب سهير من أول نظرة. تصادقت عائلتانا سريعًا، وصرنا جزءًا من عائلة زاهر قبل أن أبلغ الثامنة عشرة، حين طلبت من أبي رحمة الله عليه أن يخطب لي سهير.

ابتسمت سهير واحمرَّت وجنتاها.

- كنت بعد في الرابعة عشرة، غارقة في ذعري من كل شيء، خاصة من الظلام الدامس والصمت التام. لم يكن أحد يعرف ما أعاني سوى أبي ورجاء وأسامة.

- لهذا اخترت دراسة علم النفس، ظنًا مني أنني سأجد إجابة لما تعانيه سهير.

رفع شريف عينيه عن هاتفه المحمول وسأل في برود:

- وهل وجدت إجابة؟

- وجدت إجابات يا شريف، لا إجابة واحدة.

- براڤو.

قالت سهير محاولة تلطيف الأجواء:

- لو لم يلتحق أسامة بكلية الآداب لصار ممثلًا شهيرًا. لقد كنت أحب مشاهدة تمثيله على مسرح جامعته. تنبأ له الجميع بالنجومية، لكنه فضّل الالتحاق بفريق التدريس في الكلية لتأمين مصاريف عائلتنا الصغيرة.

تدلَّى رأس الحاجَّة مريم على صدرها، وتشاغلت رانيا في حديث جانبي مع شريف الذي كان يُريها شيئًا على هاتفه المحمول. جاء مشموش متثاقلًا، يمسح بكرشه الممتلئ ببقايا الإفطار أرضية المنزل، ثم وقف على قائمتيه الخلفيتين وجذب كعكة أسقطها على الأرض، ثم حملها بين فكيه وانطلق يعدو.

ساد الصمت هنيهة، ثم قال أسامة:

- يااه على جمال الريف. ما رأيك يا سهير أن نذهب لزيارة الحاجّ فتح الله نعمان في كفر بداوي غدًا؟

- المنصورة؟! أعتقد أن الأولاد..

- أعتقد أن الأولاد يحتاجون إلى التعرف على عائلتينا يا هيرو. هذان لم يريا الأرياف على أصولها.

حدق فيه شريف ورانيا، ثم قال الأول:

- كفر بداوي؟ أبي.. لقد وعدتنا أننا سنسافر في عطلة.. أي أننا سنتنزَّه..

- الحقول واسعة، تنزَها كما تشاءان.

هتفت رانيا:

- أريد العودة إلى بيتنا.

قالت رجاء التي كانت تشاهد إحدى المسرحيات على التلفاز: - أسامة، اسمع كلام أولادك. أي ريف هذا الذي تريدهم أن يستمتعوا به؟ لقد وُلدا لزمان غير زماننا. ها قد زاروا الحاجّ مدحت، والعام القادم يزورون الحاجّ فتح الله.. لا تضغط عليهم فينفجروا.

قالت سهير:

- لنسمح مقترحاتكما؟

سألت رجاء دون أن تنتظر لهم:

- ما رأيكم في الإسكندرية مثلًا؟

فأجاب أسامة:

- الإسكندرية مزدحمة للغاية! ماذا عن جمصة؟

حدق شريف إلى وجه أبيه غير مُصدِّق، هل قال حقًا «جمصة» ([3])؟، فقالت سهير: - هل لي بدقيقة معك على انفراد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-٣- نظرية تامينو أمير

جمع أسامة أطراف الجلباب ثم جلس على الأريكة خارج المنزل كاشفًا عن قصبتي ساقيه، وقبل أن يتنهَّد ويقول شيئًا عن جمال الريف، قالت سهير مبتسمة ابتسامة مصطنعة متوترة:

- حين اقترح علينا شريف أن نسافر في العيد أو بعده، كان مقصده أن نسافر وحدنا كعائلة واحدة.

- وهل سافرنا كعائلتين يا هيرو؟!

- افهمني يا أسامة، الزيارات العائلية على قدر أهميتها وحميميتها، لا تترك مجالًا أحيانًا للاستمتاع بالوقت بين أفراد العائلة الواحدة. لذلك فهي اسمها زيارات، بِر، مودة.. السفر الذي يقصده شريف هو سفر للاستجمام والتقارب بيننا نحن. منذ أعوام وكل منا في جزيرة خاصة به رغم أننا نعيش في نفس البيت. ماذا نعرف عما تشعر به رانيا حقًا؟ لا نرى منها إلا شابة ساخطة تتحسس من أي لمسة لها أو لابنها. ماذا نعرف عن شريف سوى أنه الشاب الطائش زائد النشاط، ابن عصره وعالمه لا ابننا نحن؟

صمت أسامة وهو يحدق إلى المزروعات المصفرَّة المحترقة جراء برودة الطقس غير المعتادة في هذا الوقت من العام. البرودة تحرق كما تحرق النار بالضبط.

- العالم يتغير يا أسامة. لا أقصد أن نتغيَّر معه أو نُغيِّر ثوابتنا. المرونة يا أسامة.. أشعر أننا نتفقر إلى المرونة..

- لا يمكن أن نتغير كما نشاء وكما يشاؤون في نفس الوقت.. أنت مُحقَّة بالطبع لكني لا أعرف ماذا أفعل.

نظرت سهير إلى قدميها وهي تحاول ألا تُفكِّر كثيرًا إلى أي صف تنتمي؛ صف ابنيها أم صف أسامة. هل استخدمت صيغة الجَمع لتخفف عن الرجل فكرة أنه لا يفهم ثلاثتهم، أم أنها أيضًا لا تفهم ابنيها مثله. قالت أخيرًا:

- هل تعرف تامينو أمير؟

- مَن؟!

- حفيد محرم فؤاد. بلچيكي مصري. مطرب هو، ملامحه أقرب لتماثيل الإغريق.. يغني على ألحان غربية وشرقية، قديمة وحديثة.. يصور أغانية فوق أسطح منازل القاهرة وفي شوارع أوروبا.. يتحدث بالفرنسية عن جده المصري في فخر، لكنه لا يشبهه في شيء. طبقة صوته تتراوح بين حزن

الناي وعُمق الكونتر باص. حتى اسمه.. تامينو ومع ذلك أمير! الشاب قطعة من الفن الفريد، لم ينسلخ عن جذوره، لكنه بعد شخص مستقل لا يشبه أحدًا. هل تفهمني؟

- لا أحب محرم فؤاد عمومًا، ولا أستوعب وجود شخص حقيقي بهذه المواصفات ولم يتحوَّل بعد إلى مسخ.

- هذه مشكلتك الأزلية يا أسامة.. ليس في العالم أبيض ولا أسود. هل تذكر معاناتك في التمييز بين الأحمر والأصفر والبرتقالي؟ في لحظة ما يكف الأصفر عن أن يكون أصفر ويصبح برتقاليًّا. لون مستقل لا يشبه أبويه الأحمر والأصفر.

- أفهمك.. وأحاول يا هيرو أن أفهم البرتقالي وتامينو والكاتشب وكل تلك الأشياء الهجينة..

كادت سهير أن تخبره أن كرهه للأشياء ال «بَين بَين» منبعه كرهه لي –أنا لاشين- الإنسان الشيطان، لكنها قالت بدلًا عن هذا:

- لنساعد بعضنا.. كان شريف يود الذهاب إلى دهب في العيد مع أصدقائه، لكنك رفضت. أفهم طبعًا أنك لم ترغب في أن نفترق في العيد.

- هل تريدون الذهاب إلى دهب هذه؟

- لمَ لا؟ سنمسك العصا من منتصفها. دهب مثل تامينو، راقية وبسيطة، فيها عرب وأجانب، يمكن أن تجد ما يناسب ميزانيتك بدءًا من الفنادق حتى المخيمات.. ستجد هناك هدوء الريف وصخب الساحل الشمالي. يمكن أن نستمتع أنا وأنت، ويستمتع شريف، وتحظى رانيا بوقت طيب وخصوصية لعمر.

كان أسامة يبحث على هاتفه المحمول عن شيء، ثم هتف مستنكرًا:

- ما هذا؟!

- ليست دهب كلها واحد.. ما الأسعار التي وجدتها وصدمتك كهذا؟

- لم أكن أبحث عن دهب، بل تامينو! هل هذا الشاب حقيقي؟ ليس مصنوعًا بالذكاء الصناعي ومستوحى من تمثال الإسكندر؟ لن أستطيع سماع أغانيه بينما عقلي يرفض أن يصدق أنه حقيقي.

- لكنه حقيقي يا أسامة! ماذا دهاك؟!

تركته سهير حانقة، ودخلت إلى المنزل، بينما جلس هو يحدق إلى صور تامينو أمير مُتسع العينين. العالم يحوي أكثر مما في عقلك وكتبك يا أسامة.. تعامل

مع هذه الحقيقة، أو اترك العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٤- سراويل علاء الدين

لم تخرج الحاجَّة مريم من حيِّز قريتها التي تزوجت فيها إلا مرة واحدة لأداء فريضة الحَج، واليوم تركب سيارة الحاجّ مدحت التويوتا كورولا موديل التسعينيات متجهين إلى دهب. السيارة مثل الحاجَّة مريم، لم تخرج من نطاق الغربية عمومًا، وتكاد تحفر مسارًا واضحًا في الأرض بين منزل الحاجّ مدحت ومحل الحلاقة الذي يملكه في قرية قريبة من أرضه.

عادت أسرة أسامة إلى شقتهم ومكثوا عدة أيام حتى انتهت سهير ورانيا من غسل الملابس، وانتهى أسامة وشريف من غسل السيارة، ومن حجز ثلاث غرف لهم في أحد مُخيَّمات دهب، الأمر الذي فعله أسامة على مضض وهو يكاد يشتعل حنقًا.

- أنا يا سهير أبيت في مخيم؟!

- ليس مخيم إيواء يا أسامة! لقد رأيت الصور بنفسك! هذا ما تسمح به مقدرتنا المادية. استمتع يا حبيبي.. استمتع!

- لا أعرف ما مشكلة جمصة.. لا أفهم. سامحك الله يا محرم يا فؤاد أنت وحفيدك.

التقت الأسرتان عند كشك عوَّاد قرب الطريق الزراعي، حيث تزوَّدوا ببعض المشروبات الغازية والمقرمشات، ثم انطلقوا في رحلة تزيد عن السبع ساعات. قد تظنون -أيها القراء- أن وجود عائلة الحاجّ مدحت اقتحام للخصوصية التي أرادتها سهير، لكنهما رغم كل شيء هما الخيار الأمثل لرفاق الطريق. مدحت ومريم متزوجان منذ قرابة خمسين عامًا. مستقلَّان، متآلفان، بشوشان، من نوعية كبار السن النادرة التي لا تشكو من سوء الأحوال وعقوق الأبناء وتدهور سعر الصرف والأيام السوداء التي لم يروا مثلها في شبابهم. لا يتدخلان في حياة أحد، ويقابلان أي محنة بالكثير من الضحك و»سيبها على الله» عن إيمان واقتناع حقيقيين.

لذا لن تعرف أبدًا عمر الزوجين الحقيقي، خاصة الحاجّ مدحت ذا العينين الخضراوين الواسعتين والسنين الأماميين الضخمين والصحة الممتازة. أما عن سبب مرافقتهما لعائلة أسامة، فهو بسيط ومباشر. قال الحاجّ مدحت وهو يجلس جوار زوجته على الأرض، ينتظران أن تُنهي عائلة أسامة جمع آخر حاجياتهم المتناثرة ليعودا إلى بيتهم: - يا أسامة يا حبيبي، كُف عن التفكير ولو لساعة. اتركها على الله. «الواد» محمد هذا لن يستطيع فعل أي شيء. ما هو فيه «حلاوة روح» لا أكثر. يريد أن يظهر في الصورة كي لا يلومه أحد على أنه تزوَّج وأكمل حياته دون أن يلتفت إلى ما يحدث مع ابنه. سأذهب أنا والحاج

محمد الصاوي كمندوبين عن أبوي «البِت» رانيا، وسنتحدث إليه ونرى ما كل هذا الصداع عن الكريب. سنجد حلًا. أقطع ذراعي، لو عرف هذا الشاب مصاريف إقامة الولد عنده سينتحر على سيخ الشاورما.

- الأمر يا حاج أكبر بكثير من محمد والكريب وتامينو و..

- من؟ تامر من؟

- لا عليك.. الحياة تتهاوى فوق رأسي.

- افصِل.. يا حبيبي أنت لم تعد شابًا، لكنك لم تصبِح مُسِنًا بعد. اذهب مع «العيال» إلى دهب هذه واستمتع وانزل البحر وكُل ذرة وسمكًا مشويًّا. كلكم تحتاجون إلى راحة حقيقية.

نظر أسامة نحو عمر الذي كان يضرب مشموش إلى الحائط وهو يضحك في براءة، فيرتمي القط على ظهره ويداعبه بقوائمه الأربع قبل أن يتقيّأ كل الكعك الذي ملأ به بطنه. تضحك الحاجَّة مريم وتقول: - خيَّبك الله أيها القط! ما قولكم أن نذهب إلى دهب أنا والحاج، فنُغيِّر جو، ونُنزل عن كاهل رانيا ثقل مراعاة عمر؟ الأطفال أشقياء في هذه السن ولن يتركوا للبنت فرصة الاستمتاع بوقتها. كفاها ما سمعت من أمر طليقها.

هكذا، اتجهت العائلتان غربًا، وعند عوَّاد، أخذت الحاجَّة مريم عمر من أمه، وقالت للجميع وهي تناوله كيسًا عملاقًا يحوي شيئًا من كل علبة حلوى لدى الكُشك: - لا هموم من أي نوع لمدة ثلاثة أيام. من أراه منكم عابسًا سيعرف «شغله» معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت العائلتان إلى المخيم المنشود -مخيم الفَريد- عند صلاة الظهر تقريبًا، بعد الكثير من التوقف في الطريق لإراحة السيارتين المُسنتين وسائقيهما. قاد شريف سيارة الحاجّ مدحت نصف المسافة، وقادت سهير سيارة زوجها آخر ساعتين.

خلد الزوجان مدحت ومريم إلى النوم برفقة عمر ومشموش فور وصولهما، وظل أسامة يحدق إلى إطارات السيارات الملونة التي يستخدمونها كمقاعد في فناء المخيم الرملي، ويُقلِّب الوسائد الخشنة والطنافس المنقوشة بنقوش بدوية، ثم حوَّم حول فراش قماشي مُعلَّق بين حاملين، تساءل إن كان سيتحمَّل وزنه أم أنه قطعة للزينة فقط.

- ألن ترتاح قليلًا يا أبي؟

نظر أسامة إلى شريف وقال:

- ارتَح أنت، ودعني أستكشف اختياراتك هذه. ما هذه الأرجوحة العجيبة؟

في المساء، بدَّل أسامة ملابسه إلى سروال يصل إلى قصبتي ساقيه، وقميص قطني أبيض، وغطاء رأس -ليلًا- يشبه قبعات الصيادين. كان يحاول أن يجد لنفسه مكانًا وسط كل هذا، معتنقًا أخيرًا نظرية تامينو أمير، لكن يبدو أنه قد فشل في تطبيقها نوعًا، بينما نجح الحاجّ مدحت والحاجة مريم في هذا بكل تلقائية، فارتديا جلبابين مُريحين وجلسا يشربان القهوة ويلاعبان عمر الذي يصارع مشموش على كيس الحلوى. خرج شريف من غرفته فنظرت له سهير نظرة متعجبة سريعة، ثم حاولت صرف نظر أسامة عنه.. وفشلت.

- ماذا ترتدي يا بُني؟ سروال علاء الدين هذا؟

- اسمه «شِروال» يا أبي. الجميع يرتدونه هنا.

قالت رانيا ضاحكة وهي تتربع جوار أبيها:

- انتظر يا أبي حتى ترى العمائم والأوشحة وحقائب المجاذيب التي يحملونها هنا.

غمغمت سهير:

- لماذا لم تقل لي أنك ستشتري شروالًا يا ولد؟

- قولي له يا هيرو.. ما هذه الموضة..

- كنت أريد واحدًا. لنتبادل ارتداء هذا إذًا!

نظر لها أسامة رافعًا حاجبيه تعجُّبًا، ثم سأل ابنه:

- إلى أين تذهب؟

- سأقابل صديقًا لي يعمل هنا. لن أتأخر.

قام أسامة بعد قليل مع سهير يستكشفان المكان وروَّاده. أول ما لفت نظرهما امرأة قصيرة القامة تبدو كطفلة، ترتدي حُليًا ذهبية أكثر من اللازم مع عباءة ذات غطاء رأس. قال أسامة ساخرًا: - المزيد من أجواء ألف ليلة وليلة.

قالت المرأة شيئًا لموظف الاستقبال، لم يتبيناه بسبب اللغة الغريبة التي استخدمتها المرأة. هتفت سهير: - لا أريد أي شيء يثير التساؤلات والتفكير. لنبتعد.

وابتعدا حتى خرجا قرب ساحة انتظار السيارات. لمحت سهير سيارة أرجفت قلبها. ضيَّقت عينيها وحدقت إليها فلم تتبين أرقامها ولا لونها بدقة وسط

الظلام. هزَّت رأسها تنفض عنه وساوسها، وتأبطت ذراع أسامة ليبحثا عن شيء يؤكَل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لن أحدثكم عن نظرية التشابك الكمي الفيزيائية كاملة، لكني سأطلب منكم أن تتخيلوا أن هناك صلة بين جسيمين يتصرفان كوحدة واحدة حتى عندما يكونا متباعدين. إن أجريت قياسًا على واحد منهما، تأثَّر الآخر على الفور بهذا القياس بغض النظر عن المسافة التي تبعدهما. الفكرة أرعبت آينشتاين نفسه حتى عندما كانت الفيزياء الكمية في مهدها.

ما لا تستوعبه عقولنا، تهابه. كلنا أسامة بشكل أو بآخر، لكن حتى لو ابتعدنا عن المفاهيم العلمية الصعبة، واتجهنا نحو المفاهيم الفلسفية سنجد أن التشابك الكمي يحدث على مستوى ربط مصائر البشر أنفسهم ببعضهم البعض.

ما الذي يربط بيننا –كبشر- حقًا؟ لماذا تخطر لنا أحيانًا نفس الأفكار في نفس الوقت؟ لماذا نرى أحلامًا مشتركة من حين لآخر حتى لو كنا غرباء تمامًا عن بعضنا؟ ماذا وراء الوعي البشري الجماعي؟ هل يعيش كل منا حقًا في جزيرة منفصلة كما نتخيل؟ هل نعرف عن أنفسنا حقًا أكثر مما يعرفه الآخرون عنا؟

تساؤلات كهذه خطرت لي كما خطرت –ربما- لسهير وأسامة وربما خطرت لرانيا ومدحت والمرأة ذات العباءة و.. والرجل السمين الصاخب الذي لم أره منذ كنت في العشرينيات لكنه في نفس المخيم، يفصل بينه وبين سهير زاهر - التي يعرفها جيدًا ولا يعرف شكلها- إلا بضعه أمتار.

يصيح الرجل السمين وسط السوبر ماركت حيث تقف سهير وأسامة يحملان أطباق اللانشون والجبن: - أين صاحب «هذا المخروب»؟ أنتم لا تفهمون شيئًا في إدارة المحلَّات ولا حتى في «الباذنجان الأسود» نفسه.

لم تتابع سهير شجار الرجل أجش الصوت خشية أن يكون هو من تظنه ([4]). لم يلاحظه أسامة بعدما أصيب بصدمة من فاتورة مشترياته، فحمدت سهير ربها على ستره، وجذبت أسامة ليرحلان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأخَّر شريف حتى الرابعة فجرًا، وحين عاد أخيرًا وجد والده في حجرته.

- أين كنت؟

- أبي؟ أنت لم تنم منذ أمس!

- لم أنم منذ أنجبتكما. أين كنت؟ لماذا لم تُجِب اتصالاتي؟

- أنا.. حقًا؟ لم أسمع الهاتف.

- مع مَن كنت؟

- أصدقائي يا أبي.

- ماذا في حقيبة المجاذيب هذه؟ هل تدخن؟ أنت حُر طبعًا لكن لا تفعل شيئًا من ورائي! أرِني هذه الحقيبة.

مد أسامة يده نحو الحقيبة، ففتحها له شريف هو لا يُنزل عينيه عن عيني أبيه. أفرغها أسامة على الفراش، ليجد فيها المحفظة ونظارة شمس وسماعة بلوتوث وهاتف محمول و..

- ما هذه؟

- كما تبدو. خريطة.

-أنا لست أعمى. هذه ليست خريطة مما يوزعونها على السائحين، بل مرسومة يدويًا.

- بالـتأكيد لن أُدخِّن خريطة مرسومة يدويًا إن كان هذا ما تقصد.

زفر أسامة في ضيق؛ يعرف شريف كيف يكون مستفزًا. أشار نحو هاتف الشاب وسأله: - لماذا أغلقت هاتفك؟

- فرغ الشحن.

- من هي الفتاة التي تخرج معها يا شريف؟ إسرائيلية أليس كذلك؟ لهذا السبب تصر على زيارة دهب؟

ضحك شريف وارتمى على الفراش وهو يقول:

- إسرائيلية؟ هذه أجواء انتهت منذ التسعينيات يا أبي، من أيام فيلم الحب في طابا. أريد أن أنام، وفي الصباح سنذهب سويًا لتتأكد أنني لست مصابًا بالإيدز ([5]). تصبح على خير.

ألقى أسامة نظرة شك أخيرة على الخريطة، ثم خرج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينم أسامة حتى الصباح، وظل وحيدًا يشاهد الشباب يرفلون في سراويل علاء الدين، ويعتمرون عمائم من قماش منقوش بالأبيض والأسود، حتى أنه قد ضبط نفسه يُدندن تتر كارتون علاء الدين المُترجم للهجة المصرية.

- يالا بينا لمكان، فيه الخطر شيء بسيط، زي واحد بيتمشى في بستان.

..كل شارع فيه ساحر، كل ضلمة عفريت...

ضيق أسامة عينيه وهو ينظر نحو شاب داكن البشرة، يرتدي حليًّا فضية أكثر من اللازم مع قرط يتدلى من أذنيه، و.. ما هذا المربوط حول خصره، ويخفيه سرواله؟

افتح يا سمسم، كله يبان!

..علاء الدين.. يا علاء الدين..

يتجه الشاب الأسمر إلى إحدى حجرات المخيم ويختفي بدخلها. هل كان هذا خنجرًا؟ ذاك المربوط إلى خصره؟

يا فارس يا نبيل، وحصانك بيطير، للنجدة طايرين..

الرجل السمين من السوبر ماركت يصيح عند مكتب الاستقبال:

- أين مفتاح مكتبي؟ لماذا لم تُغيِّروه إلى كارت إليكتروني مواكبةً للعصر أيها البهائم؟

يقضم أسامة أظفاره وهو يقوم ليلقى نظرة أقرب على وجه الرجل. لم يكن سيعرفه على أية حال، لكن الصوت والعبارات مألوفان لديه إلى حد مُقلق.. لا زالت الأغنية تتردد في ذهن أسامة. قلة النوم تدفعه للجنون.

علاء الدين.. يا علاء الدين.. واخد ع الأخطار، تغلبها بإصرار...

خرج إلى ساحة انتظار السيارات جوار السوبر ماركت، ورغبة عارمة تدفعه في أن يُعيد اللانشون غالي الثمن إلى المتجر. لن يخدعه أحد من قبل..

والأخيار مش ساكتين، والأشرار بالملايين، والأصحاب متحاصرين بالويل...

رعدة أصابت أسامة فجعلته ينتبه وينظر حوله في الظلام. هذه ليست رعدة برد أبدًا. يردد أسامة بصوت مسموع عصبي وهو يقترب من سيارة الدفع الرباعي في ساحة الانتظار: كل شارع فيه ساحر، كل ضلمة عفريت...

ضوء صالون السيارة مضاء. عندما اقترب أسامة أكثر، أضاءت السيارة كشافيها الأماميين في عينيه، وتحرَّكت إلى الخلف لتخرج من صف الانتظار.

هدر صوت أسامة في الظلام:

- لاشين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت سهير على صوت شجار لا تفهم منه حرفًا، وإن كان فيه شيء من اللغة العربية..

- اخرج لي. رأيتك بعيني تدخل.

- عالية؟! ماذا تفعلين هنا؟ كيف جئتِ أساسًا؟

- كما جئت أنت! أم تظنني الطفلة التي وجدتها في الماضي؟ أنا أعرف جيدًا ماذا تفعل هنا. منذ صادقت اللعين الآخر وأنت قد تبدل حالك.

- ماذا تقصدين؟ كيف تخرجين دون إذني؟ هل أمي تعرف أنك هنا؟

- لا تهرب من سؤال. أرني من تخبئ في الغرفة. أفسِح!

أطلَّت سهير من نافذة الغرفة لترى شريف يقف أمام إحدى الحجرات المفتوحة، ورانيا تقف أمام حجرتها مع الحاجّ مدحت والحاجة مريم التي تحمل عمر. ثم دوى صوت طلق ناري بعيد من جهة ساحة انتظار السيارات. خرجت سهير إلى الحشد بالخارج بعدما اجتمع بضع أشخاص من المخيم يشاهدون ما يحدث عن بعد.

- شريف.. ماذا يجري؟ أين أبوك؟

لم يُجب شريف، ودخل إلى الحجرة التي تعالى منها صوت المرأة:

- أين خبئتها؟

- من هي؟! هل جُننتِ يا عالية؟ أنا هنا في عمل، هل يعقل أن أسافر كل هذه المسافة لأجل امرأة؟! هل تعرفين من أكون أم أن السفر أثر على عقلك؟

- أنت رجل غني، وأي امرأة ستتلهف على معرفتك.

دخلت سهير لا إراديًا خلف شريف الذي كان يقول للمرأة الغاضبة: - اهدأي.. أنا صديقه، وهو هنا في رحلة عمل حقًا.

- أي عمل لك مع شاب رقيع كهذا؟ لحظة.. لحظة!

دارت المرأة حول شريف –الذي اتفقنا أيها القارئ على أنه وسيم دقيق الملامح كالدمى- وقالت: - أنت لست هنا مع امرأة يا مهدي! طلقني حالًا!

صاحت سهير وهي تجذبها من ذراعها بعدما فهمت من السياق:

- من أنت أصلًا ومن هذا الرجل؟ ماذا تقولين عن ابني؟! ابني رجل يا مدام، وأنتِ أدرى بزوجك كي يخطر لك هذا الخاطر أصلًا.

اتسعت عينا مهدي وصاح:

- ماذا تقولين أنتِ الأخرى؟!

انطلقت المرأة التي عرفنا أن اسمها عالية نحو الرجل الذي عرف قارئ السلسلة أنه مهدي أبركان – الزوهري سفَّاح السَّحرة- وراحت تُفتِّش جيبه وهي تقول: - هات مفتاح السيارة. هل تتصور أنني سأترك لك شيئًا من ثروة ديهيا بعد طلاقنا؟ لو عرفت ما فعلت لن تترك تدخل مملكتها مرة أخرى.

حاول مهدي إبعاد عالية عن جيب بنطاله إذ تحاول البحث عن المفتاح كأنه يدافع عن أغلى شيء يملكه، ثم أخرج من الجيب شيئًا صغيرًا لامعًا قذفه نحو شريف وهو يقول: - أمسك يا شريف.

في نفس اللحظة، سمع الجميع من يصيح بالخارج:

- هل جُننت يا أسامة؟! هات هذا المسدس..

هوى الشيء الصغير الذي رماه مهدي نحو شريف، وتهشم على الأرض إذ تشتت شريف عنه بعدما سمع صوتي واسم والده. في الفناء، كنت أنطلق خلف أسامة، لا أريد أن أمسَّه من الأساس، لكن يبدو أنني سأضطر إلى ذلك. حين رأيته يقترب من سيارتي في ساحة الانتظار، قررت الرحيل، لكنه تعرَّف على السيارة وعلى الشعور الذي تبثه شياطيني فيمن حولي. فتح باب سيارتي وجذبني من ياقة قميصي، ثم أبصر مسدسي الذي لم أكن قد خبَّأته بعد، فجذبه وأطلق الرصاص نحوي وهو يصيح: - ألن ينتهي هذا الفصل اللعين من حياتي؟!

أصابتني الرصاصة من مسافة قريبة في أعلى صدري، وانفجرت الدماء من الشريان هناك. كاد أسامة أن يفقد الوعي وهو ينظر إلى ما فعل ويرتجف.

قلت له وأنا ألهث من الألم، بينما شياطيني تُشفي الجرح:

- هات المسدس وارحل. سهير لا تعرف أنني هنا، ولست هنا لأجلها. أقسم لك.

- قَسَم الشياطين هذا..

قالها كأنه يبصق في وجهي، وانطلق ومعه سلاحي نحو المخيم، وأنا خلفه. والآن يقف أسامة أمام سهير ملوحًا بالسلاح: - تامينو أمير هه؟ الهجين اللعين هنا يا سهير وأنت من أقنعتني أن أجلبك بنفسي.. بنفسي إلى هنا؟! مع أولادنا يا سهير؟ مع أقربائك؟!

- أسامة؟! لاشين؟! ماذا يحدث؟

- مَن أنتِ؟ لست سهير أبدًا.. أنا لا أعرفك.. لم أعد أعرفك..

وقف شريف أمام أمه وهو يصيح:

- أبي، هات هذا السلاح. أنا من أقنعت أمي بالذهاب إلى دهب بالذات. هي لا تعرف شيئًا عن وجود لاشين.. أقسم لك.

- سِرُّ سهير معك أنت يا شريف. أعرف هذا وكنت راضيًا به. لكن.. تخدعني أنت وأمك يا شريف؟ وأنت يا رانيا؟ هل كنتِ تعرفين أن لاشين هنا؟ لاشين أملك في أن يُشفى ابنك؟ لقد صرتم جميعًا عائلة لاشين.. وأنا؟

حاولت أن آخذ المسدس من بين أصابع أسامه دون أن أستفزه، فتركه يسقط على الأرض وهو يقول: - أنت طالق يا سهير. كفانا..

هوت رانيا على رُكبتيها وهي تبكي بصوت زلزل الهواء البارد الساكن. انطلق الحاجّ مدحت خلف أسامة الذي دخل حجرته، ولف شريف ذراعيه حول كتفي سهير الساكنة كتمثال، ووقفت مريم تحمل عمر على ذراعها ذاهلة. قالت عالية وهي تنظر لي نظرة احتقار: - سينتقم الله منك! أفسدت زوجي وحياة هذا الرجل.. أنت شيطان لا يستحق سوى الموت.

رحلت عالية وانطلق مهدي خلفها يحاول تهدئتها. بينما اندفع نحونا رجل سمين أعرفه جيدًا -فريد- وإن تعجَّبت من وجوده هنا. هتف: - ما الذي يحدث في منتجعي؟ مَن قتل مَن؟! أقسم بالله لو تلوثت تلك الطنافس بقطرة دماء...

ظل يدور حولنا ويتوعَّدنا وهو يطمئن إلى أن أثاث المخيم بخير، ثم نظر إلى وجهي وسألني: - هل أعرفك؟

كنت أعرفه بالفعل، ومَن تابَع السلسلة سيعرف أنه فريد، عامل التشطيبات الذي تعرفت عليه في ستوديو صديقي للصوتيات، ثم جمعته الأقدار بسهير من خلال برنامج بعد منتصف الليل، وقد اتصل يطلب منها مشورة بخصوص مقهى عتيق اشتراه ليُجدده ووجده مسكونًا بأشباح الماضي. المهندس فريد كما يحب أن يُطلق على نفسه، قد بدأ حياته عامل طلاء حوائط، ثم صار مقاولًا يبيع ويشتري في الناس أكثر مما يبيع ويشتري المباني، ثم عرفنا أن نشاطه قد امتد لتشييد التجمعات السكنية الراقية – كولباوندات كما ينطقها- وها هو قد وصل إلى إنشاء المخيمات السياحية.. مخيم الفريد.. ياللنرجسية!

رجل طموح هو، جاهل، سليط اللسان، عاثر الحظ إلى حد غير مسبوق، يتعثر في الماورائيات كما يتعثر طفل حديث العهد بالمشي. هل تذكرون نظرية التشابك الكَمي؟

انصرف الجميع كل إلى حال سبيله، ولم يبقَ سوانا. تحت قدمي شريف الشيء الذي جئت لأجله. الكنز الذي احتجت إلى اثنين من الزوهريين للعثور

عليه.

رفعته من الأرض. لقد تهشَّم. لم يكن الشيء البلوري الصغير يشبه مصباح علاء الدين في شيء، لكننا كنا نعرف أنه هو.. المصباح السحري الحقيقي، الذي خبَّأه الجان في جبل الطويلات؛ أكثر الجبال التي رأيتها براءة وازدحامًا.

في يأس، تركته يهوي مرة أخرى. ما عاد شيء قادر على إصلاح ما أفسدته – عمدًا وبلا قصد- ولا يوجد شيء قادر على إنقاذنا.

كنت أتمنى لو أحظى بفرصة أخرى، وكان شريف يتمنى لو تحظى عائلته بفرصة أخرى. لم يكن لمهدي أمنية يسعى لتحقيقها، لكنه بالتأكيد كان سيأخذ المصباح بعد استخدامه –إن عرفنا كيف يُستخدم طبعًا- ليضمه إلى مقتنيات أمه ديهيا الشمطاء. لكن..

كل شيء فسد..

كل شيء انتهى.. كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للحظات، سكن كل شيء حولنا، حتى الهواء، ولم يتحرك شيء سوى فراشة ذهبية - لا أعرف من أين جاءت- والذكريات في عقولنا، ذكريات تزاحمت لتحتل مقدمة مسرح اليأس الذي نقدم عليه عرض حيواتنا السخيفة. ومع الذكريات جاءت الأمنيات، وتبع الأمنيات الندم.. ليتني ما فعلت، ليتني فعلت.. لكم تمنيت لو أني..

سكن كل شيء إلا من تجلي اللحظات المفصلية التي صارت حيواتنا قبلها لا تشبه في شيء حيواتنا بعدها. هل يمكن أن نبدأ من جديد؟ هل توجد حقًا فرصٌ أخرى؟

تُرى هل ندم أسامة على طلاقه سهير، أم تمنى لو لم يتزوجها من البداية؟ ماذا لو لم يدرس علم النفس لحمايتها.. ماذا لو لم يترك نفسه لأعباء الحياة حتى ما عاد يتعرف على وجهه في المرآة؟ متى كان على حقيقته، ومتى تشوَّه؟

هل كرهت سهير أسامة حتى تمنَّت لو كان غريبًا عنها، أم ندمت على قبولها البرنامج؟ هل غير البرنامج حقًا حياتها، أو غيرتها أول صورة فوتوغرافية التقطتها وعرفت من خلالها أنها ليست امرأة عادية؟

هل تمنَّت رانيا لو لم تُنجب عمر؟ أم تمنَّـت لو لم تنجبه من محمد بالذات؟ هل تكره أمها حقًا؟ هل تتمنى لو كانت ابنة امرأة عادية وأم طفل عادي؟ هل تحب عمر بالفعل، وهل حبها قادر على إنقاذه؟ هل من مخرج؟

لن أخبركم ما دار في عقلي وقتها، لكنني كنت أحدق إلى وجه سهير، أود لو كان لي الحق في إخفائها بين ضلوعي من قسوة الموقف وحرجه. كنت مراهقًا حين أحببتها، لكن من الأحمق عديم القلب والعقل الذي حكم بالإعدام على حب المراهقين؟ ماذا لو تشجعت وحدثتها حين دق قلبي لها في المكتبة؟ ماذا لو أنها أحبتني، فصارت عائلتي وصرت عائلتها؟ هل كنت سأيأس إلى درجة محاولتي الانتحار عن طريق التهام الشياطين؟ أم كنت سأعود لها، وأبكي أخي وأمي، ثم أدفنهما وأموت بمرضي وأنا باسم، أنظر إلى سهير وأتذكر السنوات القليلة التي قضيناها كعائلة؟

آه من الذكريات والأمنيات والندم..

آه من السكون الذي لا يدوي فيه سوى صوت رفرفة جناحي الفراشة، وسؤال واحد؛ ماذا لو لم أفعل، وماذا لو فعلت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

جروب الماميز

استيقظت رانيا على صوت المنبه، الساعة السادسة والنصف. تفتح عينيها لترى شيئًا ذهبيًا يلمع فوق هاتفها.

فراشة؟

تهشها، فتطير نحو النافذة المفتوحة، التي تتذكر رانيا أنها أغلقتها قبل النوم.

تمد يدها خلفها لتوقظ عمر وهي تُتمتِم:

- عمر.. المدرسة..

تتساءل ما هذا السائل الدافيء خلفها. اللعنة، لقد فعلها عمر مرة أخرى وبلل الفراش.. ما هذا الفراء؟ تلتفت رانيا خلفها في ذعر لتجد القط السمين غارقًا في دمائه الساخنة. تزفر رانيا هي تغمغم:

- كل يوم أضطر لإرسال الأغطية إلى التنظيف الجاف واضطر لأن أشرح أسباب تلوث أغطيتي بالدماء.

ثم تنادي:

- عُمر.. لو كنت ستقتل القط كل يوم فافعلها داخل البانيو. لقد تعبت من التنظيف خلفك.

ثم تستدير نحو جثة القط وتردف:

- وأنت، قُم من هنا. لا «تستموِت». هذه ليست المرة الأولى.

يموء القط ويقوم وهو يجر ساقيه خلفه، ثم يجلس في الركن يلعق فراءه. قامت رانيا من الفراش ونظرت إلى هاتفها المحمول لتجد رسالة من امرأة لا تعرفها. تفتحها وتقرأ:

«الجميلة رانيا، كيف حالك يا «قمر»؟ لدينا مجموعة ملابس لطوال القامة من تصميمات «١٧٥+ ستور»، ونود أن نرسل لك منها عينات لترتديها أثناء تسجيلاتك ولقاءاتك، وربما لو كان لديكِ وقت تتحدثين من خلال صفحتك على إنستجرام عن تنسيقات «بلوزاتنا» الطويلة والقصيرة مع مختلف أنواع السراويل والتنورات. سنتفق على المقابل المادي وأخبريني في حال أردتِ الاحتفاظ بالملابس. في انتظار ردك.»

زفرت رانيا وهي تفكر في رفض العرض. آخر مرة قبلت الدعاية لشركة منتجات تجميل، خصموا من أجرها ثمن البضائع التي أرسلوها لتجربها، وكادت

تنفق الباقي في علاج وجهها الذي ملأته البثور، لكنها تعلّمت اللعبة منذ سنوات، وعالجت وجهها لدى خبيرة تجميل مقابل الدعاية لها.

ربما ستقبل لكنها لن تُنقص مليمًا من ثمن الدعاية، ولتذهب الملابس إلى داهية. مصاريفها كثيرة ولن تطلب من زوجها الإنفاق على عملها الخاص واستقلالها الذي..

- ماما!

قطع صوت عمر تفكيرها في أشكال «الاسترزاق» الممكنة من صاحبة الرسالة، فنظرت خلفها لتجده يرتدي ملابس المدرسة الدولية ذات اللونين الأزرق والبرتقالي، ويحمل حقيبته على ظهره، ويمسك صندوق الغداء –لانش بوكس- ويشير نحوه وهو يقول برقة:

- ماما. صباح الخير أولًا. لم أشأ أن أوقظك، لكن.. أظنك نسيتِ إخراج الكبد من المُبرد أمس. لا بأس.. وضعته كما هو في الصندوق، وأريد فقط كيسًا أضعه فيه كي لا يقطر دمًا على كتبي. تركت لك قطعة في المطبخ لتطهيها كما تحبين.

اعتادت رانيا على أن يحدثها ابنها ذو الثمانية أعوام بهذه الطريقة المنمقة، وبالعربية السليمة، بينما لا يتحدث سوى الإنجليزية في المدرسة، والفرنسية في النادي، والألمانية في فصول تعلم البيانو، والروسية في تمرين الباليه. طفل مثالي هو فيما عدا لعبه الخشن مع هذا القط الذي وجدته صدفة منذ أربعة أعوام، وميله إلى تناول اللحوم نيئة.. أو الأفضل لديه؛ تناولها حية.

عيوب بسيطة مقابل أخلاقه وأدبه وعلمه.

أحضرت له رانيًا كيسًا، فوضع فيه الصندوق، ثم كادت تنحني لتُقبله قبل رحيله، لكنه رفع كفه في أدب يمنعها من الانحناء، وطار عن الأرض نصف متر وقبَّلها، ثم نزل ليلحلق بأتوبيس المدرسة.

تأثرت رانيا لأخلاقه الراقية، ثم تذكَّرت الرسالة، فقررت أن تصنع كوبًا من القهوة باستخدام غلاية الماء والقهوة سريعة التحضير، ثم صوَّرتها أمام ماكينة صنع القهوة، وأرسلت الصورة على حسابها مع عبارة:

«يومك ملكك وحدك، لا تدعي غيرك يصنع لك قهوتك أو يومك.»

كان لديها كتاب أجنبي فيه عبارات لا تنتهي لتحفيز النفس، تُترجم منه سطرًا يوميًا لتكتبه جوار فنجان قهوتها وإفطارها الصحي الذي يأكله القط مشموش في النهاية.

جلست تشرب القهوة شاعرة أن هناك شيئًا غريبًا في تفكيرها، كأنها دخلت فيلمًا من منتصفه.. كلا، كأنها دخلت فيلمًا حكاه لها أحد من قبل، ودخلته في منتصفه. يبدو أن السهر قد أثر على عقلها. الذكرى الأكثر سطوعًا لديها هي ذكرى الرسالة الأولى.

كانت وقتها قد تزوجت من محمد (عريس الصالونات) منذ عامين، وأنجبت عمر في الإمارات، وشعرت بعد إنجابه أنها استنزفت كل متع الحياة خارج البيت، ولم يعد لديها سوى الجدران الأربعة والتكييف البارد. قررت وقتها أن تدرس عبر الإنترنت، لكنها تكره الدراسة. وجدت أحد المشاهير يُدرس «كورس» عن فن إدارة الذات، فبدا لها ظريفًا - الشاب المشهور لا الكورس- والتحقت به. بعد إنهاء الدراسة عرفت أن السلطات قد اعتقلت الشاب بتهمة منح شهادات دون ترخيص، فلم تُكذِّب خبرًا، والتحقت بكورس آخر عن التربية الإيجابية، وأقنعت محمد زوجها أنها تريد تربية ابنهما على النهج القويم، فوافق.

رغم أن الكورس لم يخرج عن بضع محاور لا تصلح لتربية زوجي أرانب، لكن رانيا وجدت في نفسها مَلَكة التدريس، وهي مَلَكة لم تكتشفها إلا حين اعتقلت السلطات مدربة التربية الإيجابية بتهمة صعق ابنها بالكهرباء لرفضه الذهاب لتمرين السباحة في الشتاء. إن كان هؤلاء يتكسَّبون من الكورسات، فماذا يمنعها هي من التكسُّب بهذه الطريقة، والأهم، نيل الشهرة التي ستعوضها عن كونها شفافة طيلة حياتها. هي حية، لكنها غير موجودة إن كنت تفهم هذه التعبيرات، وإن لم تكن تفهم، فأنصحك بالبحث –عزيزي القارئ- عن كورس يفسر لك اقتباسات الروايات العميقة هذه.

لمدة عام ونصف ظهرت رانيا أسبوعيًا على شاشة يوتيوب، تقدم نصائح مجانية في التربية الإيجابية، وإدارة الذات، وكي الملابس، وصناعة الحلوى من قشر البطيخ، دون طائل. لم تزد المشاهدات عن عشرة أو عشرين مشاهدة، وأغلب التعليقات على الفيديو من أمها وخالتها رجاء، يشيدان بجمالها وتسألان –علنًا- عن عمر وعما حضَّرته رانيا لغداء اليوم.

حتى وصلتها هذه الرسالة:

«تحية لك ولبرنامجك على يوتيوب. أحببت طريقتك في تبسيط التربية الإيجابية للأطفال، وشرح سُبُل تقويم السلوك، وحزنت لقلة عدد متابعيكِ رغم اجتهادك. أعرفك بنفسي أولًا، أنا حلمي الجندي، مُنتج برامج إذاعة، وخطرت لي فكرة برنامج إذاعي يصلح لك بالذات. بالطبع العمل معنا مدفوع الأجر، ويوفر لك مستعمين من كل دول العالم. لو مهتمة بالعرض، راسليني، وكل شيء قابل للتفاوض. يومك سعيد»

ابتسمت رانيا وضمَّـت الهاتف إلى صدرها. أخيرًا ستظهر للنور! أخيرًا ستعمل بمقابل وستصبح مشهورة، سترتدي أردية السباحة القبيحة من تصميم رائدة الأعمال «فادية راغب»، وستصور نفسها كل يوم بطاقم ملابس جديد أمام البحر في جزر الكاريبي، وسترتاد المطاعم لتجربة الطعام الـ ـ«چوسي» وإن كان أعواد بقسماط، والـ «كريسبي» وإن كان ملبنًا.

تواصلت مع حلمي هذا عبر الإنترنت، وأرسل لها العقد الذي وجدته مذهلًا. برنامج أسبوعي باسم «بعد منتصف الليل» يستقبل مكالمات الأمهات والزوجات اللاتي يردن الحديث بحُرية حول مشاكلهن مع أبنائهن وأزواجهن. وافقت رانيا على الفور، وبدأت في الإعداد لبرنامجها من الإمارات بحيث يكون مُسجلًا ودون الحاجَّة للسفر إلى مصر.

في ليلة، حلمت بنفسها في ستوديو عظيم، وأمامها الإعلامية منى الشاذلي تحاورها عن نجاحها غير المسبوق في وضع مناهج التربية الإيجابية للصفوف الثانوية في المدارس.

- أنتِ عانيتِ كثيرًا يا مدام رانيا كي تصلي إلى ما وصلت إليه.

تمسح منى الشاذلي دموع تأثرها ثم تشير إلى جانب الستوديو وتقول:

- والآن نتعرف على عمر، ابن مدام رانيا العظيمة، والحائز على جائزة نوبل في السلام وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره.

رأت رانيا ابنها شابًا شديد الوسامة.. وسامة مؤلمة كادت تعمي عينيها، يدخل من جانب الاستوديو ويحيي الجمهور، ثم ينحني ويُقبِّل يديها ويحيي منى الشاذلي، ثم يجلس. يضيء وجه منى الشاذلي وهي تسأل رانيا:

- هل كنت تتصورين أن يصل ابنك إلى هذا المنصب وهذه المكانة قبل أن يُتم العشرين من عمره؟

تصمت رانيا وهي تعي أنها تحلم. لا تجد إجابة وإن كانت تتيه فخرًا. تسألها منى الشاذلي وقد هدأت كل الأصوات حولهم بشكل يشير القلق:

- مدام رانيا.. بعد خمسة أعوام من الآن، سيصير عمر أمين عام الأمم المتحدة. وستكونين أنت والدته، والدة المعجزة.. والدة المُنتظر الذي سينقذ العالم..

تخفت أضواء الكشافات حولهم، فلا ترى إلا وجه عمر المضيء الباسم. تُردِف منى الشاذلي الذي تغيَّر صوتها إلى صوت أكثر رخامة، صوت لا يُقاوَم:

- رانيا.. هل تمنحين لي ابنك؟ المستقبل يبدأ أمس.. ما ستختارينه الآن هو مستقبلكما..

ترفرف فراشة ذهبية دقيقة حول وجه رانيا، ثم تختفي في الظلام بينما يُمسك عمر كفيها ويقول:

- المستقبل يبدأ الآن.. كل ما مضى شيء، والقادم شيء آخر. العالم يحتاجني.. يحتاجك..

تبتسم رانيا وتدمع عيناها وهي تهز رأسها موافقة، وتعانقه.. ثم تستيقظ. مع أولى حلقات البرنامج، شعرت أن عمر الذي جاوز العامين بالكاد يتغير. شيء في ملامحه، وشيئان في تصرفاته، وبضعة أشياء في مُعدَّل نموه العقلي. لكنها كانت –بشكل ما- تشعر أن اجتهادها في مجال التربية الإيجابية هو السبب. لقد رأت رؤية تُنبئها أن ابنها سيكون مختلفًا، وها هو الاختلاف قد بدأ.

تحمّست حتى أن خاطرها العابر قد أعجبها، فكتبت على فيسبوك مع صورة كفها يُمسك بكف ابنها: «المستقبل يبدأ أمس، وابنك هو مستقبلك، فاستثمري فيه ما تبقى من عمرك.» ثم ضغت زر الإرسال وذهبت تُعِد حلقة البرنامج تاركة الطفل يبكي مُطالبًا بتغير حفاضته. لا بأس، قد ينتظر الاستثمار قليلًا، لم تطير الدنيا ولن يموت طفل بسبب حفاضة مبللة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت رانيا إلى مصر في سن دخول عمر الحضانة، وطالبت بشقة في مجمع سكني راقٍ جديد عند أطراف الصحراء يوفر لها الخصوصية بعد الشهرة، ويلائم طموحها في تربية ابنها –أمين عام الأمم المتحدة بدون مقاطعة- في بيئة نظيفة منتقاة بعناية، بيئة يمكنها أن ترتدي فيها ملابس سباحة من تصميم فادية راغب دون أن يسخر منها أحد.

ساعدها المنتج حلمي الجندي في العثور على شقة تناسب إمكانات زوجها بالضبط -كأنما بُنيَت لأجله- في كومباوند هيل بوي الراقي. بالطبع كلمة «هيلز- HILLS» تضفى على أي كومباند رقيًا ساحرًا بلا سبب واضح. إلا أن رانيا لم تلاحظ أن كلمة هيل في اسم الكومباوند مكتوبة بحروف HELL([6])، وهو اختلاف طفيف في الحروف، عظيم في المعنى، لكنها لم تلاحظ، وما لا تلاحظه رانيا هو ببساطة غير موجود.

انتقلت رانيا إلى الشقة الجديدة، وألحقت عمر بمدرسة دولية قريبة من المنزل، واشتركت في نادي هيل بوي الرياضي، الذي أمضت فيها أغلب وقتها بسبب المناظر الخلابة فيه والتي تتمثل في مجموعة مقاهي عالمية على خلفية باهتة من الصحراء. طلب عمر من أمه أن يلتحق بفريق السباحة بالذات، وأمام إلحاحه رضخت وساومته كي يوافق هو على الالتحاق بفريق الباليه – رانيا تحب الباليه لكن والدها رفض أن تتعلمه رفضًا قاطعًا- وأن يتعلم

العزف على آلتين على الأقل بالإضافة إلى الرماية. من يعرف ما قد يحتاج إليه أمين عام الأمم المتحدة؟

إلا أنها في يوم كانت جالسة مع مدام ميريهان في النادي تراقبان أبناءهما في تمرين السباحة، فقالت لها ميريهان:

- ما دخل الباليه في رغبتك في أن يكون سياسيًا ناجحًا؟!

كان الجو باردًا عاصفًا، والأولاد في حمام السباحة يصرخون ويبكون. هتفت ميريهان:

- لمار! ستُكمل التمرين مهما حدث، كُفي عن الارتجاف ولا تتركي بشرتك تزرق إلى هذا الحد. كوتش رامي، رجاء لا تزد درجة حرارة الماء، لقد اتفقت أنا وال «ماميز» على أن ندربهم على قوة التحمل.

ارتجف الـ ـ«كوتش» رامي وهو يرفع ذراعه لتفهم أنه موافق، فقد كان البرد يُعجزه عن فتح فكيه. التفتت ميريهان نحو رانيا وأردفت:

- كم لغة يتعلم عمر؟

- العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية.

- ماذا عن الإيطالية والإسبانية؟ هذا سن تأسيس يا روني وعليكِ أن تشغلي وقت ابنك في الصحو والمنام. بسنت تعلّم ابنها الطيران الشراعي الآن، وابنة رغدة تعلمَّـت فك الشيفرات الرقمية في إجازة العام الماضي.

تشعر رانيا بالتقصير تجاه ابنها، فتقرر أن تبحث عن شيء آخر تُعلمه إياه في سن التأسيس هذا. عمر أكثر براعة من الجميع، وهو ما تؤكده وجنتاه المحمرتان وبشرته الوردية وسط الأطفال الزُرق –كالسنافر- حوله.

مرت الأعوام، وأصبح عمر طفلًا مثاليًا، فيما عدا ما ذكرنا من غرابة رأتها رانيا من سفاسف الأمور. بحسب التربية الإيجابية –التي تعلمتها- فمنع عمر مثلًا من أكل العصافير حية قد يولِّد لديه صدمة طعامية تؤثر على ميوله الفنية لاحقًا، وتسبب له «تروما» نفسجُسمانية سترافقه حتى بعد أن يصير أمينًا للأمم المتحدة.

أعجبها هذا التفسير، لكنها لم تكتبه على وسائل التواصل الاجتماعي، فعمر حالة خاصة، ترعبها أحيانًا، وتذهلها أحيانًا، وهذه أمور تُحسَد والأفضل عدم الحديث عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست رانيا في أحد مقاهي النادي الراقية مع أمها سهير، تتحدث رانيا في الهاتف مع زوجها وسهير تراقب عمر وهو يكتب على حاسوبه المحمول شيئًا بحروف لا تميزها.

- أشكرك يا محمد. كم أنت زوج داعم. سأكتب عن دعمك في بوست الليلة. أرسل لي صورة حديثة لك وأتمنى ألا تكون قد حلقت شاربك ولحيتك كي لا تبدو في الصف الثاني إعدادي.

تصمت رانيا لتستمع إلى ما يقول زوجها، ثم تعقد حاجبيها وتقول في حدة:

- وما شأنك بساعات عملي؟! هل تريد التحُّكم في يا محمد؟ هذا عملي وكياني الخاص.. ماذا؟ تسأل فقط عن موعد عودتي اليوم؟ لماذا أجيبك؟ هذا تشكيك في ثقتك بي.. اتركني حتى أهدأ، أنت دائمًا تفسد كل شيء..

أغلقت رانيا الخط، فوجدت أمها تحدق إليها.

- ماذا يا ابنتي؟ منذ ثوان كان داعمًا يستحق «بوست»، ثم الآن صار مُتحكمًا..

- بل سامًا.. هذه علاقة سامة وأنا أعرفها..

- سامة؟! أتعنين مثل فيلم غرام الأفاعي؟!

تزفر رانيا في حنق، فعقل أمها قد تيبَّس منذ سنوات، وانقطعت عن وسائل التواصل الاجتماعي ومستجدات العلاقات، فبدت كأنها جاوزت الثمانين من عمرها، حتى أنها تعجز عن التفرقة بين الرسالة الخاصة والتعليق العلني، وتفضحها دائمًا بإرسال صورها وهي طفلة سمينة قبيحة في منشورات علنية ظنًا منها أنها ترسلها لأختها رجاء.

-أمي.. هناك رايات حمراء -ريد فلاجز، هذا اسمها- تُبين إن كان الرجل أمامك سويًا أم لا. هو يمنحني السعادة والثقة ثم يأخذها مني في لحظة. إنه يتلاعب بي.. ربما كان نرجسيًا كذلك.

- الرجل لم يسأل سوى عن موعد رجوعك. ماذا يكتب عمر؟

تلقي رانيا نظرة سريعة شاردة إلى شاشة الحاسوب المحمول ثم تقول:

- ربما هي شيفرة تعلمها في كورس الشيفرات.. أو.. أو حروفًا روسية. أمي، صوريني وأنا أحتسي –ولا أشرب- القهوة ومعي هذا الكتاب. أرسلت لي الكاتبة نسخة كي أتظاهر أنني أقرؤها. أنت تعرفين أنا لا أقرأ الهراء المُسمى روايات.

صوَّرت سهير رانيا –فهي بارعة في مهنتها الأساسية على الأقل، - ثم نظرت إلى الصورة وعقدت حاجبيها.

- ماذا؟ لا تقولي أنكِ ظهرتِ في انعكاس نظارتي الشمسية.

- كلا.. ما هذا خلف عُمر؟

نظرت رانيا إلى صورة الطفل المُنهمك في الكتاب لترى شيئًا غريبًا..

- يبدو.. يبدو كرأس حصان..

- من أين أتى؟

لم تكن رانيا قد أخبرت أي شخص بما يمر به عمر من تغيرات، فلم تشأ أن يُمطرها من حولها باللوم على تقصيرها في تربيته وفي صحته النفسية. رانيا خبيرة التربية الإيجابية والعلاقات الأسرية لا تُخطئ في تربية ابنها. لقد أكدت لها منى الشاذلي هذا.

صدر من هاتف رانيا إشعار رسالة واتساب، فتحتها لتجد ميريهان تكتب على مجموعة رسائل أمهات طلبة مدرسة هيل بويز أند جيرلز الدولية (جروب الماميز):

ميري- هان: هاي يا بنات.. كنت أريد أن أسألكن عن شيء.. قالت لدي ديچا أن دورة المياه في الطابق الأول غير نظيفة. مليئة بأشياء كالقش. هل هذا صحيح؟

نور: أجل، صوَّرت لي مونيكا شيئًا مقرفًا أمس، ونهرتها. أظن الصورة مقلب لا أكثر.

رانيا: لا تنهريها لو سمحتِ. يجب أن تستمعي إليها حتى إن كان ما فعلته مقلبًا كما تقولين.

كادت رانيا تكتب لهن اقتباسًا آخر تُتحفهن به، حين ضرب عمر كأس العصير عن طريق الخطأ فسقط على كُمه. صرخت فيه:

- هل أنت أعمى؟! حسابي معك لاحقًا..

ثم عادت إلى الرسائل لترى الصورة التي تحدثت عنها نور، صورة روث خيل في مرحاض حمام المدرسة.

كتبت ميريهان:

ميري-هان: ياكِّي! ([7]) ما هذا؟

رانيا: روث حصان أو حمار.. رأيته من قبل عند الحاجّ مدحت.. أعني، في عزبة الحاجّ مدحت عم والدتي. يربي الخيول هو كما تعرفون.

نور: المهم، ما الذي جاء بهذه الأشياء إلى الحمام؟

ميري-هان: الأهم، ما هذه القذارة؟ لماذا لا ينظفون الحمامات؟ هذا إهمال جسيم!

نظرت رانيا إلى صورة عمر على هاتف أمها التي تركته وراحت تساعد الولد في تنظيف العصير. خيول؟ ماذا يعني هذا؟ أيًا كان، هي لن تُحرج ابنها وتُزعزع ثقته في نفسه لأجل خيول وظلال. لا بد أن عمر مميز حقًا عليها أن تفخر بتميزه هذا، لكن ليس قبل أن تنهره على «دهولته» وما فعله بالعصير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاثة أسابيع اتصلت المدرسة برانيا تطالبها بالحضور الفوري بسبب مشكلة تسبب فيها أو تورط فيها عمر. هرعت رانيا وقلبها يهوي إلى قدميها خوفًا على سمعتها كمُربية خارقة للعادة. راحت تفكر في احتمالية تسرب الخبر لوسائل التواصل الاجتماعي.. ياللفضيحة.. سيكون يوم عمر أسود من ظل الحصان الذي يلاحقه لو كان قد فعل شيئًا مشينًا.

في مكتب المديرة الحسناء، وقف عمر وسبعة طلاب آخرون، حولهم جلس أربعة أولياء أمور محمري الوجوه.

- تفضلي يا مدام رانيا. كلنا موجودين وأعتقد أن الوقت قد حان لنتحدث. سعيدة أنك بيننا لتسعادينا في فهم ما حدث، ولتقترحي علينا الحل الأمثل مع أبنائنا.

أشارت المديرة إلى الطفلة ديچا –خديجة بلغة أهل خارج الكومباوند- فقالت الفتاة برونزية البشرة:

- عمر ومهند وسيف ولؤي وكريم.. هؤلاء الخمسة..

- ما لهم يا ديچا؟

- سأحكي من البداية.. وأريد أن تحكي لمار أختي معي لو نسيت. كنا في قاعة الألعاب الرياضية ([8])، وكنا نبحث عن كرات التشجيع المنفوشة الملونة، وحين وجدناها وأخذت كل واحدة منا كُرتين، وجدنا رأس حصان بين الكُرات، والأرض حولها عليها أشياء سوداء مثل فروع الشجر. وكان عمر ورفاقه هناك، وضحكوا كثيرًا حين رأونا نصرخ ونجري. حين عدت مع المُدرِّب لم نجد شيئًا غريبًا، ورأيت ظل الأولاد الأربعة مع عمر ظلال خيول. مسيو ريمون المُدرَّب لمح هذا بنفسه قبل أن تختفي الظلال.

قالت المديرة:

- مسيو ريمون أخبرني منذ قليل أنه يعتقد أنه قد تأثر بحكاية الفتاتين، وتخيَّل هذه الظلال.

كانت والده لؤي وكريم، ووالد سيف ومهند جالسين في ترقُّب، حتى قال الأخير:

- حتى الآن لا أجد مشكلة سوى أنكما -يا سيف ويا مهند- سخرتما من خوف زميلتيكما. الأمر لا يسـتحق أن نأتي ونترك أشغالنا..

قاطعته لمار:

- انتظر يا أنكل.. هناك أمور أخرى أغرب حدثت قبل ذلك. عمر وأصدقاؤه صاروا مجموعة مُقرَّبة منذ عام تقريبًا بعد أن ظل عمر بلا أصدقاء منذ جاء المدرسة. بعد أن صادقوا عمر تغيُّروا كثيرًا.

ضاقت عيني والدة لؤي وكريم وسألتها:

- كيف هذا؟ ماذا تقصدين؟

- صارا.. أكثر مهارة في كل شيء. بل إن أشكالهم أصبحت أكثر وسامة و.. لدي حكاية أعرف أنكم لن تصدقوها..

استمعت رانيا إلى الطفلة وهي تحكي عن بداية علاقة عمر بأصدقائه الأربعة. كان كريم ولؤي في مدرسة أخرى خارج الكومباوند، وتعرَّف إليهما عمر من خلال النادي، ولسبب ما ترك الولدان مدرستهما وطالبا بالالتحاق بمدرسة هيل بويز أند جيرلز، وتركا فريق كرة القدم وانضما إلى فريق السباحة.

قالت والدة كريم لوؤي:

- هذا ما حدث. ما المشكلة؟ سمعت خيرًا من النادي عن هذه المدرسة، ووصلني إعلانات عنها على فيسبوك، ورأيت ووالدهما أنها أفضل من مدرستهما التي كانا يشكوان سوء تربية تلاميذها. أما النادي.. لا أرى مشكلة أيضًا.. أقنعاني أنهما أحبا السباحة أكثر من الكرة.. أليس كذلك يا كريم؟

- هذا صحيح. أحببناها بعدما كلمنا عنها عمر كثيرًا. لا أعرف ما الذي تسببنا فيه حتى الآن.

أكملت لمار:

- ثم بالتدريج لاحظنا أنكما تغيرتما.. أنت تغيرت يا كريم.. لم تعد تتحدث معي ولا ترد على رسائلي، ولا..

قاطعتها رانيا:

- لحظة.. هذه مشكلة أساسها تعلّق مبكر بين هذين الطفلين. الولد سئمَكِ يا ابنتي، هكذا الرجال جميعًا.. أقصد.. هذا طبيعي في السن المبكرة التي يستكشف الأولاد فيها أنفسهم.

قالت ديچا بعينين دامعتين وهي على وشك الانهيار:

- ماذا عن وفاة مدربة السباحة السابقة؟ مسز ريتا؟ لقد رأينا كل شيء وماما لم تصدقنا ولن تصدقنا. لن يصدقنا أيكم! قولي شيئًا يا لمار!

- كنا في النادي في ذلك المساء، وكان بابا معنا، لكنه تركنا قرب حمام السباحة ليجلس مع مسز ريتا في ال «كافيه»..

قاطعتها أمها ميريهان:

- لحظة لحظة.. لماذا لم تحكيا لي؟

- خشينا ألا تصدقينا.

- لا أقصد ما حدث من أمور لا تُصدَّق.. أقصد أن أباكما كان يجلس مع ريتا هذه.

قال مُحيي، والد سيف ومهند:

- بالله عليكِ يا مدام، لا تُدخلينا في هذه الأمور. العالم «يضرب يقلب» هنا وفي أشغالنا وأنت لا ترين سوى أن زوجك منحرف؟!

كاد الموقف يشتعل، لكن المديرة هتفت:

- لنُكمل الموضوع الأساسي أولًا. أكملي يا ابنتي، ماذا حدث ليلتها.

- رأيت أنا وأختي شيئًا تحت ماء حمام السباحة الذي كان خاليًا وقتها. ضوء أسود.. وأقسم أنه ضوء أسود سطع من أسفل وبدأ سطح الماء يتحرَّك قليلًا. خُفنا، فنادينا على بابا لكنه لم يرُد. تجمدنا مكاننا، ورأينا على الجهة المقابلة عُمر ولؤي وكريم، يحدقون إلى الضوء الأسود. تقدَّم لؤي وكريم بضع خطوات..

- ماذا تقولين؟ لؤي وكريم لا يخرجان ليلًا بدوني!

- ... حتى كادا يسقطا في الماء، لكن مسز ريتا ظهرت من خلفهما ودفعتهما بعيدًا، ثم قفزت إلى الماء وغاصت أسفله. صرخنا، فرفع عمر إصبعه إلى شفتيه يريد منا أن نسكت. الإشارة أرعبتنا مع الابتسامة التي كان يبتسمها. بعد قليل.. دقائق.. رأينا مسز ريتا تطفو على سطح الماء ووجهها لأسفل.

قالت رانيا في وجوم:

- عمر كان في النادي ليلًا؟! لم يحدث هذا؟

لسبب ما تذكَّرت النافذة المفتوحة في حجرة نومها. هي لم تفتحها و.. عمر..

- مسز ريتا لم تمت يومها. فجأة شهقت وخرجت من الماء وهي مغطاة بشيء أسود كأنه زيت أو ألوان.. قال لها عمر بصوت عال: «قلت ليس الآن.. ألا تفهمين؟»، فغادرت دون أن تتكلم. ثم عرفنا من «جروب» النادي أنها ماتت في بيتها في الصباح التالي.

قالت ميريهان:

- في ستين داهية.. أعني.. رحمها الله.. أتذكر هذا اليوم. عدتما من النادي في حال سيئة، ونمتما. قال لي أبوكما أنكما أكلتما الكثير من الآيس كريم.. آيس كريم هه؟ لنا حساب يا أشرف..

قامت والدة كريم ولؤي، ومدت كفيها نحو ابنيها وقالت:

- هيا بنا. هذا كلام فارغ. الولدان لا يذهبان إلى النادي مساء. ما تقوله هذه الصغيرة تخيلات وتخاريف.

قال مُحي:

- وما دخل سيف ومهند في هذا؟!

أجابت لمار:

- بعد موت مسز ريتا، رأينا معهما خاتمها. كان سيف يرتديه.. انتظر..

أخرجت لمار هاتفها المحمول وعرضت عليه صورة للؤي وعمر يتحدثان في مطعم المدرسة، ويظهر حول إبهام لؤي خاتم من الفضة والفصوص الخضراء.

سأل محي مرة أخرى:

- ولماذا تراقبينهما؟ لماذا تراقبين المجموعة كلها؟ وكيف عرفتِ أن هذا خاتم ريتا؟

أجابت ميريهان في وجوم:

- لأن أشرف زوجي اشتراه لها في عيد الأم. أعطاه للبنتين كي يعطياه لها. اشترى أكثر من خاتم فضي لمُدرسات البنتين، وهذا منهم.. أجملهم..

نظر محيي إلى سيف، فقال الأخير ببساطة وهو يُخرج الخاتم من جيبه:

- وجده مهند قرب حمام السباحة قبل رحيل مسز ريتا. أعجبنا وقررنا الاحتفاظ به. نحن آسفون بالتأكيد. كان الأفضل أن نسلمه لإدارة النادي.

هتف محيي:

- مُجددًا، ما علاقة هذا بفيلم الرعب الذي تحكينه؟ هما مخطآن طبعًا، وسأبحث عن ورثة ال..

قاطعته رانيا:

- أرى أن الأولاد قد أخطأوا بخصوص الاحتفاظ بالخاتم، وفي السخرية من البنتين. نقطة، ومن أول السطر.. لا يوجد شيء آخر نتحدث عنه. هيا بنا يا عمر.

وقبل أن تخرج مدت رانيا يدها لتمسك بيد عمر التي أمسكتها ديچا قبلها وصاحت في ذعر:

- ما هذا على ذراعه؟! هذا الشيء هو ما كان يغطي مسز ريتا!

التفت الجميع نحو ذراع عمر المتبدية من طرف قميصه، فرفع الكُم لُيظهر بقعة حبر أسود. قال:

- ماذا بك يا ديچا؟! لقد انفجر أنبوب القلم على ذراعي أمس. ما مشكلتك؟!

ظل فم الطفلة مفتوحًا والجميع يرحلون برفقة أبنائهم. قالت رانيا لميريهان وهي تقف عند الباب:

- هل تحبين أن أوصلك في طريقي؟

ظلت ميريهان شادرة، ولم تعلق وهي تُدير خاتم الزواج حول إصبعها دون توقُّف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت رانيا لزوجها عبر الهاتف:

- أريد أن أنقل عمر إلى مدرسة أخرى. التلاميذ هناك لا يتقبلون طبيعته.

قال محمد:

- ماذا تعنين؟ هل قصدك شقاوته؟

- عمر ليس شقيًا. عمر مثالي إلا.. من بعض ال.. ما علينا. المهم عمر بخير ولا أريد أن أؤثر على نفسيته في هذه السن.

- الحقيقة يا رانيا لا أجد سببًا قويًا لنقله، ولا يوجد ضمان أن المدارس الأخرى ستكون أفضل.

- أنت لا تفهم شيئًا في أساليب التربية الحديثة. كل ما يهمك هو المال الذي ستنفقه.

أغلقت رانيا الخط، لتسمع صوت عمر في الصالة (الليفينج روم. لسنا في إمبابة هنا) يبكي. خرجت تتبع الصوت الذي احتارت لحظة في تحديد مصدره قبل أن تدرك أن مصدره السقف. رفعت رأسها إلى أعلى فرأت عمر يلصق ظهره إلى السقف ويبكي.

- عمر.. انزل من هناك. ستلوث طلاء السقف بحذائك.

انقلب عمر ليلصق بطنه بالسقف ثم زحف نازلًا. ربتت على رأسه راضية عن طفلها المطيع.

- لماذا التصقت بالسقف هذه المرة؟

- لا لشيء. أعتقد أنني..

ثم تغيَّر صوت عمر إلى صوت أعمق وأضاف:

- لا أعرف ماذا أفعل كي أثير قلقك! ألا تخافين أبدًا؟

ركعت رانيا أمامه باسمة وقالت:

- رانيا الصاوي تخاف من ابنها؟ أين الحب غير المشروط؟ أين العلاقة السوية التي..

نظر لها عمر متأثرًا، وتبدت في عينيه نظرة طفولية صادقة، ثم انحنى إلى الأمام ممسكًا بطنه وتقيأ مادة سوداء لزجة. صاحت رانيا:

- أيها الـ «الزفت»! قلنا مائة مرة القيء في الحمام!

كادت تجره جرًا بعيدًا عن البساط التركي وردي اللون، لكنه استمر في إفراغ معدته، فتقيأ مسامير بطول عشرة سنتيميتر، ثم ريشة سوداء، ثم حافري بقرة، ثم بضعة أوراق وأقلام، ثم مفتاح السيارة الأصلي الذي ضاع من رانيا، ثم..

-ما كل هذا! «الله يقرفك»!

انتظرت نصف دقيقة عاقدة ذراعيها حتى أخرج عمر كمية هائلة من الشعر وارتمى بعدها أرضًا.

- ستنظف كل هذا.

- لكني يا ماما..

- «الله يقرفك»!

لاحقًا، حكت رانيا لأمها –سهير- عرضًا ما حدث، في سياق سؤالها عن منظف جيد للمواد السوداء الغامضة.

- أعرف أنكِ تحبين مشاهدة «فيديوهات» تنظيف السجاد كل يوم قبل النوم. اقترحي شيئًا..

- فلتذهب السجادة إلى «داهية». تقولين أن الولد تقيأ مادة سوداء وشعر؟

- وريشًا وحوافر وكل ما تتخيلين. ضربته حتى حرمته العافية.

- لكن يا ابنتي، هذا يعني أن هناك جنيًا أو عفريتًا يتلبس الولد! ألا تشاهدين أفلام رعب؟ ألم تشاهدي الفنانة يسرا في فيلم التعويذة؟

للحظة –للحظة واحدة فقط- تمنَّـت رانيا لو أن عقل أمها مليء بشيء آخر سوى التخاريف التي أخذتها من الموالد ومن جدها الذي كان يدعي أنه نصف جني. للحظة تمنَّت لو تجد من تتحدث معه عن التربية الإيجابية وتنظيف السجَّاد من بقع الشياطين.

في نفس الليلة –التي بدت بلا نهاية- اتصلت بها ميريهان لأول مرة في هذه الساعة المتأخرة.

- لم أكن أتصور أنني سأحتاج استشاري علاقات زوجية. كنت أرى هذه الأمور بعيدة تمامًا عن حياتي مع أشرف.

ودون مقدمات –كعادة أغلب النساء- حكت ميريهان مشكلة أشرف الذي تغيَّر كثيرًا منذ..

- منذ نمت صداقة بينه وبين رجل الأعمال هذا الذي اقترح علينا هذا الكومباوند. حلمي الجندي.

صمتت رانيا هُنيهة وقد تذكَّرت فجأة أنها لم تَر حلمي الجندي من قبل، رغم كل مساعداته لها.. رغم أنه هو من توسَّط في مسأله سكنها في كومباوند هيل بوي. ظلَّـت ميريهان تحكي عن أشرف، بينما رانيا شاردة، حتى قالت الأولى:

- وكان عيد الأم السابق هو الأغرب. لم يشترِ لي هدية ولم يكن يهتم بهذا من الأساس، لكنني وجدته يدخل علينا بستة أو سبعة خواتم فضية أعطاها للبنتين

لتوزعاها على مُدرسَّاتهن، وكان قد أرفق كل عُلبة ببطاقة ملونة مكتوب عليها اسم المُدرِّسة. أعجبني واحد منهم.. خاتم ريتا بالذات، فارتبك وقال أنه ليس مقاسي، ووعدني بشراء آخر مثله، لكنه لم يفعل.

- ميري، لحظة.. ما علاقة زوجك بالمنتج حلمي الجندي؟!

- أبدًا.. زوجي كما تعرفين وسيم، ويقدم محتوى تمثيليًّا على تيك توك. وعده بأن يشارك في فيلم يجهِّز له، وبالفعل بدأوا التصوير منذ شهر.

فيلم؟ ما علاقة هذا المُنتج بهما وبالكومباوند؟

دخلت رانيا على جروب أولياء الأمور على واتساب واستخرجت رقم مُحيي، والد مهند وسيف، وأرسلت له.

- «السلام عليكم، أنا والدة عمر. هل يمكننا أن نتحدث في أقرب وقت؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركت رانيا ابنها مع سهير في المنزل، وذهبت للقاء ميريهان ومحيي في مقهى خارج الكومباوند. قال مُحيي وهو ينظر إلى ساعته:

- لا أرى المشكلة حتى الآن، ولدي مواعيد عمل. ماذا تريدان؟

قالت رانيا:

- أولًا نريد الخاتم الذي كان مع ابنك. ثانيًا نريد معرفة علاقتك بحلمي الجندي.

- لا حق لكما في الخاتم. سأسلمه لأسرة الفقيدة أقرب وقت. أما حلمي الجندي فقد طلب مني إنشاء منصته الإليكترونية التي يعرض عليها إنتاجه الفني. كان يطمح إلى أن تكون نتفلكس العرب.

سألت ميريهان:

- أعرف هذه المنصة بالطبع. هذا يعني أن له علاقة بمدير الشركة التي تعمل فيها، أليس كذلك؟

مسح محيي العرق عن جبينه وقال وهو يتحاشى النظر إليهما:

- الحقيقة.. أنا أخذت هذا العمل من الباطن، والرجل لا يعرف صاحب الشركة وأتمنى ألا تحاولا التواصل معه.. صاحب الشركة أعني.

استنتجت رانيا أن محيي استخدم إمكانات الشركة في تنفيذ عمل خاص به، وإلا لماذا يخشى أن يعرف صاحب الشركة؟

- على الأقل، أرسل لنا صورة الخاتم.

- ولماذا أفعل ذلك؟

صاحت ميريهان:

- اللعنة على مخ الرجال! كل شيء فوق رؤوسنا ولا تريدون المساعدة في شيء! ابنتاي أغلى ما لدي. قد أبدو هيستيرية في عينيك كما في عيني زوجي، لكن من يمس ابنتي بسوء ألتهمه!

نظر محيي إليها مرتبكًا، ثم أخرج هاتفه وأرسل لي الصورة ثم قال:

- عمومًا لو توصَّلتما لشيء أخبراني. هذا الخاتم مريب أساسًا وكنت سأعرض صورته على شيخ عبر الإنترنت.

حكى مُحيي عن الختم الذي يغير مكانه، ولا ينفك ينقل نفسه إلى سيارته خاصة إن كان متجهًا إلى النادي أو إلى شارع ١٨..

- أنا أسكن في شارع ١٨! هل يريد الخاتم أن يعود إلى زوجي؟!

نظر محيي إلى ساعته وقال وهو يقوم مشيرًا إلى النادل:

- لا أعرف ولا أريد أن أعرف. لو شئتما سأرسل لكما الخاتم غدًا.

دفع ثمن ما شرب ثلاثتهم ثم انصرف. كان من المفترض أن تأتي والدة كريم ولؤي لملاقاتهم، لكنها لم تظهر ولم تتصل. قبل أن تُكمل رانيا حديثها، اتصلت بها أمها تصرخ:

- رانيا تعالي حالًا! وهاتي معك شيخًا من الجامع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن مجدي –شيخ المسجد القريب- يعرف شيئًا عن السبب الذي سحبته رانيا لأجله كي يذهب معها إلى المنزل. رجَّح أنها مشكلة زوجية أفضت إلى طلاق أو شيء مما يحتاجون فيه إلى شيخ لإصلاح ذات البين. دخل الشاب الذي لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين، ولم يرفع عينيه عن الأرض إلا حين صاحت فيه سهير:

- انظر يا شيخ! الولد سيموت منا!

رفع مجدي عينيه محاذرًا أن يكشف من المنزل أكثر من اللازم، لكنه لم يجد الولد أمامه، فاضطر إلى النظر إلى سهير التي كانت تشير إلى السقف. أجفل الرجل وتراجع إلى الخلف وهو يُبسمل ويردد آية الكرسي.

- منذ الصباح يا شيخ وهو يطير، وأقول لنفسي لا بد أنني مُرهقة وأتخيل. منذ قليل بحثت عنه ولم أجده إلا فوق.

كان عمر مثبتًا إلى السقف بجذور سوداء منتشرة حوله، وبعضها يلف جسده فيما يشبه الشرنقة. عقدت رانيا حاجبيها وهي تنظر إلى المشهد المهيب، وخطر على بالها تساؤل هام؛ تُرى هل ستترك هذه الجذور أثرًا على طلاء السقف؟

صرخت ميريهان –التي نسيت رانيا أمرها تمامًا- وتشبثت بكتفي الشيخ النحيل وصاحت:

- افعل شيئًا! افعل شيئًا!

ما بين حرجه من لمستها، وهول ما يرى، تجمَّد مكانه يردد آيات القرآن حتى قالت سهير:

- يا شيخنا! ركز معي.. في الأفلام أراهم يضعون أيديهم فوق رأس الملبوس ويقرؤون القرآن أو آيات من الإنجيل أو التوراة أو..

صاحت رانيا:

- ابني ليس ملبوسًا يا أمي! هو فقط مختلف!

لطمت ميريهان خديها ([9]) وهتفت:

- داهية تأخذك أنت وابنك والتربية الإيجابية التي فلقتِ بها رؤوسنا! اصعد يا شيخ واقرأ عليه أي شيء!

جذبت سهير كرسيًا من كراسي السفرة، ووضعته تحت عمر، فصعد الشيخ فوقه بعدما خلع حذاءه إثر نظره نارية من رانيا. مد يده المرتجفة إلى أعلى فلامس بالكاد جبين عمر من بين الجذور. فتح الأخير عينيه فجأة، وتوقع الشيخ أن يكونا بيضاوين لكنهما كانت طبيعيتين. تثائب عمر وقال ببراءة:

- مَن أنت يا عمو؟

تبادلت النساء النظرات الحائرة، فلم يكن هذا هو المتوقَّع. أين ذهب الصوت الغليظ والتهديدات ولف الرأس إلى الوراء كالبوم؟ على الأقل أين العينان البيضاوان أو السوداوان بالكامل؟! هذا تهريج!

نزل الشيخ عن الكرسي ثم جلس عليه طالبًا كوب ماء جاءته به سهير على الفور. توقّعت أن يقرأ على الماء قرآنًا ليشربه الولد لكن مجدي شربه كله ثم قال مرتجفًا:

- بالله عليكن.. ما هذا؟ ما دخلي في الأمر؟ أنا شيخ جامع، أؤذن وأصلي بالناس.. ربما أتوسط في خير أو صُلح، لكن ما أراه لا يُصدَّق! حتى أنه لم يرد فيما سمعت عن حكايات الملبوسين والممسوسين.

تراجعت الجذور التي تُثبت عمر إلى السقف، فنزل الأخير ينظر حوله متسائلًا. زفر الشيخ وقال للطفل:

- هل أنت بخير؟ هل تذكر ما حدث منذ قليل؟

- ماذا حدث؟ يبدو أنني.. طرت مرة أخرى، أليس كذلك؟

- حسنًا يا بُني.. لا تخش شيئًا..

قرر الشيخ مجدي أن يعالج المسألة كما يعالج المشاكل الأسرية التي يتوسط فيها. سأل رانيا:

- متى بدأ الولد في التصرف بغرابة؟

- ربما.. ربما بعد عودتنا من الإمارات.

قالت سهير مقاطعة:

- بل بعدما انشغلتِ عنه في برنامجك. منذ عامين.

غمغمت ميريهان في شرود:

- عامان؟ في الوقت الذي تغيَّر فيه لؤي وكريم ومهند وسيف. في الوقت الذي لاحظت فيه ابنتاي المشكلة. في الوقت الذي تعرَّف زوجي فيه على حلمي المنتج، وبعد إطلاق المنصة مباشرة.

حكت ميريهان لمجدي كل التفاصيل، فهزَّ الأخير رأسه وقال:

- أولًا أود مساعدتكن بالطبع، لكني لست طارد جن ولا أعرف لماذا يربطون هذه الأمور بالشيوخ. ثانيًا، يبدو أن الأطفال –أبناءكن- منفصلون إلى حد كبير عنكن. أغلب الوقت في النوادي والدروس والمدارس، وما يقضونه من وقت معكن لا يحكون فيه عن شيء خاص بهم أو بمشاعرهم ومخاوفهم. شهدت هذا كثيرًا في مشاكل الأسر قبيل الطلاق وبعده. ثالثًا، لا بد أن هناك شيئًا غريبًا يحدث، ويبدو أن العامل المشترك فيه هو الأستاذ حلمي الجندي وعمر.

طلبت ميريهان من رانيا أن تعرض على الشيخ صورة الخاتم ففعلت. وقفت سهير خلف كتفه تنظر إلى الصورة، ثم ضربت صدرها بيدها وهي تقول:

- خاتم الزيران! ([10]) رأيت هذا الخاتم من قبل.. يستخدمونه في حفلات الزار في الموالد. ترتديه صاحبة الزار ليسهُل التحكم في الجني بداخلها.

- كفاكِ تخاريف يا أمي. العلم الحديث يؤكد أن..

غمغم الشيخ في شرود:

- السحر حقيقي، لكن السحرة.. أين السحرة الحقيقيون؟ يظن البعض أن الأمر سهل.. تخطيء في شئ عرضًا فيمسَّك جني! أي منطق في هذا؟ خلقنا الله لنعبده ونعمر الدنيا، ثم يحاسبنا بعد موتنا على ما فعلنا باختيارنا وإرادتنا، فكيف يسمح لكائنات غير مرئية بأذيتنا والتحكم فينا إلى هذه الدرجة، ولأسباب لا تزيد أهمية عن كثرة التحديق في المرآة! السحر حق، والجن حق، لكن هل ما نظنه فيهما حقيقة؟ أعتقد أننا نبتعد قليلًا عن المشكلة التي ستستمر مع الأولاد باقي العمر؛ انفصالهم عنكن.

لوَت رانيا شفتيها وهي تلعن اليوم الذي يتحدث فيه كل من هب ودوب عن التربية. هو مجرد شيخ يؤذن ويصلي بالناس ويصلح بينهم ويخرج الجن والعفاريت، ما مؤهلاته كي يتحدث في هذه الأمور الدقيقة؟! شكرته رانيا وقادته نحو الباب، فتبعته ميريهان على وعد بأن تتصل بها لاحقًا.

بعد ساعتين، دخلت رانيا حجرتها لحضور اجتماعها الأسبوعي مع مُعد برنامجها، فيتلو عليها مختارات من بريد المستمعين. لن يختاروا منهم شيئًا بالطبع، لكن المُعد «سيستلهم» منهم شيئًا ثم يعزز الحكاية ببعض الغرابة المُحببة لدى المستمعين، والتي تدفعهم لضرب الكف بالكف والحسرة على الماضي، دون أن يشعروا بأن ما يقال حقيقة تدق ناقوس خطر اجتماعي. هذه هي القضايا التي تجذب المستمعين ويتداولونها على وسائل التواصل الاجتماعي، فتجلب المزيد من الاشتراكات للمنصة.

شردت رانيا فيما يقول المُعِد وهي تفحص محتوى المنصة لأول مرة. برامج اجتماعية متنوعة يقدمها «خبراء»، يعلمون الناس كيف يعيشون حيواتهم في قوالب مُسبقة، ومن لا تتلاءم حياته مع هذا القالب يمكنه الانتقال إلى قسم المسلسلات والأفلام، حيث يعيشون في دراما الكومباوندات إن كانوا عاجزين عن العيش داخل كومباوند حقيقي. بعدما يصاب المتابعون بالاكتئاب متمثلًا في جوع عاطفي ونهم للأكل، يمكنهم مشاهدة برامج الطهي التي تقدم أصنافًا «بمكونات في كل بيت»، لا يجد منها المشاهد عنده إلا الملاعق.

المنصة ساحرة حقًا، ولا يعرف أحد سر سحرها. ساحرة لأنها تبدو آمنة، ينظر المرء إلى محتواها ثم يغمغم «سأشاهد كذا ثم أقوم، فباقي البرامج لن تجذبني. هذه منصة آمنة أستطيع أن أتحكم في وقتي بسهولة من خلال زهدي في متابعة برامجها التافهة».

سمعت رانيا صوت طرقات على باب حجرتها، ثم دخل شريف أخوها غارقًا في العرق، مشمرًا عن ساقية النحيلتين، ممسكًا بمسَّاحة من المطاط ذات ذراع خشبية.

- رانيا.. انتهيت للتو من غسل السجاد كما طلبت أمي، لكن هناك مشكلة في السجادة الوردية.

قامت رانيا معه لترى المشكلة، فوجدته قد فرد السجادة في الحمام وأغلقها بالكلور الذي كاد يخنقهما، وقد أزال السائل كل شيء من البساط –حتى النقشة- ولم يزل رسمًا نقشته البقعة المُتخلفة عن قيء عمر. رسمة أربعة خيول سوداء خلفها شجرة جافة مرعبة.

- من قال لك أن تستخدم كل هذا الكلور يا شريف؟!

- أمي. قالت أنها رأتهم يفعلون هذا على يوتيوب. أمي تحب متابعة الروتين اليومي لتنظيف المنازل، لكنه لا تحب التنفيذ وترمي كل شيء عليَّ. لا تخبري أبي بالله عليكِ، فهي تزيد مصروفي من مصروف البيت مقابل مساعدتها. ماذا كان يحدث بالخارج؟ سمعت جَلبَة وصوت رجل..

- التلفاز..

لطالما فضَّلت رانيا أن تُترَك وشأنها مع ابنها. كانت تعرف أنه ستُلام على ما يفعل وما أصابه. ستُلام على كل شيء بداية من نومها إرهاقًا وتركه يبكي، حتى عدم اهتمامها لشراء سلم طويل لإنزاله من السقف كلما طار.

طلبت منه أن يلفَّها –السجادة لا رانيا- ويتركها في الحمام، ففعل، ولم يأبه أحد إلى اللون الأسود الذي تسرَّب منها مع الماء إلى البالوعة، ولا صوت الأنين الذي انبعث منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت الذي عرفت فيه رانيا وميريهان أن والدة كريم ولؤي في المستشفى إثر إصابتها بأزمة قلبية، كانت سيارة أجرة غريبة تصدم مُحيي والد مهند وسيف أمام أعينهما. كان محيي قد أوصل الخاتم إلى شقة ميريهان بنفسه، ثم نزل إلى سيارته ليعود إلى عمله، فصدمته سيارة رأتها المرأتان من نافذة شقة ميريهان في الطابق الأرضي. لم تكن السيارة تحمل لوحة أرقام، بل إنها اختفت قبل المنعطف واختفى صوتها. لاحقًا عرفت الشرطة أنها لم تظهر في كاميرات المراقبة رغم وجود شهود على الحادث.

أما في النادي، لاحظت لمار أن مُدرِّب السباحة الجديد يرتدي خاتمًا مماثلًا لخاتم ريتا، واكتشفت ميريهان أن الخاتم الذي أحضره لها مُحيي قد اختفى من حوزتها. لم تجرؤ إحداهن على سؤال المدرب عمن أعطاه له، لكن حديثهم القصير مع والدة كريم ولؤي في المستشفى أكد لهما أن البحث وراء الأمر سيكلفهن الكثير. قالت منى والدة الطفلين بصوت مبحوح هامس:

- لم نكن بالذكاء الكافي لنعترف أن أبناءنا على غير ما يرام. كم هي مسئولية مرعبة أن نُلام على كل شيء يخصهم حتى لا يتبقى لنا مهرب سوى الإنكار. لؤي وكريم في خطر، بل هم أنفسهم خطر. رانيا.. عمر هو مُبتدأ كل شيء..

ليس عمر فقط، وليس كريم ولا لؤي ولا أي طفل آخر. البداية عند مَن ورَّطهم في كل هذا.

عادت رانيا إلى بيتها ووجدت أمها هناك، واجمة، يجلس عمر أمامها يستذكر بينما القط السمين يدور حوله، يمنعه من شيء لم تتبينه رانيا بعد.

جلست رانيا جوار أمها على المقعد العالي في المطبخ الأمريكي المفتوح على غرفة الاستقبال. تتساءل رانيا سؤالًا واحدًا: هل كذبت منى الشاذلي؟ هل عمر طفل شرير خبيث، أم أنه طفل عادي لكنه لن يصير أبدًا أمين عام الأمم المتحدة؟

تتساءل سهير عن جدوى وجودها من الأساس. هل قصَّرت في تربية ابنتها؟ بل هل قصَّرت في حق نفسها حين تركت نفسها للأوهام والتخاريف ونَسيت كل شيء عن عقلها ومستقبلها؟ سهير زاهر المصورة المحترفة التي آمنت بأن الجن سيثأر منها لأنها نجحت في تصويره، فكفَّت عن إبداعاتها واكتفت بأن تكون مصورة أفراح متحجرة الإمكانات، جافة القريحة.

- رانيا.. تُرى هل أنا السبب فيما يحدث لعمر؟ الجن ينتقمون مني فيه؟

- ولماذا لم ينتقموا منك فيَّ أو في شريف؟ أعني.. شريف كارثة متنقلة طبعًا ولا يفلح في الاحتفاظ بوظيفة ولا الاستمرار في دراسة، لكنه ليس انتقامًا «عفاريتيًا» مما تظنينه. كفاكِ تخاريف..

- بل كفاكِ إنكارًا يا ابنتي. هذا القط.. قولي لي أن هذا القط طبيعي وأن وجوده معكما بالصدفة! الولد يحاول مدَّ جذور هذا الشيء الأسود إلى خارج المنزل منذ الصباح والقط يمنعه. لقد قتل عمر القط أكثر من أربع مرات حتى الآن!

تنظر رانيا إلى وجه عمر المستدير الوسيم وهو منهمك في تشكيل قطعة صلصال، ثم تنظر إلى رذاذ الدماء حول فمه وتصمت. ضيَّقت رانيا عينيها وهي تلمح ما يفعله عُمر. كان قد نحت مستطيلًا من الصلصال وصبَّ فيه ماءً ثم نحت أربعة خيول تخرج من الماء، حصانًا أصفر وحصانًا أبيض وحصانًا أحمر وحصانًا أسود. أربعة خيول لأربعة فرسان يقفون خارج المستطيل.

- ما هذا يا حبيبي؟

- لا أعرف.

لم يرد عمر، لكن عيناه قالتا الكثير. الولد يجاهد كي يُفصح عن شيء، لكنه عاجز عن الحديث. خطر على بال رانيا خاطرًا ذكَّرها بشيء قرأته في كتاب عن التربية.. ألا يُلمِّح الأطفال عن الأهوال التي يعجزون عن التعبير عنه بالرسم؟ ألا يمارس الأطفال المُهمَلون حيلًا مزعجة للفت النظر؟

هزَّت رأسها تُخرج منه الخواطر التي تُحمِّلها المسئولية كاملة، ثم قامت لتُجهَّز الردود على مشاكل مستمعيها الملفقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء سيوقف دوران أحداث العالم، حتى لو كانت أحداثًا مرعبة بلا تفسير.

موعد مسابقة السباحة الكُبرى يقترب، والأمهات والآباء يمضون أغلب أوقاتهم في النادي لمتابعة التدريب.

الحق أن مدرب السباحة الجديد ماهر للغاية، الأطفال يتعلقون بحماسه وانطلاقه، ويمكثون بعد التدريب ليُجهزُّوا معه للسباق.

انشغل بعض الأطفال في رسم لافتات دعائية وتشجيعية، وعكفت الفتيات –بما فيهن ديچا ولمار- على التدريب على الرقصات التشجيعية المُستنتسخة من الأفلام الأجنبية. لم يلاحظ أحدٌ سوى رانيا وميريهان ومحيي أن عمر وأصدقاءه الأربعة لا يفارقون المُدرب، ولا يبدو أنهم يمارسون نشاطًا معينًا معه ذا صلة بالسباق.

أحيانًا كانت سهير تمر على رانيا في النادي لتتولى تصوير رانيا وعمر في جولات الترويج لبعض المنتجات، كان آخرها إعلانًا مدفوعًا –كي لا يبدو مدفوعًا- عن أزياء سباحة للأطفال. ارتدى عمر الزي المكوَّن من قطعة واحدة تشبه الملابس الداخلية الرخيصة في الخامة والتصميم، ووقف محاولًا إضفاء أي أناقة على القطعة أثناء التصوير. لن يلاحظ أحد شيئًا طالما أن وجه عمر الجذاب يلفت النظر في الصور وغيرها.

فحصت سهير الصور لتُرسل لرانيا أفضلها، فلاحظت شيئًا جعلها تكتم صرختها حتى تبتعد عن مرأى عمر. الصورة تُبين عمر وخلفه حمام السباحة الضخم، وضوءًا أسود ينبعث من قاعه كشعاع ليزر سميك نحو السماء.

- رانيا.. يجب أن نمنع الأولاد من نزول حمام السباحة.

- سيظنون بنا الظنون يا أمي. لا يوجد شيء يرونه هناك!

- إذًا لنمنع عمر من المشاركة.

كانتا تقفان جوار كُشك لبيع الـ «دوناتس» داخل النادي بعيدًا عن عمر. شردت رانيا نحو البوابة القريبة إذ لمحت أشرف زوج ميريهان يدخل النادي وهو يجُر حقيبة ضخمة. أردفت سهير:

- رانيا.. ألم تلاحظي المستطيل الذي كان عمر ينحته من الصلصال؟! ألا يُذكرك بحمام السباحة! ركزي!

لكن رانيا لم تُركِّز، وظلت تتبع أشرف بعينيها وهو يلقى مدرب السباحة الجديد، كابتن هشام، ويعطه الحقيبة.

- أنتِ لا تُدركين صعوبة الموقف. الكلام أسهل من الفعل. ماذا يقول الناس عني حين أعتذر نيابة عن ابني عن المشاركة في المسابقة رغمًا عنه؟ هل سيتركنا نفعل ذلك؟!

تذكرت سهير ما حدث لمحيي ولوالدة كريم ولؤي. تُرى ماذا فعلا ليستحقا الإيذاء؟ هل انتهى دورهما في مخطط ما؟ هل اعترضا طريق الخمسة الصغار فيما يريدون فوجب التخلص منهما.. مؤقتًا؟ لماذا لم يُقتَلا كما في الأفلام الأجنبية؟ لماذا أصيبا بما يُجنبّهما الحركة لفترة محدودة؟

لفترة محدودة حتى يوم السباق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلَّ يوم المسابقة أسرع مما أراد الجميع؛ مَن يعلم ومن يغفل عما يدور وراء الكواليس.

عُمر يستعد للذهاب إلى النادي معه أمه، بعدما مزَّق رداء السباحة الشبيه بالملابس الداخلية وأغرقه بمادة سوداء لزجه.

جلست رانيا على حافة الفراش تنظر إلى قدميها وتفكر، بينما ميريهان تقف عند الباب، تنظر عبر فرجته إلى ما يفعل عمر بالخارج.

حلمي الجندي الذي لم يَره أحد من قبل حقق أمنيات الشهرة والثراء لرانيا ومحيي ووالدة لؤي وكريم وقد عرفت المرأتان من خلال أمهات الأخريات أن منى قد انقلب حالها بعدما تزَّوجت للمرة الثانية رجل أعمال ثريًا حقق لها حلمها في امتلاك ستوديو تصوير أفلام ومصادقة الفنانين. لا داعي لأن نوضح أن هذا الستوديو هو ما يُصورون فيه أفلام المنصة إياها.

ما علاقة أشرف زوج ميريهان بحلمي؟

- لا علاقة لأشرف بحلمي من قريب أو بعيد، ولم يتغير حال أشرف من فقر إلى ثراء ولم يحصد شهرة خاصة خلال العامين الماضيين. أشرف يعمل في

العقارات منذ عرفته و..

قاطعتها رانيا:

- العقارات؟ أيتها البلهاء! لا بد أن له علاقة بجذبنا جميعًا نحو كومباوند هيل بوي!

حدقت ميريهان إلى رانيا الجالسة على الفراش ولم تُعلِّق. أشرف ليس خائنًا فحسب، بل ربما هو ليس خائنًا على الإطلاق. أشرف يُنفذ مخططًا ما له صلة بالكومباوند وحمام السباحة والمدربين. قالت رانيا:

- ما شكل الخواتم الأخرى التي أهداها للمُدرسات؟

- متشابهة.. عادية.. إلا خاتم ريتا، لهذا لفت انتباهي.

- ختم الزيران..

قالتها رانيا شاردة وهي تحاول ربط الأمور. أشرف جلب مجموعة أولياء أمور وأولادهم للعيش في هيل بوي، ثم استدرجهم عمر لممارسة السباحة ومصادقته، في نفس الوقت أهدى أشرف مدربة السباحة خاتمًا خاصًا، استعاده لؤي واحتفظ به بعد موت المدربة. ابنتا ميريهان كشفتا أمره فأخذه والده منه، لكن الخاتم كان مُصرًا على العودة إلى أشرف أو إلى النادي.

خاتم الزيران الذي يتحكمون من خلاله في الجن/ الشياطين الساكنين داخل الجسد...

ريتا نزلت حمام السباحة لتفعل شيئًا لامها عليه عمر، ثم ماتت. ريتا حاولت فعل شيء خارج المخطط.. تُرى هل كانت تقاوم تأثير الخاتم وساكنه والمُتحكِّم فيه؟

قالت ميريهان وهي تغلق باب حجرة النوم عليهما:

- ليتني سمعت شكوى البنتين مبكرًا. ليتنا نُنصت لما يقوله أبناؤنا مهما بدا غريبًا.. المهم أن أشرف لم يخُني!.. أعني، لن أتحمل كل هذه المصائب مرة واحدة!

حدقت إليها رانيا بنظرة تعني –حقًا؟! هل تمزحين؟- لكن ميريهان أردفت:

- امنعي عمر من الذهاب إلى النادي. أنا أرسلت ديچا ولمار لجدهما في الدقي. سأساعدك.

- وهل نضمن أن تفسد الخطة في عدم وجود عمر؟ هل نضمن ألا يؤذى الأطفال الأربعة الآخرون؟

- لا ضمان لأي شيء. محيي في المستشفى وطليقته لا تعبأ بالولدين. والد كريم ولؤي لا يراهما إلا لمامًا حين ينزل مصر في إجازات عمله. هو حتى لا يعرف في أي صف هما.

سمعتا طرقات على الباب، ثم دفعه عمر ليُطل بوجهه الملائكي يقول:

-سنتأخر يا ماما. يمكنني أن أذهب بمفردي إن كنتِ مشغولة.

- لا يا حبيبي. سآتي معك. أين.. أين جدتك؟

هز عُمر كتفيه بمعنى لا أعرف، وخرج لينتعل حذاءه. ظهرت سهير من الممر المقابل لغرفة رانيا وأشارت لها بهاتفها المحمول. وصلت رانيا رسالة من أمها فيها:

«رانيا.. انظري إلى صور عمر الآن. الولد محاط بالشجرة السوداء الغريبة كأن فروعها تُنبت من جسده.»

نظرت رانيا إلى الصورة المرفقة، ثم وصلتها رسالة تالية:

«لا وقت أمامنا. سأمنعه أنا عن الخروج»

«ماما.. هذا خطر.»

«ولن أتركك أنت تواجهين هذا الخطر يا ابنتي. ليس هناك من هو أثمن منك ومن أخيك وحفيدي. ربما كنت خرقاء أؤمن بالخرافات، لكن قلبي لا يعرف سواكما وأبيكما. اخرجي أنت وصديقتك إلى النادي لإنقاذ باقي الأطفال.»

دمعت عينا رانيا، ثم ناولت هاتفها إلى ميرهان التي قرأت ما به سريعًا ثم أمكست هاتفها هي تكتب شيئًا ظهر في مجموعة أولياء الأمور:

«ميري- هان: يا بنات.. لدي صديقة تعمل في وزارة البيئة أكدت لي أن حمام السباحة في النادي موبوء بفطريات قاتلة. لمار تعاني حكَّة مزمنة رغم أنها لا تنزله إلا لمامًا.

نور: أو ماي جوش! ([11]) ماذا سنفعل في مسابقة السباحة؟!

ميري- هان: لنطالب بتأجيلها. هي ليست مسابقة دولية.

منى: ميري.. هل السبب.. ما نظنه؟!

ميري- هان: أجل يا منى افعلي ما بوسعك. افعلن ما بوسعكن يا بنات لتأجيل المسابقة أو امنعن أولادكن من المشاركة.»

قالت رانيا وهي تقوم استعدادًا للرحيل:

- هل ستفلح هذه الخطة؟

- إن كانت لجروبات الماميز قوة، فهي قوة انتشار الشائعات ومنحها مصداقية! هيا بنا.

قبل أن تخرجا من الباب، رن هاتف ميريهان، فأجابته فورًا:

- أبي.. هل أنت والبنتان بخير؟

- أنا بخير يا ميري.. بل نحن في النادي في انتظارك! حلمت حلمًا جميلًا دفعني للحضور. رأيت فيما يرى النائم الإعلامية منى الشاذلي تستضيف خديجة ولمار لتكريمهما عن جهودهما في التشجيع، فاستبشرت! ميريهان..؟ ميريهان؟! أين أنت؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الخروج من باب شقة رانيا سهلًا كما توقعتا. كلما اقتربتا من الباب، دفعهما شيئًا بقوة حتى ارتطما في الجدار المقابل.

تنادي رانيا من بين أسنانها وهي تمسك بكتفها:

- ماما.. ماذا يحدث؟!

تنظر سهير المذعورة عبر عدسة كاميرتها لترى عمر الساكن الوديع يخرج من ظهره خمسة جذور ذات أطراف مُدببة كذيول الشياطين، تضرب من تسوِّل له نفسه الحركة. قال عمر:

- ماما.. ألن تأخذيني معكِ؟ لطالما كنت تذهبين في كل مكان من دوني. البرنامج، النادي، الزيارات. لا تصحبينني معك إلا للتصوير.. ماما.. أنت لا تحبينني..

- عمر حبيبي..

- أنت لا تحبينني. أنا عبء عليكِ.. أعرف.. أعرف ويؤلمني هذا..

- لا تقل هذا.. أنا..

- حاولت أن أفعل كل ما تريدين كي تقبليني.. أين الحب غير المشروط يا ماما؟

تعجَّبت ميريهان من المصطلحات التي يستخدمها عمر، في نفس الوقت اعتصرت كلماته قلبها وتمنَّت لو تواتِها الشجاعة فتعانقه. اقتربت سهير من خلفه ببطء وهي تقول:

- نحن نحبك يا عمر وأنت تعرف هذا. لا شروط لحبنا لك، ولأننا نحبك فمساعدتنا لك ضمن تعبيرنا عن هذا الحب.

التفت عمر نحوها وكشَّر عن أنيابه فكشف عن أسنانه اللبنية المخلوعة وهو يقول:

- لا أحتاج إلى مساعدة.. هذه المرأة تقول في كل مكان أنها تحبني كما أنا، ومَن يحب شخصًا لا يحاول تغيير طبيعته. هذا ما تقوله الكاذبة!

أشارت سهير لرانيا من طرف خفي أن تفتح الباب وتهرب بينما تشغل عمر وتقول:

- هذه ليست طبيعتك يا حبيبي. ليست طبيعة البشر. أنا مستعدة لسماع كل ما تريد قوله ورانيا مستعدة ل..

- هي لم تسمعني قَط! لم تحاول حتى! كل ما كان يهمها هو نظافة الفراش والبساط ومنظرها أمام الآخرين!

كانت رانيا تتسلل نحو الباب وتفكر فيما ستفعله إن خرجت. ماذا ستفعل أمها مع هذا الشيء؟ أدارت مقبض الباب، فالتفت عمر نحوها وزأر كالسباع في اللحظة التي هجم فيها القط عليه فأسقطه أرضًا.

-اهربي يا رانيا!

جذبت ميريهان رانيا كي تخرج معها، لكن الأخيرة رأت أمها تُضرب ضربة خفية أدمت عينيها وأسقطتها على ظهرها.

- حتى أنت يا «تيتة».. حتى أنت لا ترينني سوى من خلال عينيك السحريتين هذه!

صرخت سهير وهي تمسح الدماء عن عينيها ولا تُبصر شيئًا. ميريهان تجذب رانيا.. القط يطلق فحيحًا مرعبًا وهو يغرس مخالبه في ظهر عُمر.

صوت باب حجرة النوم الإضافية يُفتَح ويخرج منه شريف رابطًا إيشاربًا على رأسه ممسكًا بعصا في نهايتها كرة ذات شعيرات بلاستيكية تُستخدم لتنظيف السقف، وفوق كتفه بساط ملفوف.

- ماما.. انتهيت من تنظيف الشرفة وأخرجت ال...

توقَّف عن الحديث وقد أدرك ما يحدث في حجرة الاستقبال.

- شريف! أنقذ أختك ولا تدع عمر يهرب! لا أرى شيئًا!

قبل أن يهجم عمر عليه، ألقى شريف بالبساطة فوق عمر، ثم جثم فوقه، فانصاعت رانيا أخيرًا لجذب ميريهان وخرجت.

لم تدم مقاومة شريف كثيرًا قبل أن يمزق عمر البساط وينطلق نحو النافذة فيخترق زجاجها ويهشمه، ثم يقفز إلى الشارع ويعدو في اتجاه النادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساد الهرج النادي. أولياء الأمور يتشاجرون مع الإدارة بسبب شائعة تلوث حمام السباحة –التي صارت حقيقة- وتعجز الإدارة عن فهم مصدرها. الحقيقة أن أولياء الأمور يشعرون بالذنب والتقصير تجاه أبنائهم طيلة الوقت مما يجعلهم عرضة أكثر للتأثر بالشائعات المخيفة هذه.

حين وصلت رانيا وميريهان كان أربعة رجال من أولياء الأمور يمسكون المُدرِّب والحقيبة التي أعطاها له أشرف، وواحد منهم يتحدث في الهاتف إلى نقيب شرطة من أصدقائه يطالبه بالمجيء فورًا.

- لا.. نحتاج إلى تدخل الأمن الوطني والمخابرات وأي جهة تهتم بهؤلاء الجواسيس... الحقيبة بها سائل يا باشا محفور على حاويته حروفًا غريبة... لا ليست عبرية ولا نعرف من أي داهية، لكننا سنتصرف حتى تأتوا..

نظرت ميريهان حولها بحثًا عن رغدة –هل تذكرونها؟- حتى رأتها تحمل ابنتها من ذراع واحدة وتجرَّها خارج حمام السباحة. هتفت ميريهان:

- رغدة! نحتاج إلى ماروين هنا لحظة.

سحبت رغدة ابنتها نحو التجمُّع حول المُدرب الجديد والسائل المريب. ما أن وقعت عينا ماروين المبللتان بالدموع على الحاوية البلاستيكية حتى اتسعتا، وتملَّصت من يد أمها كي تقترب أكثر من الحروف الغريبة. قالت من بين أسنانها الأمامية المفقودة فتحولت كل شين تنطقها إلى ثاء:

- يمكنني فك «ثَيفرة» هذا الكلام. هذه حروف «مُتثابهة»، وهذه.. أريد ورقة وقلمًا.

ضرب كابتن هشام كفًا بكف وهو ينظر عبر حمام السباحة إلى أشرف الواقف هناك، ينظر إليه نظرات تُجمده في مكانه.

بحثت رانيا عن أصدقاء عمر الأربعة في كل مكان بلا جدوى، لكنها وجدت ديچا ولمار بصحبة جديهما. هرعت نحوهم وهي تهتف:

- أنا صديقة ميريهان يا عمي.. النادي ملوث، رجاء عُد بالبنتين إلى بيتك.

- لا أرى أي سبب للذعر يا ابنتي. هذه شائعة. لا تخيفوا الأطفال.

-لمار.. هل رأيتِ عمر أو أيًّا من أصدقائه الأربعة؟

- رأيت كريم ومهند مع الأولاد يُعِدّون اللافتات في القاعة الخلفية.

انطلقت رانيا إلى القاعة الخلفية وشمَّت رائحة خبيثة أقرب لرائحة البيض المسلوق. حاولت فتح الباب الزجاجي لكه كان موصدًا. وضعت كفيها على جانبي وجهها لتمنع انعكاس الضوء ونظرت إلى الداخل.

لؤي وكريم ومهند وسيف يجلسون على مقعد طويل خشبي وعدد من الأطفال يُجهَّزون لافتات التشجيع التي تحمل شعار النادي، ويرسمون شعارًا آخر عبارة عن شجرة وأسفلها أربعة فرسان على ظهر خيولهم، كل بلون مختلف.

رن جرس هاتفها برقم ميريهان، فتحت الخط لتسمع صوتها المرتعب:

- رانيا.. المكتوب على الحاوية هو.. ثانية واحدة أقرأ لك من الورقة التي تكتبها ماروين.. آه.. مكتوب: بسم «فوبوث» العظيم، و«ديموث» ([12]) الأكبر، تُفتَح البوابة ليعبر فرسان المرض والحرب والمجاعة والموت. بأمر «ثَيطان» الرعب يحضرون لتبدأ النهاية.

- ثَيطان؟

- أعتقد أن ماروين تكتب كما تنطق. المهم..

صدح صوت رجل من الواقفين قرب ميريهان يهتف:

- فرسان؟ هؤلاء هم فرسان نهاية العالم، المذكورين في الإصحاح السادس لسفر رؤيا يوحنا!

ميزت رانيا صوت الأستاذ رامز والد كريستين ومايكل. هتفت بدورها:

- اسمعي يا ميريهان.. أنا أرى أصدقاء عمر الأربعة أمامي، كل منهم يرتدي زي سباحة بلون مختلف.. أحمر، أسود، أصفر، وأبيض. نفس ألوان الشعار المرسوم على لافتات التشجيع..

- نفس ألوان المجسمات التي حكيتِ أن عمر نحتها من الصلصال.

- الخيول التي نراها مرتبطة بعمر وأصدقائه.. والشجرة المتفرعة السوداء هي..

- هي عمر. أربعة فرسان وشيطان يشبه الشجرة..

تهز رانيا رأسها غير مُصدقة. لا بد أن هنا خطأ ما.. إن كان عمر هو الشيطان الآمر، فما دور أشرف؟ ما دور حلمي الجندي؟

- رانيا! عمر هُنا!

هرعت رانيا بين ممرات النادي الموحشة المظلمة، تلاحظ لأول مرة الظلام الكثيف الذي يحجب ضوء أعمدة الإنارة. المسافة التي لا تزيد عن مائتي متر بين القاعة الخلفية وحمام السباحة تمتد أمامها كأنه تيه في صحراء. تتذكر طفولتها والأشباح التي كانت تراها وكيف كانت أمها تطلب منها ألا تخبر أحدًا شيئًا عما تراه. تتذكر أمها نفسها التي أخفت اختلافها ووأدت حقيقتها، ثم تُدرك أنها حقًا تحب عمر لكنه ليس مختلفًا مثلها وأمها.. عمر في خطر. حاول عمر الاستغاثة بها مرات، حتى غرابة مأكله وصراعاته مع القط وارتفاعه في الهواء لم تكن سوى صيحات استغاثة. لو كان قد استسلم منذ البداية لكان أخفى كل علامات تغييره هذه حتى لحظة الصفر.

عمر ورانيا وسهير واحد، إلا أن عمر لم يجد مكانًا لنفسه في بيته، فأوجد عالم الظلمات له مكان هو وكل الأطفال المتورطين في الأمر.

وصلت رانيا في نفس الوقت الذي كان عمر يقف فيه أمام أشرف عند الضفة الأخرى من حمام السباحة. بقوة عاتية تملَّص مدرب السباحة كابتن هشام من أولياء الأمور حوله، ودفع رغدة وماروين جانبًا، ثم حمل الحاوية المُريبة وغاص إلى قاع حمام السباحة.

صرخت رانيا:

- عمر حبيبي.. تعالَ هنا.

نظر لها عمر ثم ابتسم في برود وتراجع خطوتين إلى الخلف حتى لامَس أشرف. اقتربت ميريهان من زوجها وهي تقول:

- أشرف.. ماذا يحدث؟

- لست أشرف. وابتعدي أنتِ.

بعد لحظات طفا جسد المُدرب على السطح وأسود الماء كله من حوله. صرخ الجميع وهرب أغلب الموجودين بأطفالهم إلا عددًا محدودًا، وقف ذاهلًا غير قادر على الحركة.

تراجع أشرف مختفيًا بين أشجار النادي، ولحقته ميريهان، بينما تغلي مياه حمام السباحة بلا حرارة وتفور. انطلقت رانيا تدور حول المسبح نحو عمر وهي تهيب بالجميع أن يبتعدوا. في نفس الوقت، وصل الأطفال الأربعة – أصدقاء عمر- ومعهم آخرون يحملون لافتات تشجيع عادية، رسموا حول إطارها رموزًا تشبه تلك التي كانت في الحاوية.

وقف كريم ولؤي ومهند وسيف حول أركان المسبح الأربعة، وجوههم شاحبة، يحدقون إلى جثة المُدرب الطافية على سطح الماء. حملت رانيا عمر، فلفَّ ذراعيه حول عنقها متسع العينين.

- لا تخف يا عمر.. هيا نرحل من هنا..

قبل أن تتحرك، خرجت أربعة خيول مكونة من الماء الأسود من المسبح، ثقيلة الحركة كأنها تخرج من عجين. جذبت رغدة لؤي القريب منها من ذراعه كي يبتعد عن الحصان الذي يقترب منه، لكنه التفت نحوها و.. صهل! تركته وحملت ابنتها العبقرية ناقصة الأسنان، وانطلقت متبعدة وهي تتلو آيات قرآنية.

نظر عمر إلى وجه رانيا وقال:

- ماما.. ماذا يحدث!

وقبل أن تفتح فمها، شعرت بشيء يدفعها نحو الماء، فسقطت جوار جثة المدرب التي تذوب ويذوب معها ختم الزيران بعدما أدى مهمته ودفع الشاب إلى التضحية بنفسه ليفتح البوابة ويصب فيها هذا السائل الغامض، ورأت عمر يرتفع عن الأرض محمولًا فوق جذور عملاقة تهشم الأرضية حول المسبح وتنبت إلى عنان السماء. سبحت رانيا وسط الهول الأسود المحيط بها، والخيول الأربعة تخرج من الماء وتبتلع الأطفال الأربعة.

الماء ثقيل، يسحبها إلى الأسفل. تنظر إلى أعلى نحو عمر الذي تبدَّل وجهه إلى الوجه شديد الوسامة الذي رأته في حلمها مع منى الشاذلي. مدت يدها نحوه، تستغيث به أو تغيثه.. يبدو لي –أنا لاشين- أن الاثنين واحد.

قال عمر بصوته الشاب:

- فات الأوان.. منذ رفع عمر يديه نحوك لتحمليه، فربت على كتفه ولم تكلفي نفسك عناء الالتفات نحوه وترك شاشة هاتفك المحمول.

صرخت رانيا وانهمرت دموعها، تصارع رغبتها في أن تترك نفسها للغرق، وبين أمل في أن تمد يديها وتحمل عمر الصغير الذي لم يكن يريد سوى نظرة وقرب من منها.

سمعت رانيا صوتَ بكاءٍ وصراخًا، ورأت أشرف قد عاد، يحمل ابنتيه تحت إبطيه ويهتف:

- هذا جزاء كل من تدخل بحماقته البشرية لإفساد عودة شيطان الرعب وفرسانه.

ثم ضحك وقال وهو يركع ويحدث رانيا باسمًا وابنتاه تصرخان:

- ابنك يحبك يا مدام رانيا. للأسف، يحبك.

ترك واحدة من بناته ومد يده نحو رانيا كي يُخرجها من الماء، لكنها رفضتها.

- لا مخرج إلا من هنا يا سيدتي. أنت أم شيطان الرعب، هل تفهمين مسؤليتك التي لا فكاك منها؟ أنت مميزة.. بل فريدة.

- من أنت؟! أنت.. حلمي الجندي، أليس كذلك؟

- واحد من أسمائي حلمي الجندي. أنا ناجحاييد لِمال، حارس بوابة النهاية.

أشار إلى ما تحت سطح الماء وأردف:

- هذه البوابة هنا منذ ملايين السنين. بوابة عالم الظلمات الأخطر على الإطلاق، والتي لا يمكن لشيطان الرعب وفرسانه العبور بالكامل إلا من خلالها.

تدور الخيول الأربعة الضخمة حول المسبح. تضرب الأرض بحوافرها وتصهل. الأطفال بداخلهم.. تراهم رانيا يسبحون في ظلام كثيف.

- ولماذا عمر؟ لماذا أصدقاؤه الأربعة؟

- أجساد بشرية نادرة تتحمل وجود هذه الشياطين العليا. لا أتحدث فقط عن مواصفات الأجساد يا سيدتي.. أتحدث عن النفوس.. النفوس الجوفاء التي لم يملأها الحب، فملأتها حلكة الشياطين.

قام أشرف/حلمي/ ناجحاييد من ركوعه، وأشار إلى النادي الخاوي حوله مردفًا:

- في هذا الزمن لا تجدي سواء النفوس الجوفاء يا سيدتي. أي طفل يصلح كي يملأه شيطان الرعب أو اللعب أو الممل أو المال. ألا ترين لمعة الشيطنة في أعينهم الصغيرة من خلف الشاشات؟ هذا عصرنا الذهبي، والاختيارات تدير الرؤوس. اخترنا عمر لأنه ابن رانيا ابنة سهير ابنة زاهر، الزوهري ذي القوى الأعظم على الإطلاق. رحمة الله عليه.. وعليكم!

قبل أن يستدير أشرف/حلمي/ ناجحاييد ليُكمل خطابه الذي يليق بنهايات الأفلام الأمريكية، سمعت رانيا صوت ضربة قوية وتهشُّمِ عظامٍ. انحنى الرجل ولمحت من خلفة شريف أخاها، يحمل عصا الممسحة الخشبية المغطاه بدماء حارس بوابة النهاية.

- لست جذر بطاطا أبدًا في هذه القصة! أنا أيضًا ابن سهير زاهر.

مد يده نحو رانيا، فقبضت عليها وخرجت. استدار حارس البوابة نحوهما وقد جُرِح وجهه وظهر من تحت مادة سوداء دخانية ذات رائحة خبيثة. ضحك، واخترقت الجذور جسد عمر من كل جهة، لكنه كان حيًا..

صرخت رانيا، لكن الشيطان الحارس لطمها وجرَّد شريف من عصاه فضربه بها، تلقى شريف الضربة على ذراعه وضرب رأسه برأس أشرف/حلمي/ ناجحاييد في حركة قتالية رآها في فيلم ما، لكنه لم يكن يعرف أن تأثيرها عليه قد يكون أكبر من تأثيرها على من يهاجمه.

برزت من مكان ما ميريهان تزحف على أربع نحو ابنتها ومن خلفها والدها المُسن الذي ظل يبسمل ويحوقل غير مصدق أن رؤيته كاذبة. هتف أشرف:

- ابتعدي من هنا. البنتان هما سبب إفساد كل شيء. الثرثارتان اللعينتان فوَّتتا علينا أضحيات بشرية من الحضور، وستدفعان الثمن من دمائهما.

فتحت رانيا عينيها لترى أمها تتسلق في هدوء –وعيناها مغطتان بالدماء- جذور شيطان الرعب. التفت ما تبقى من عمر نحوها وقد أجفلت الجذور من لمستها.

- هل تذكر يا حبيبي الوقت الذي كنا نقضيه معًا في البيت والنادي؟ هل تذكر تيتة وجدو وخالو شريف؟ أنت متأكد أننا نحبك.. أليس كذلك؟ قاوم يا حبيبي.. الشيطان يخشانا أكثر مما نخشاه. الشيطان أفسد حياته وآخرته كي يتحدانا ويثبت أنه أقوى. ألا يعني هذا أنه يخشانا؟ ألا تعني كل هذه الخطة أن لا مكان له في عالمنا ما لم نسمح له –نحن البشر- بذلك؟ هل كان ليعبر دون مساعدة كل هؤلاء؟! أعرف أنك أذكى طفل رأيته في حياتي، وأطيب طفل.. لست خاويًا يا عمر، ويملأ قلبك حب يكفي العالم..

ترنحت رانيا نحو أمها وابنها، وتسلقت هي الأخرى الجذور وهي تمد يديها نحو عمر وتقول:

- أتذكر كيف خذلتك يا حبيبي لأجل وهم. اخذلني الآن ورُدَّني، أنا أستحق. لكن جدتك وخالك وأصدقاءك، هل يستحقون؟

مد عمر يدًا واحدة مهشمة العظام نحوها والدموع تغرق عينيه. الجذور ترتج وتطول لتبعده. الخيول تدور في جنون وتصهل حول ميريهان الجاثمة فوق ابنتيها، وشريف فاقد الوعي جوار أشرف/حلمي/ ناجحاييد الذي يصرخ:

- نعم يستحقون يا عمر! الآن تحاول أن تستدر تعاطفك بعدما خذلتك مرارًا؟ أنت تنقذ هؤلاء الأطفال من براثن آبائهم. أنت لن تحرمهم منهم، هم لا يريدونهم من الأساس. أبناؤهم مجرد وجاهة اجتماعية يتباهون بها لا أكثر! لا تملس هذه المرأة! أجهز عليها وسأجد لك من تعتني بجسد عمر حتى يكبر..

همست رانيا:

- أنا أستحق..

سحبت ذراعها ببطء واستسلام، فأمسكت بها سهير ورفعتها مرة أخرى بقوة حتى كادت تنخلع لتمس يد عمر الذي قبض عليها في لحظة.

- لن نترك له ابننا يا «خايبة»!

ثم جاءت فراشة ذهبية شفافة تدور حول الأكف الثلاثة المعقودة. الظلام ينقشع، بل يتحوَّل إلى ضوء ساطع يغشي الأعين، ثم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مساء الخير عليكم يا صبايا، مساء الخير عليكم يا شباب، «وحشتوني جدًا من امبارح.»

أضواء الستوديو الساطعة تُعمي رانيا للحظة قبل أن تفهم أنها ليست في النادي، وأن الجالسة أمامها ليست منى الشاذلي، بل رِهام سعيد.

- معنا اليوم الأم الباسلة والجدة الشجاعة اللتان واجهتا موقفًا عجز الجميع عن تفسيره. مدام رانيا، مدام سهير.. نرحب بكما ثم نسألكما عن النهاية أولًا. ماذا حدث لعمر؟

ترتبك رانيا وقد عاد إليها إحساس أنها دخلت القصة في منتصفها، فتقول سهير:

- الأمومة تضحية يا مدام رِهام. والأبوة كذلك طبعًا.. لكن أود أن أضيف أن دور الأب والأم في حيوات أبنائهم ليس الدور الوحيد. الأمومة والأبوة خيط لا ينقطع، ويمتد بين من الأبناء إلى الآباء إلى الأجداد، ويتفرع إلى كل أفراد العائلة كشجرة خضراء خيِّرة.

تقول رانيا شاردة:

- الأمومة ليست تضحية بالضبط.. الأمومة مسئولية.. نضج.. فهم للاحتياجات. سخيف أن نُلخص الأمر في كلمة مخيفة مثل التضحية. كلمة تضع على عاتق الآباء توقعات غير منطقية من أبنائهم لرد جميل هذه التضحية.

تقول رِهام سعيد:

- ها قد عادت إلينا رانيا الصاوي، خبيرة العلاقات الأسرية..

- لست خبيرة ولا «زفت». أي أم تعرف بالفطرة الحقيقية أكثر مني. أين عمر؟!

انتبهت إلى أن عمر يجلس بينها وبين سهير، يرتدي بذلة سوداء أنيقة ويصفف شعره إلى الخلف. متى جاءوا إلى هنا؟ وكيف شفي عمر من إصاباته؟ ما مصير الأطفال الخيول الآخرين.

تقول الإعلامية الجالسة أمامهم وهي تعقد حاجبيها في خطورة:

- لي سؤال يا عمر. ألست نادمًا على ما فعلت؟ كيف تسمح لشيطان الرعب أن يفعل كل هذا؟

- لست نادمًا. أحيانًا ما يكون الخوف.. الرعب تحديدًا، هو الطريقة الوحيدة للفت نظر الجميع إلى الخطر الحقيقي. ألا تحبين روايات الرعب؟

حدقت رانيا في وجهه، أذهلتها طريقة حديثه المُنمَّقة. ابتسم، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتها وهي ترى بقعة سوداء كالحبر تفترش أسفل عنق ابنها الوحيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

آخبار النجوم

«يصرخ: لماذا أعجز عن الغناء بإحساس، أو بكلمات ذات معنى؟ أشعر أنني لطالما كنت أعمى، ولا أعرف لماذا تعطفن عليَّ، فهناك غيري في الصف، وحيواتهم لم تضع بعد كحياتي.»

تامينو

أغنية: الليل النيلي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبحث أسامة الصاوي عن ملعقة في أي مكان كي يُخرِج بها الفراشة التي سقطت في كوب شايه. أخيرًا، وفي اشمئزاز، دس خنصره أسفلها ورفعه ثم طوَّحها عبر الشرفة فطارت مبتعدة. إذًا اللعينة كانت تسترخي فقط فوق سطح الشاي كأنه حمام سباحة!

وضع أسامة الكوب على السور وقد قرر أن يتناسى ما حدث ويشربه، ففاطمة لم تعد بعد من السوق، وعليه أن يُنهي إفطاره المكون من قطعتين من كيك خشن مصنوع من دقيق الذرة قبل أن ينزل إلى بروفة المسرح.

لو أكل الكيك دون شاي سيختنق، ولو صنع غيره سيتأخر عن عمله.

تمتد يده تلقائيًا إلى حزام سرواله ليفكه قليلًا فيتسع بطنه للإفطار، لكنه تذكَّر أن وزنه قد ازداد بضعة كيلو جرامات خلال الأشهر الماضية بسبب ضائقة مالية يمر بها الجميع عمومًا، فلم تعد هناك رفاهية لإفطار الشوفان والفاكهة المجففة ولا حتى البيض.

قرر ألا يفطر ويدمج كوليسترول الإفطار مع شحوم الغداء، ونزل إلى سيارته الضخمة المتهالكة. جلس خلف المقود وألقى نظرة أخيرة إلى وجهه المُرهق، وأدار المحرك فلم يدر. كان أسامة قد باع سيارته الأحدث لتزويج عصام ابن زوجته فاطمة، وابن أخيه المتوفى اسماعيل الصاوي، ولم يندم قط. عصام ابنه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ولم يُنجب مرة أخرى لأنه رغب في أن يمنحه اهتمامه وماله كاملين.

انطلق أسامة –بعد محاولات عديدة- بسيارته إلى المسرح في وسط البلد في القاهرة لحضور آخر بروفات مسرحيته الجديدة المأخوذة -ياللتجديد- عن مسرحية مَكبِث لشيكسبير. معالجة عصرية أخرى من آلاف المعالجات التي قُدِّمت للمسرحية، لكنَّ لأسامة الصاوي جمهورًا يتبعه حيثما حل. هو ليس جمهورًا ضخمًا، لكن لا خلاف على موهبة أسامة التي تلفت أنظار النقاد والمهتمين بالتمثيل، مما يجعل له قاعدة جماهيرية لا بأس بها.

قبل أن يترجل من سيارته شعر بغصة في حلقة وانعقدت معدته.. ماذا سيحدث بعد انتهاء أسابيع العرض؟ هل هناك مسرحية أخرى أم أنه سيضطر للَّف في مراكز تعليم التمثيل بحثًا عن «كورسات» يدرسها ليكسب قوته وقوت بيته؟ إيراد الأرض التي ورثها في دسوق لا يكفي إلا للستر فقط.

لا يحترف أحد التمثيل كمصدر رزق وحيد، خاصة ونهايات عظماء الفنانين ماثلة أمام أعين الجميع. السنوات الأخيرة التي يبحثون فيها عن علاج على نفقة الدولة، أو مساعدة على المعيشة تثير هلع كل من يعمل في مجالات الفنون.

رن جرس هاتفه المحمول برقم فاطمة –المُسجلة باسم أم عصام- فرد عليها وقد تخيَّل حاجبها الرفيع مرفوعًا استعدادًا لهجوم ما.

- لماذا لم تضع الكيك في الثلاجة يا أسامة قبل أن تنزل؟ ستزول نعمة ربنا من وجوهنا بسبب شرودك هذا. لو جفَّت سأحمصها وسنأكلها غدًا. المهم.. عصام وزوجته سيبيتان عندنا يومًا أو اثنين. نحن في نهاية الشهر كما تعلم وراتبه نفد. اشتريت دجاجًا و...

أبعد أسامة أذنه عن الهاتف وفاطمة تتلو عليه ما اشترته بغرض الاحتفال بزيارة عصام –لا زوجته- وعن ضرورة إمدادها بالمزيد من المال حتى أول الشهر.

سار أسامة في أروقة المسرح نحو حجرة تبديل الملابس وهو يفكر في فاطمة وفي حياته الآمنة المستقرة معها. لطالما كان يبحث عن هذه الحياة التي لا يحدث فيها ما يعكر عليه صفو تقمصه لشخصيات أعماله. ردد لنفسه أنه ليس نادمًا على الزواج من أرملة أخيه. تلك الفتاة الضئيلة التي كان يحبها في مراهقته لم تكن تناسبه. هي كثيرة الحركة، طموح، ذات خيال واسع، تحب لفت الانتباه عن طريق حكاياتها غير المحبوكة دراميًا عن رؤيتها لعفاريت في الصور أو شيء من هذا القبيل. كل يوم مغامرة.. كل يوم أحداث غير متوقعة..

حب المراهقة الساذج هذا.

يعترف أن فاطمة لا تحضر عروض مسرحياته، لكنها كذلك لا تعطله عن وظيفته ولا تمنعه عنها. فقط يحلو لها أن تقول لمعارفها أن أسامة يعمل في وزارة الثقافة، ولا تمنحهم تفاصيل أكثر. حين يطلب منه أحد أن يتوسط له في أمر من أمور الثقافة، تجيب بدلًا عنه: أسامة لا يعرف شيئًا وليس في يده شيء.

المشكلة أنها تؤمن بالعبارة الأخيرة أكثر من اللازم.

بعد انتهاء البروفة الأخيرة امتلأ أسامة بالزهو جراء المديح المستحق الذي ناله، تلقى اتصالًا هاتفيًا من فاطمة تخبره فيه أن:

- «الهانم» حامل! ألم تكن تطيق صبرًا على الإنجاب حتى يسدد الولد ديون الزواج؟!

قال أسامة في ضيق كبح سعادته بالخبر:

- لا تقولي أنكِ تتحدثين هكذا وهي في الجوار!

- لا أعرف في أي مكان تندس هي وابني. قلة حياء. المهم، لا بد أن نساعد في المصاريف التي هبطت على رؤوسنا هذه. تصرَّف بالله عليك. قُصِم ظهري في الجمعيات.

- ماذا أفعل يا فاطمة؟! اهدأي.. سأبحث عن كورس في..

- ليحرق الله الكورسات والتمثيل في يوم واحد! هل تريد أن يظهر ابني بمظهر المُقصِّر في حق زوجته أمام أهلها؟! إن كنت تعشق التمثيل هكذا فلتمثل شيئًا يجلب المال. فيلمًا أو مسلسلًا يُعرض في رمضان. لست أقل من يوسف الشريف..

صمتت لحظات كأنها تذكرت شيئًا فأضافت:

- يوسف الشريف مختفٍ له فترة. لا يوجد أعمال مرعبة غريبة مثل تلك التي يمثلها. لماذا لا تبحث عن منتج ينتج لك شيئًا مماثلًا؟ أنت - ما شاء الله- طويل وعريض. أسبوعان في أي صالة رياضية أو مركز شباب وتصبح مثل الفنان عمرو يوسف.. أو الفنان ياسر جلال! وعدك الله بما وعده به من أدوار لن تُنسى.

انشغل ذهن أسامة بقائمة المنتجين الذي يعرفهم –ليست معرفة مباشرة- ويمكنهم أن يساعدوه.

المشكلة الوحيدة هي أن المتاح لممثلي المسرح من أمثاله أدور هزيلة تفتقر إلى أي مساحة للإبداع. يعرف عتاولة في التمثيل المسرحي حبسهم المنتجون في أدوار البلطجية أو أبناء البلد الذين يزينون أي عمل مثلهم كمثل الثريَّات والأرائك.

لم يعد أسامة إلى بيته في عابدين إلا بعد منتصف الليل، بعدما تأكد أن الجميع قد ناموا. كان يحتاج إلى هدوء وكوب شاي بلا فراشات كي يفكر في المسئولية التي ألقيت على عاتقيه فجأة.

ألم تطق صبرًا يا عصام على الإنجاب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد العرض الأول، أحاط الصحافيون بأسامة يحاورونه، وهم صحافيون جادون لا مكان لهم تحت الأضواء، ولا يقرأ ما يكتبون سوى قِلة هي جمهور المسرح الجاد والتمثيل الهادف.

وسط الزحام، رأى أسامة رجلًا مكتنزًا يرتدي سترة منفوخة برتقالية اللون تحتها قميصًا أخضر وبنطالًا من قماش الچينز يتقدم نحوه.

اخترق الرجل المُتحلقين حول أسامة في فظاظة وهو ينهرهم بصوته الأجش نافد الصبر، ثم مد يده يصافح أسامة وهو يقول:

- المهندس فريد فريد. منتج أفلام سينما وتليفزيون ومسرح.

- منتج أفلام مسرح؟ كيف؟

- ويقولون أنك متعلم؟ أنا أنتج أفلامًا ومسلسلات ومسرحيات.

ثم غمغم:

- يبدو أنه لا يفهم في الباذنجان الأسود.

قال أسامة وهو يصافحه:

- أهلًا مهندس فريد فريد. تشرفنا.

- أهلًا بك يا أسامة. هل تمانع في أن أدعوك على العشاء في أحد مطاعمي لنناقش موضوعًا يخص العمل؟

لم يكن فريد فريد من نوعية المنتجين التي يستطيع أسامة التعامل معها، لكنه قرر أن يسمع منه، ثم يرفض بطريقة مهذبة. هكذا لن يُشاع عنه أنه يرفض الأعمال بفظاظة ويحافظ على تقديره لموهبته.

ذهب الرجلان في سيارة فريد المرسيدس إلى مطعم فاخر من الخارج، ويشبه أزياء مهرجان الجونة من الداخل. قال فريد وهو يتقدمه نحو حجرة تحوي طاولة ضخمة حولها مقاعد أقرب لمقاعد الصالونات في عصر النهضة:

- هذا المطعم كان ملكًا لرجل أعمال توفي مؤخرًا، فاحتار ورثته في إدارته. اشتريته منهم بتراب النقود وجددته على ذوقي ليواكب العصر. انتظر...

أشار فريد إلى النادل وقال:

- أحضر لنا نصف جَدي ومستلزماته، وهات نافورة الجبن أيضًا..

- نافورة الجبن؟ هل أحضر الدجاج المقلي معها؟

- سبحان الله.. هل أتحدث بـ «اللاوندي»؟ سنغمس اللحم في الجبن. هل هناك ما يمنع؟ ولا تنسِ أن تشغل لنا شيئًا من أغاني الزمن الجميل.. لتكن أغاني سيد خنزيرة مثلًا.

هزَّ النادل رأسه وانصرف، وبعد ثوان دوى صوت سيد خنزيرة الملتاع يغني شيئًا عن غدر البحر وعن قرموط وحيد مجروح. قال فريد مُصرًا على عدم استخدام ألقاب:

- اجلس يا أسامة. أنا أريدك أن تمثل في باكورة أعمالي التليفزيونية. مسلسل من عدة مواسم ليواكب العصر، وسأعرضه على منصة عالمية. لا تقلق، لن أتعامل مع منصة المنحرفين إياها. حدَّ الله بيني وبين الحرام.

- ممتاز يا.. فريد.. هل اخترت ورقًا مناسبًا؟

- مهندس فريد.. بالطبع لدي ورق وأقلام وكل ما تشتهي الأنفس. المسلسل سيكون من نوعية الرعب. نوعية مواكبة للعصر، ولسنا أقل من منصة المنحرفين في شيء كما تعلم.

- من سيكتب العمل؟

- هو مكتوب من تلقاء نفسه! أجل.. هل تسمع عن برنامج اسمه بعد منتصف الليل؟

- كلا.. أين يُعرض؟

- برنامج إذاعي هو. كانت لي خبرة لا أتمناها لأعدائي معه. اتصلت بهم لأحكي مشكلة غريبة تعرضت لها أثناء تجديدي لفيلا مسكونة، لأجد أن مقدمته جاهلة لا تفهم في الباذنجان الأسود حتى. فقررت أن أشتري البرنامج بمن فيه وأحول محتواه إلى مسلسل رعب من عشرة مواسم على الأقل. البرنامج كبقرة حلوب، لو لم يستفِد أحد بحليبها ستمرض وتموت.

هز أسامة رأسه ثم قال:

- ومن سيكتب السيناريو؟

- سبحان الله. أقول لك أنه مكتوب من تلقاء نفسه. سأكلف واحدًا من صبياني بتفريغ الحلقات على ورق فيصير معنا سيناريو. أما الإخراج فلا نحتاج مخرجًا. يدي بيدك –وأنت خير العارفين- ومعنا المصور علي أبو فاس وسنصنع المجد. لماذا نجلب مخرج يُملي علينا تعليماته؟ هل سيفهم في الرعب أكثر مني؟ هل سيفهم في التمثيل أكثر منك؟

زمَّ أسامة شفتيه كاتمًا ضحكته، ثم قال:

- مهندس فريد.. لا أظنني سأكون متاحًا الفترة القادمة، فلدي..

- ليس لديك شيء. أنا سألت قالوا لي أنك ستكون «خالي شغل» بعد أسبوعين. أنا لم أعرض عليك المقابل المادي بعد. انتظر ولا تقطع بعيشك.

أخرج فريد العقد من جيبه وفرده أمام أسامة، فرأى الأخير رقمًا لم –ولن- يمسك في يده مثله. ارتعشت يداه وجاهد كي يُخرج الكلمات من حلقه.

- لي شرط..

- شرط؟ ما هو..

- سأجلب بعض الشباب الموهوب ليعمل معنا. لن يكلفوك الكثير، وفي نفس الوقت سيضيفون للعمل قيمة تُمكنك من.. من بيعه إلى منصات أفضل من منصة المنحرفين. ما رأيك؟

أسند فريد ظهره إلى ظهر المقعد مفكرًا ثم قال:

- سأسمح لك بواحد فقط، ولنأكل سويًا كي يكون بيننا «عيش ملح» فلا يدخل أولاد الحرام بيننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمع أسامة بضع حلقات من بعد منتصف الليل وهو في طريقه إلى عروض مسرحيته، ولم يتعجَّب مما آلت إليه حياة سهير زاهر، حب مراهقته. لا زالت غير ناضجة، متسرعة، مجنونة.. بل صارت أكثر إزعاجًا من ذي قبل، وها هي تستمر في لفت النظر بهذا البرنامج الذي تدعي أن أحداثه حقيقية، وأن هناك نصف شيطان واقع في حبها!

يا لأحلام المراهقة!

حمد الله على نعمة فاطمة، ولعن في سره الاحتياج الذي دفعه لقبول تمثيل عمل تافه كهذا.

ذهب إلى الزمالك كما طلب منه فريد لمعاينة موقع التصوير. فريد يفعل ما يشاء في أي وقت، وقبل أن يُنهي «صبيه» كتابة السيناريو، انطلق هو يؤجر فيلا لا يعرف بعد ماذا سيصوِّر فيها.

قاد فريد أسامة في حديقة الفيلا الجرداء، وقد انعكس ضوء الشمس على سترته المنفوخة اللامعة باللون الزهري. يصر هذا الرجل على أن يشبه الكرة لسبب ما.

- هذه بيلّا ([13]) «شوكوريل»، صاحب المحلات الشهيرة أيام الزمن الجميل. سكنت هذه الـ «بيلَّا» عائلة الفنان عزت أبو عوف؟ هل تذكره؟ فريق الفور إم؟

تمايل فريد وهو يفرق بأصابعه ويغني: « الوله ده، الوله ده». قاطعه أسامة في ضيق:

- أعرفهم طبعًا. المهم..

- رحمة الله على مَن مات منهم. المهم، أجرت هذه البيلَّا بتراب النقود، أتعرف السبب؟

هز أسامة رأسه نفيًا، فاقترب فريد من أذنه واقفًا على أطراف أصابعه وهمس:

- لأنها –اللهم احفظنا- مسكونة بالعفاريت.

قال فريد أنها شائعة طبعًا، وإن كانت حقيقية فهو سيضرب عصفورين بحجر؛ سيصور المسلسل في مكان غير مكلف، وسيتحقق من صدق الشائعات. إن كانت الـ «بيلَّا» مسكونة حقًا، فسيشتريها بتراب النقود، وربما يحولها إلى مقهى يواكب العصر، يترنَّم فيه سيد خنزيرة وحسن أبو لغد بأغانيهما العظيمة.

- وكي لا تظن أنني جاهل، سأستخدم أغاني الفور إم في خلفية الأحداث. منها أستميل محبي الفنانين الراحلين –عزت ومها أبو عوف- ومنها أوفر الموسيقا التصويرية.

كاد أسامة أن يطلم خديه لولا رأى سهير زاهر عند سلم الڤيلَّا، ومعها شاب طويل غالبًا هو مهاب عمارة مقدم البرنامج. عرفها على الفور فهي لم تتغير ولم تزدد طولًا منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها.

حين رأت سهير المنتج، انطلقت نحوه في غضب وخلفها مهاب يهتف بها:

- يا أستاذة.. يا أستاذة.. اتفقنا أن تتعاملي بهدوء.

صاحت سهير:

- من أذن لك في تحويل البرامج –قصة حياتي الشخصية- إلى مسلسل؟

- ماذا بك يا مدام؟! أوراقي سليمة، واشتريت البرنامج من بابه من منتجه. احمدي الله أن مسلسلي سيتسبب في رواج برنامجك بدلًا عن حبسه على الإنترنت كقرد في قفص.

- على الأقل كنت تحدثت معي واستأذنتني في تحويل قصة حياتي إلى مسلسل!

- يا مدام! أنت تذيعين قصة حياتك في برنامج، لماذا تعاملين مسلسلي على أنه ابن البطة السوداء؟! انتظري حتى تعرفي أن مدام إلهام شاهين ستقوم بدورك.

- إلهام شاهين؟! لها احترامها طبعًا لكن.. لا سنها لا هيئتها ولا شخصيتها...

- أستغفر الله العظيم. ها أنت تعترضين على السن والشكل!

تدخَّل أسامة أخيرًا وقال لسهير همسًا:

- وهل ستوافق إلهام شاهين أصلًا؟! اصبري!

التفتت سهير نحو أسامة وقالت:

- ومن هذا أيضًا؟

- هذا اكتشافي. نجم الشباب الجديد، والفنان الذي سيقوم بدور لاشين الأول والأخير. الفنان أسامة فريد..

ألتفت أسامة نحوه متسائلًا، فأوضح فريد:

- اسم أسامة الصاوي هذا يصلح اسم طبيب أو دكتور جامعي. ثم إنني اكتشفتك، وسأمنحك اسمي عن طيب خاطر.

هتفت سهير:

- أسامة الصاوي؟! كله إلا هذا. أوافق على إلهام شاهين لا بأس. لكن هذا الشخص فلا!

صاح أسامة مدافعًا عن كرامته:

- لماذا؟! بالطبع لن أرقى لمرتبة المسخ الذي تحبينه ويحبك. هه؟ لن تنسي أبدًا أنني تركتك. أنتِ السبب!

- أنا مَن تركتك! دائمًا ما تفهم كل شيء حسب مزاجك! كنت تظن نفسك بطلًا وتدعي أنك ستنقذني من نفسي، ولم يكن زعمك إلا ذريعة للتحكم في!

وقف مهاب بينهما وقال بهدوء:

- مهلًا يا شباب. يبدو أن هناك مشكلة أكبر من البرنامج والمسلسل.

قال فريد في حنكة:

- إن كنتما تتشاجران، فأنتما لم تنسيا بعضكما البعض أبدًا! هذه ليست صدفة وقد سخرني الله دومًا في الخير.

في خضم النقاش، دخلت من البوابة سيدة قصيرة مكتنزة، ترتدي معطفًا طويلًا وتلمع أظفارها الصناعية الحمراء فتسحب كل التركيز إليها.

- ها قد جاءت الفنانة إلهام شاهين!

عقدت سهير حاجبيهما في غير تصديق، وهتف مهاب:

- أعرف أن الحقيقة قد تختلف عن الشاشات قليلًا، لكن.. معذرة هذه ليست إلهام شاهين!

قال فريد وهو يرحب بها فترمش بأهدابها الكثيفة البلاستيكية في فخر:

- هذه إلهام شاهين الغلابة. الفنانة إلهام شاهين أحمد. الحقيقة لم أر منطقًا في أن أجلب ممثلة قصيرة نحيلة للقيام بدورك يا مدام سهير. هذا أمر غير مقنع للجمهور، فكيف لامرأة على مشارف الخمسين أن تكون نحيلة بهذا الشكل؟ ربما نضيف تفصيلة أخرى بسيطة، سترتدي الفنانة شيئًا على رأسها لتغطي شعرها. الاحتشام ضروري لمن هم في هذا العمر.

كادت سهير تلطم خديها هي تقول:

- أنا سهير زاهر! وهذا شكلي! سأبلغ الشرطة!

- «أعلى ما في خيلك اركبيه». أنا المنتج هنا ولي وجهة نظر ومعالجة إبداعية.

تأبط ذراع أسامة وأشار إلى إلهام الغلابة كي تتبعه إلى داخل الفيلَّا، بينما تستشيط سهير غضبًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دار أسامة بعينيه في أرجاء الفيلَّا وهم جالسون على أريكة خضراء مذهَّبة الأخشاب في المدخل المتهالك. أمامه فريد وعمرو خورشيد؛ المخرج المسرحي الشاب الموهوب الذي اقترحه أسامة كي ينقذ هذا المسلسل. قال فريد وهو ينظر إليه في اشمئزاز:

- أنت إذًا خريج كلية المسرح؟

- معهد الفنون المسرحية يا سيدي.

- أي أنك لا تفهم شيئًا في المسلسلات.

- أخرجت عددًا من الأفلام القصيرة وحزت على جوائز عديدة. أ. أسامة فنان محترم يساعدني دائمًا على خوض تحديات جديدة لأتعلم أكثر.

هز فريد رأسه وهو يرشف الشاي وينادي على الشاب النحيل الواقف عند مدخل الفيلاً، يدور حائرًا وهو يحمل حقيبة ظهر كبيرة.

- ها هو الفنان إسلام عماد قد جاء، كي لا تظن يا أسامة أنني لا أفهم في الفن. تعالَ يا إسلام.. نحن هنا.

هرع الشاب نحوهم وهو يحدق إلى الحوائط التي لم يطلها طلاء منذ عشرات السنوات. قال إسلام:

- مهندس فريد. آسف.. تأخرت. كنت أبحث عن الفيلّا وتبعت خرائط جوجل لكنها قادتني إلى مبنى ملحق السفارة الفرنسية..

تلعثم فريد هُنية ثم تمالك نفسه وقال:

- خرائط «جوجول» لا تفهم شيئًا في الباذنجان الأسود. كنت اسألني. المهم، أقدم لك الفنان العظيم أسامة فريد..

- الصاوي..

- وهذا عمرو خورشيد، لا أعرف فيما سنستخدمه لكن لنرَ.. ها يا فنان.. هل أنهيت ما طلبت منك؟

جلس إسلام على مقعد خشبي جوارهم، وفتح حقيبته ليُخرج حاسوبه المحمول ويفتح صورًا مرسومة بعناية لشخصية من شخصيات الأبطال الخارقين.

- ها هو تصوري عن الشخصية.. أو لنقل تصورك عن الشخصية. لقد طلبت مني تصميم بذلة لاتكس ضيقة، وحرملة، وشوكة شياطين مثل التي يمسكها الشياطين في الأفلام. كذلك سيصلني اليوم طاقم الأسنان الذي طلبته. تنقصني فقط المقاسات كي ننفذ البذلة.

ابتسم فريد في رضا وقال لأسامة:

- هيا يا فنان. قُم كي «نرفع» مقاساتك.

- نرفع؟ هل أنا شقة تحت التشطيب؟ لا تقل أنني سأرتدي هذه الملابس!

- بالطبع سترتديها. هذه رؤيتي الإبداعية لشخصية الساحر لاشين. هذا «سوبر هيرو» مصري صرف، ويجب أن يرتدي بذلة ضيقة وحرملة مثل باقي زملائه الخارقين في أمريكا.

كتم عمرو ضحكته وهو يرى أسامة يقف متصلبًا وإسلام يدور حوله بشريط قياس.

- لا أصدق أنني أفعل هذا.. سأرحل الآن.. هيا يا عمرو.

تملَّص أسامة من بين يدي إسلام وهرع نحو الباب وهو يسب بألفاظ منمقة راقية مثل «أيها الوغد، أو يا لك من لعين مُستغِل». جلس فريد مسترخيًا وأشار لإسلام بالجلوس وهو يقول:

- سيعود. لا تقلق. كل هؤلاء الفنانين «شحاتون» ولو لم يكن في حاجة إلى المال الذي عرضته لما جاء. ما رأيك يا إسلام أن نجعل الحرملة عباءة صوف؟ أجواء عربية كي لا يقولوا أنني لا أفهم في الباذنجان الأسود. وزِد حزام بـ «توكة» تحمل حرف الفاء.

- تقصد اللام؟ لاشين؟

- سبحان الله، وما دخل اللام في الموضوع؟ أنا من سأدفع؛ ضع حرف فاء!

قبل أن يصل أسامة إلى البوابة تعثَّر في شيء فسقط أرضًا. سمع ضحكات فريد الساخرة هو يفرك كوعه المـتألم ويرى ما تعثَّر فيه؛ علبة ورقية ناصعة، فخمة للغاية. مد يده نحوها ليكتشف أنها أثقل من اللازم. فتحها ليجد بداخها ساعة تحمل واجهتها البيضاء رسمًا لنخلة.

أشار أسامة للجلوس وسألهم:

- من منكم فقد هذا الصندوق؟

هرع فريد نحوه في فضول، وتأمل الساعة ثم دسَّها في جيبه وقال مرتبكًا:

- ساعتي.

انصرف أسامة مترنحًا وهو يرى ظل عمرو خلفه يحاول اللحاق به. لا يمكن أن يستمر في هذه المهزلة والأرزاق بيد الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمفاجئته، عرف أسامة أن فاطمة قد أشاعت خبر انضمامه لفريق تمثيل مسلسل منصات عظيم، فتدافع أفراد الأسرة يهنؤونه، بل إن بعضهم تملَّقه كي يُشرك ابنته الصغيرة في أي دور في المسلسل حتى لو دور ستار حمام.

- ستار الحمام مهم جدًّا في أفلام الرعب. يزيحه المرء ليجد خلفه الجثة أو السفاح أو أيًا كان.

يهز أسامة رأسه في شرود وهو يتذكر حماس عصام وزوجته، وأحلامهما عن ولادة مريحة في مستشفى خاص، وتزيين حجرة المستشفى ببالونات زرقاء لامعة –لا بد أنهم قد قررا أن المولود ولد- تحدث عصام مع الجميع عن الـ ـ«بيبي شاور»، أو السبوع الإفرنجي الرائج حاليًا. كل هؤلاء يعلقون آمالهم عليه.. كل هؤلاء كانوا يرونه فاشلًا لا يقدر على تحمل مسئولية أحلامهم.

ماذا عن أحلامه هو؟ هل ينكر النشوة التي شعر بها لكل هذا الاهتمام؟ لكل الطلبات التي تعلَّقت في رقبته كأنه المُنقذ أو البطل الخارق؟

صبرت فاطمة معه سنوات طويلة، وتحملَّت كل مرة ردَّها فيها حين تطلب ثلاجة جديدة أو صالونًا غير الذي أهلكته السنوات. لم تكن محرومة، لكنها تعيش معاناة مستمرة كي يكفي دخله غير المستقر مستلزمات المعيشة.

- أتعرف يا أسامة، سيبارك لك الله لو وجدت عملًا لابنتي مصممة الجرافيك في هذا المسلسل. البنت منذ انفصلت وهي تحتاج إلى مصاريف لها ولابنتها. سيبارك لك الله حقًا يا فنان يا عظيم.

يخرج إلى الشرفة ليتصل بعمرو؛ تلميذه المجتهد ويسأله:

- ماذا سنفعل يا عمرو؟ أنا أحتاج للمال لأجل ابني وزوجته ولأجل زوجتي نفسها التي ما عادت تشتاق إلا إلى الستر والكف عن ملاحقة الجمعيات ودفع الأقساط. وأنت تريد إتمام زواجك المعلَّق منذ خمس سنوات. سارة تستحق بعد كل الصبر على خلافات أهاليكما.

- أنا قررت يا أستاذة أسامة. هل تعرف المثل الشعبي «اربط الحمار مَطرح ما يقولك صاحبه؟» فريد صاحب الحمار، وسنفعل ما يطلب بينما نحاول سرًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من العمل. لن يجدي الجدل المباشر معه. الغاية تبرر الوسيلة يا أستاذي.

- لكن.. ماذا عن إلهام شاهين الغلابة؟ ماذا عن البذلة «الاستريتش» يا عمرو؟!

- لا تقلق. وجدت حساب إسلام هذا على الفيسبوك وسأتحدث معه كي يوسِّع البذلة قليلًا.

- المشكلة ليست مشكلة بذلة.

- بل مشكلة بذلة. إسلام يحمل درجة الماجيستير من كلية الفنون الجميلة، ومتخصص بالفعل في القصص المصورة والأبطال الخارقين. لا بد أنه يحتاج إلى هذا العمل، وفي نفس الوقت يمكننا ضمه لصفنا بسهولة فيضيف للعمل ثقلًا.

هكذا، عاد أسامة صاغرًا إلى الفيلا المهدَّمة، وارتدى بذلة البطل الخارق بعدما استخدموا في حياكتها قماشًا أكثر سُمكًا، لكن لم يستطع الفرار من الأنياب الصناعية الملطخة بالدماء دومًا. ما علاقة الأنياب والدماء بصيد الشياطين؟

صاح عمرو معلنًا بدء تصوير أول مشهد في حديقة الفيلّا الجرداء التي قرر فريد أنها تصلح لأن تكون حديقة ستوديو تسجيل بعد منتصف الليل.

اقترب أسامة من إلهام وأمسك كفيها وهو يقول في هيام مصطنع:

- سأحكي.. لأجلك يا سهير سأحكي. سأحكي قصة حبنا التي شهد عليها البشر والجن والعفاريت والشياطين. سأحارب من أجلك كل أولاد ال..

تلعثم أسامة وأشار إلى عمرو كي يوقِف التصوير.

- أولاد الحرام؟! ما هذا الإسفاف؟ أين فريد؟

جاءت صوت ضربات مطارق من داخل الفيلا تشي بأنه مع العُمَّال بالداخل يجددون شيئًا ما كي يواكب العصر. قال عمرو:

- لا تقلها. لن يلاحظ.

تتالت الضربات ثم دوى صوت شيء يهوي. ضرب عمرو كفًا بكف ودخل يطالب ببعض الهدوء ليستكملوا التصوير. قبل أن يجلس أسامة ليستريح قليلًا من الحكّة التي تسببت فيها البذلة، وجد شيئًا لامعًا على المقعد.

حمله بين أصابعه ليجده خاتمًا ذهبيًا ذا فص أخضر، منقوش برسم نخلتين على جانبي الفص. دس الخاتم في جيبه وهو يفكر في علاقته بالساعة، وعلاقة القطعتين بفريد الذي لم يكن ليهمل ممتلكاته بهذا الشكل فضلًا عن ذوقه الغريب الذي لا يتلاءم مع القطعتين الأنيقتين.

شعر إلهام تنظر من فوق كتفه إلى الخاتم وتُتمتم:

- أرِني هذا الخاتم..

ثم بحثت في حقيبتها الصغيرة للغاية، وأخرجت منديلًا ملفوفًا حول نفسه. لمعة الحرير فيه جذبت نظر أسامة، ثم النخلة الخضراء المُطرزة عند حوافه.

- وجدت هذا في دورة المياه. انظر.. النخلة مثل التي معك.

تساءل أسامة إن كان الخاتم والمنديل ملكًا لفريد، وقد أصابه ولع ما بالنخيل؟ شيء في قلب أسامة أجاب سؤاله العقلي بالنفي. سمعا صوت عمرو يهتف:

- الحائط الشمالي سقط وهم يرممونه كما يدعي فريد. أنا لم أر مع العمال سوى أدوات هدم.. المهم.. لنعد إلى مشهدنا.

جلس عمرو أمام الشاشة الصغيرة التي تعرض ما سجلوه، وقال لأسامة:

- سنعيد المشهد من أول جملة..

عقد عمرو حاجبيه وهو ينظر إلى المشهد على الشاشة. أشار لأسامة بالاقتراب فتبعته إلهام وفريق التصوير. المشهد في الحديقة الجرداء وأسامة يمثِّل، ثم صوت الانهيار الذي تلاه تحوُّل كامل للصورة إلى خلفية حديقة غناء، ورجل وسيم يمسك يدي شابة جميلة ويقول:

- سأحكي.. لأجلك ولأجل ما حدث لنا ومن بعدنا سأحكي..

انتهى الجزء المُسجَّل عند هذا الحد. تبادل الجميع النظرات الحائرة، مالت إلهام تهمس في أذن عمرو الجالس فتناثر لعابها على جانب وجهه وهي تشير بإصبعها نحو الشاشة:

- عِد المشهد الغريب مرة أخرى يا أستاذ.. أجل.. هذه اللقطة.. أرنا الخاتم الذي وجدته يا فنان.. أليس هو نفس الخاتم الذي يرتديه الرجل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمل العمَّال المُجمِد الضخم إلى مطبخ شقة أسامة، ولم يجدوا له مكانًا. قالت فاطمة وهي تدس قبضتيها في خصرها:

- يجب أن نُغيِّر هذه الشقة يا أسامة. لا مكان فيها لأي شيء. ما رأيك يا عصام أن أتصل بأم هناء فهي تعرف سمسارًا...

شرد أسامة وهو يدير الخاتم بين أصابعه وهو جالس في الشرفة. بعد مرور أسبوع على بدء التصوير، وجد عمرو في حقيبته قلمًا من الذهب الخالص يحمل شعار النخلة، أما إسلام فقد عثر على مفتاح عتيق مُزين أيضًا بنقش نخلة.

ثارت ثائرة فريد عندما علم أن التصوير لا يسير كما ينبغي فهدر:

- هذه نتيجة الاستعانة بالفنانين أمثالكم. عن أية عفاريت تتحدثون؟ أين فنانو الزمن الجميل؟ هل تعرفون أن الفنان علاء أبا شقَّة كان يصور خمسة أفلام في الأسبوع؟! سأخصم من أجوركم.. لن أتحمل تكلفة المُعدَّات وحدي وأنتم السبب.

لكن أسامة لاحظ أن فريد شارد أكثر من اللازم، يغيب كثيرًا بالدخل مع عماله دون أن يحدث تجديدًا أو تغييرًا في أي شيء. تحدث إليه على انفراد بشأن

الشبح الذي يظهر أحيانًا في خلفيات المشاهد فقال:

- سبحان الله. هل أخفيت عنك أن المكان مسكون؟ لماذا أخبرتك من الأساس؟ كي تقنعهم أن لا أشباح هنا وأن الذي يظهر في الكاميرا كومبارس أو.. جرافيك! أقنعهم أن هذا العفريت جرافيك.. هيا، لا تُعطلني.

في المساء الذي وجد فيه إسلام المفتاح، كانوا يصورون مشهد اقتحام لاشين لستوديو تسجيل برنامج بعد منتصف الليل، ومواجهة سهير بحقيقتها؛ كونها مستبصرة لديها قدرات خارقة.

ارتدى أسامة البذلة الضيقة والحرملة، ووضع الأسنان الصناعية بين شفتيه، وأمسك الشوكة، وأزادت خبيرة التجميل مدام هياتم ميكَب –من طرف فريد كما هو واضح- لمسات من دماء حول شفتي أسامة، وقطرتين على خديه.

- أليس شيطانًا يا أستاذ أسامة؟ دعني أمارس عملي، أنا خبرة في «البيوتي».

دارت الكاميرات لتصور أسامة وهو يسير في ثقة ببطء، فقد قرر فريد أنه لن يحتاج إلى مونتير محترف، والمشاهد بالحركة البطيئة ستُمثَّل ببطء. قطع أسامة الردهة حتى وصل إلى باب حجرة مغلق مطلي بالأسود، وكأنه باب الستوديو. رفع يديه أمامه وقبل أن يلمسه، جذب العُمَّال الباب من الداخل كي ينفتح من تلقاء نفسه من سِحر لاشين.

قبل أن يدخل أسامة إلى الحجرة المُبطَنة بـ«كراتين» البيض على سبيل ديكور الستوديو، اصطدم بما خُيل إليه أنه حائط شفاف، فسقط إلى الخلف فوق المصور علي أبو فاس. خلال سقطته، رأى رجلًا ذا شارب، يرتدي نظارة دائرية، وشعره مصفف إلى الخلف. لم يُذعَر، وشعر بسلام غريب وهو يسمع الرجل يقول له في هدوء كأنما ينصحه:

- ريشيرشي دو لو كير دي بالميَّ..

ثم ظهر وجه فريد السوقي المكتنز أمامه يصيح:

- خيَّبك الله يا فنان! أنت حتى لم تمس الباب، والآن كسرت الكاميرا التي تساوي أكثر منك أنت وعائلتك!

اعتدل أسامة جالسًا وهو ينظر نحو علي أبو فاس الذي يصرخ ممسكًا ذراعه ويندب ضياع رأس ماله -ذراعه- وقال:

- أنا وعائلتي أشرف منك ومن ألف مثلك. أنت حقير مُستغل ولا أعرف ما الذي جعلني أستمر في هذه المهزلة.

- المال يا فنان.. المال هو ما جعلك تستمر، ولهذا أنت المُستغل الحقير لا أنا..

جمع أسامة أشلاء كرامته، ونظر نحو عمرو الذي أطرق أرضًا. لم يضغط عليه ليبُرر عدم مؤازرته. الحاجة والفقر أصعب مما يتخيل أي شخص على البر.

هرول أسامة خارجًا، وركب سيارته إلى بيته، يفكر في الطريقة التي سيكسر بها قلوب الآملين فيه، فوجد فاطمة قد اشترت المُجمِّد الجديد، وأنفق عصام قرابة عشرة آلاف جنيه في أشياء لم يرغب أسامة في استجوابه بشأنها.

دخلت فاطمة الشرفة وهي تحمل طبقًا به «بيتيفور» وقالت:

- بِر نفسك يا أبا عصام.. كفاك كيك الذرة الذي سيقتلنا خنقًا هذا. ما بك؟ ألن تأتي لتقرأ لي «كتالوج» المُجمِّد؟ عصام نزل مع العمال ولن يعود قبل المساء.

- سآتي يا فاطمة.. وشكرًا.

- البيتي فور الذي كنا نشتريه من عند المخبز أول الشارع صابون غسيل مقارنة بهذا. انظر كيف يذوب كالزبد..

كانت سعيدة، وشعر كأنه طفل مزعج سيوقظ أمه من أجمل حلم إلى الواقع الكئيب الذي ستضطر فيه لتغيير حفاضته وتنظيف قيئه.

هل تستحق فاطمة خيبة أمل كهذه؟ هل سيتحمل هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ابحث في قلب النخلة..

قلَّب إسلام الخاتم بين كفيه وهو يكرر ترجمة ما قاله الشبح ذو النظارة بالفرنسية لأسامة. أشار الأخير للنادل في مقهى عمر الخيام في الزمالك كي يحضر لهما كوبي شاي. أردف إسلام:

- إممم.. تقول إن الرجل هو نفسه من ظهر على شريط التصوير من قبل؟

- هو.. لكنه كان أصغر سنًا ويتحدث العربية..

أمسك إسلام هاتفه المحمول يصور نقش النخلة ليبحث بالصورة على جوجل، فلم يقده البحث إلا إلى مقال يتحدث عن رمزية النخلة في الأديان والمعتقدات القديمة، والصورة في البحث تشبه تلك المنقوشة على الخاتم لكنها ليست هي. صمت أسامة هنيهة ثم قال لإسلام:

- ابحث لي عندك عن فيلا شيكوريل.

قالها أسامة كأي جد تسعيني لا يألف التعامل مع التكنولوجيا. أطاع إسلام، وبمجرد أن ظهرت النتائج سحب أسامة الهاتف من يده، ومرَّر إصبعه على

الشاشة يقرأ توافه الأمور عن الفيلا المسكونة وحكايات أسرة أبي عوف. ضغط أول رابط ليقرأ قصة مقتل الخواجة شيكوريل –وانزعج كثيرًا حين وجد تضاربًا في تحديد اسم القتيل- على يد بعض مما أكرمهم في حياته وائتمنهم على بيته، ثم قصة آل أبي عوف الذين اشتروا الفيلا في الخمسينيات، وشهدوا فيها ظهور رجل أنيق يتحرك في المكان بأريحية دون أن يزعج أحدًا.

ثم كاد أسامة أن يُجَن حين قرأ في بعض المواقع الأخرى خلطًا غريبًا بين مورينو شيكوريل الإيطالي اليهودي، وبين أبنائه الثلاثة سلڤاتور، ويوسف، وسولومون، حتى أن صورة كل واحد منهم ظهرت في أكثر من موقع باسم أي من أربعتهم دون الاكتراث للتدقيق.

نظر إلى إسلام الذي كان يتابع البحث بعينيه وقال:

- لا تشتت نفسك.. الأمر واضح، هناك شبح –يبدو أنه شبح أحد الشيكوريليين- وهو يحاول لفت انتباه أشخاص معينيين –أنا وأنت وعمرو وإلهام- لسبب معين. غالبًا –وحسب الأفلام- يريد الشبح من البشري إتمام مهمة معلقة للشبح قبل وفاته. مثلًا البحث عن قاتله..

- لقد عرفوا القتلة وحُكم عليهم ب..

- إذًا لنفكر، ماذا قد يريد شيكوريل منا؟

حدق أسامة إلى صورة سولومون شيكوريل في أحد المواقع –كان مكتوب تحتها يوسف شيكوريل لكن صورة نعي سولومون بها نفس الصورة- وتأكد أن الشبح هو شبح سولومون القتيل. ماذا يريد من قلب النخلة؟ لا توجد أي نخلة في الحديقة. هل يقصد أمرًا رمزيًا؟ قال إسلام:

- كما كُتِب في المقال، فالنخلة مقدسة عند كل الأديان. عند اليهود هي إحدى النباتات السبع المقدسة عندهم. ثم؟

ظهرت رسالة من عمرو على هاتف إسلام الذي كان في يد أسامة، فأعطاه لصاحبه في وجوم. سأله إسلام:

- ألا زلت غاضبًا من عمرو؟

- لست غاضبًا منه.. أنا فقط أتعجَّب لاستسلامه. هو حتى لم يحاول تغيير الإسفاف الذي يريده فريد. استسلم وأخل بوعده معي لحظة استلم المقدم. مرة أخرى، أنا لا ألومه. لا يمكن أن أجبر الآخرين على السير في الطريق الذي اخترته لنفسي.

قرأ إسلام الرسالة ثم قال باسمًا –وإسلام يبتسم ويتحمس طول الوقت- وهتف:

- عمرو يخبرني أنه التقى الشبح منذ قليل.

- وهل قال له شيئًا؟

- لم يتكلم، لكنه كان يقف وسط قاعة الفيلا ويشير في غضب إلى الديكور المكوَّن من القش والجبس، فيتطاير في كل صوب كأنه قد انفجر دون صوت. حين لاحظ الشبح وجود عمرو التفت نحوه وأشار إلى قلبه، ثم إلى قلب عمرو واختفى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طريقه إلى المنزل، عرَّج أسامة على المكتبة الشهيرة قرب المقهى ليشتري الرواية التي ذُكِرت في إحدى المواقع عن جريمة مقتل شيكوريل؛ رواية سيدة الزمالك للكاتب أشرف العشماوي ([14]). لم يكن يملك رفاهية شراء الكتب، لكن تضارب المعلومات وقلّتها دفعاه لاقتناء ما يمكن اعتباره المصدر الكامل للجريمة حسب آراء القراء، وحسب مناقشات الكاتب الذي بحث كثيرًا حتى وثّق هذا العصر والجريمة الشنعاء التي وقعت فيه.

جلس يقرأ في سيارته حتى وصل إلى الفقرة التي يُذكَر فيها «قلب النخلة» لأول مرة. هذا هو اسم فيلّا شيكوريل في الماضي. إذًا مفتاح اللغز في الفيلّا نفسه، في قلبها. أما شعار النخلة فهو رمز اتخذه شيكوريل لشركته ولم يتوصَّل أسامة لمعنى له سوى ما ذُكر على شبكة الإنترنت؛ النخلة ترمز للسلام والخير والحياة الأبدية.

بعدما عاد أسامة إلى بيته متظاهرًا بالإرهاق بعد يوم حافل من التصوير، وجد فاطمة قد ارتدت ثياب الخروج و..

- لنذهب إلى كارفور لشراء بعض الأغراض! يقولون أن المكان جميل وبه تنوعات أكثر من المتجر العادي أول الشارع. يجب أن نرتاد هذه الأماكن من الآن فصاعدًا يا أسامة. أنت لم تعد مجهولًا.

رفع أسامة حاجبيه دهشة؛ منذ متى والتسوق من متجر مثل كارفور دليل على المكانة الاجتماعية؟ قال لها:

- ألن تنتظري حتى يُذاع المسلسل؟ كانت أمي تقول لمن يسبق الأحداث: «قبل ما تحمَل جابت الكمون، وقبل ما تولد سمِّته مأمون».

- لقد ارتحنا منها.. أقصد، ارتاحت.. رحمة الله عليها. المهم، هيا بنا لنذهب الآن قبل أن تنال الشهرة التي تعجزك عن الذهاب إلى أي مكان!

نزلت فاطمة تنتظره في السيارة حتى يغيِّر ملابسه، ثم نزل ليجدها متجهمة، تصرخ فيه:

- كنت أعرف أنك ممن قد شبعوا من بعد جوع.

- ما هذا الكلام؟! هل جُننتِ؟

- طيلة اليوم في الزمالك وسط الهوانم الجميلات، محاط بالمعجبات والممثلات. والآن تبحث عن زوجة أخرى.. طبعًا، لم تعد فاطمة تليق بك. وأنا التي أسأل نفسي عن سر شرودك وابتعادك عنا. أنت حتى لم تمس البيتيفور.. تريد أن تنحف وتستعيد شبابك، هه؟

فطن أسامة إلى أن سبب كل هذه الثورة ما تمسكه في يدها، رواية سيدة الزمالك التي تظهر على غلافها صورة امرأة جميلة تنظر إلى الكاميرا في دلال. ضحك حتى كاد يفقد الوعي. ضحك كمدًا وهمًا وحيرة.

- هل تغارين من رواية؟

- منذ متى وأنت تقرأ الروايات؟ لا بد أن التي على الغلاف أعجبتك وذكَّرتك بالممثلات وفتيات الزمالك. من غد سأرافقك إلى التصوير.

- فاطمة؟!

- ولا كلمة. لو رِفضت سأعتبر أن شكي في محله، ولتذهب إلى أبي لتفسر له انحرافك على كبر.

- فاطمة! ليس هناك تصوير.. ولن يكون هناك تصوير من الأساس. انتهى الأمر إلى الأبد. اصعدي إلى البيت.. الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعتَّد أسامة أن يهجر بيته أبدًا، لكنه صار متحسسًا كجلد محترق. جلس في المقهى البلدي قرب بيته حتى الواحدة مساءً حتى رأى عصام يهرع نحوه من أول الشارع.

- أبي.. ماذا حدث لكل هذا؟ تجلس في الشارع كل هذا الوقت؟

جلس عصام يلهث، وصمت الرجلان دقائق حتى قال عصام شاردًا في حذائه:

- أنت لست سعيدًا؟ أليس كذلك؟

لم يُجب أسامة؛ هو لا يعرف حقًا تعريفًا للسعادة، لكنه بالتأكيد راضٍ. أردف عصام:

- أنا السبب.. لو لم أكن ابن أخيك رحمه الله ما تزوجت أمي.

- عصام..

- ولا ذنب لك في هذا. أردت أن تنقذني من مصير مُتخيَّل مع زوج أم يذيقني ألوان العذاب، وأن تنقذ أمي من مرارة الوحدة والبحث عن شريك يقبل بوجود طفل. كانت صغيرة، وكنت أنت أصغر. رأيت لك صورة تخرجك من معهد الفنون المسرحية قبل شهرين من وفاة أبي. أتعرف؟ كنت وسيمًا حقًا.

ابتسم عصام والدموع في عينيه، فربَّت أسامة على كتفه.

- أنا من الأطفال القلائل الذين شهدوا أيام سعادة آبائهم قبل أن يصيروا آباءهم. ورأيتك تذوي كذلك يا أبي.. رأيت الحمل على كتفيك ينهش من أحلامك. كنت أراك تأكل بشراهة كي تتخلص من وجه الشاب الوسيم الذي يلومك في المرآة كل يوم على تخلصك من أحلامه.

- بُني.. كل البشر مثلي. أناني من يفكر في أحلامه رغم حاجات الآخرين. لكنني تمسكت بحلمي، ومثَّلت. لم يحدث لي سوى ما حدث لأي أب آخر.

- لم تسعَ قط للخروج من دائرة المسرح. خشيت أن تقصر معنا وتنشغل عنا.

- كت أريد العيش في سلام يا عصام. هذا هو أملي في الحياة. حياة خاملة سالمة..

- ليست سالمة، بل مستسلمة. منذ اخترت الزواج من أمي ورعايتي وحرمان نفسك من الحب والإنجاب وأنت تستسلم ولا تُضحي. أمي سيدة طيبة، لكنكما لا تفعلان أي شيء معًا. لستما تعيسين، إنما مستسلمان. «عيشة وخلاص».. هل تفهمني؟

هز أسامة رأسه كأنه هو الابن وعصام أبوه. أردف عصام:

- أحبك يا أسامة.. يا من كنت صديقي الوحيد، وأبي الشاب المتفهم، وعمي الذي أنقذ بيتي.. أحبك ولم أجد فرصة ولا سببًا لقول هذا إلا اليوم وأنا أراك مثقلًا بالديون لأجلنا، وتترك عملك ولا تخبرنا كي لا تزيد همنا. حمايتك لي جعلتني أعتمد عليك، مثلما يعتمد الناس في الأفلام الأمريكية على البطل الطائر كي ينقذهم. لكن هذا هو الواقع يا أبي.. من لا يساعد نفسه لا يستحق المساعدة. هيا قُم معي نعد إلى البيت، غدًا سأعود إلى بيتي ولتجلس أنت وأمي وتحكي لها كل ما تشعر به، وتسمع منها كل ما خشيت أن تحكيه لك من قبل كي لا تتخلى عنا أو تتزوج مرة أخرى. لكل حكاية وجهان، وبطلان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ أسامة في العاشرة صباحًا ليجد رسالة من فاطمة على هاتفه تخبره فيها أنها طبخت له الغداء وذهبت إلى أبيها، وأن أي كلام معها سيكون في وجوده.

زفر أسامة للتصرف المُبالغ فيه، ثم تذكر ما قال عصام أمس؛ لكل حكاية وجهان وبطلان. تناول الإفطار مع زوجة عصام ثم نزل ليوصلها إلى شقتها، في طريق العودة اتصل به إسلام يهتف سعادةً:

- يا أستاذ أسامة! الفيلا التي نصور فيها المسلسل ليست فيلا شيكوريل أصلًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف أسامة وإسلام أمام الفيلا المهجورة في شارع سيريلانكا، ينظران إليها في شك.

- هل أنت متأكد؟

- ألا تذكر أن خرائط جوجل جاءت بي إلى هنا أول مرة؟ هذه فيلا شيكوريل وعزت أبو عوف. لا يسكنها أحد لكن يقال أنها تابعة للسفارة الفرنسية تقريبًا. لا تجد معلومات عن أي شيء على الإنترنت.

- فعلًا. بالأمس قرأت عن هدم فيلا شيكوريل في الزمالك، ثم تبيَن لي أنها فيلا الإسكندرية. الأمر يثير حنقي.

قال إسلام باسمًا:

- لا داعي للحنق. دعنا نتحر الأمر على طريقة القصص القديمة، بلا إنترنت. سألت في الكشك وقيل لي أنها فيلا أبو عوف فعلًا.

- السؤال.. لماذا ادعى فريد أن الفيلا التي نصور فيها هي فيلا شيكوريل؟

- سؤال وجيه. هي معلومة ما كنت لأخبر بها أحدًا لو كنت مكانه.

- زعم أنه أخبرني بذلك كي أنفي كل شيء قد يراه العاملون حتى يُنهي التصوير. ربما سيستغل الموضوع ليروج لمسلسله لاحقًا.. الرجل غريب أصلًا، لا أجد له دورًا في الأمر سوى أنه ورطنا في هذا.

نظر أسامة إلى الخاتم حول إصبعه، ثم إلى المفتاح الذي علقه إسلام في سلسلة مفاتيحه. خاتم ومنديل ومفتاح وقلم.. وساعة مع فريد. هل لهذه الأغراض معنى؟

قال إسلام وأسامة يتأبط ذراعه ويسيران جوار سور الفيلا:

- ظهر شيكوريل في مشهد تمثيلي يرتدي هذا الخاتم، ولم يظهر معه أي من الحاجيات لأخرى. هل لهذا معنى؟

- لا أعرف يا بُني. أرى أن نترك كل شيء كما هو. كيف سنساعد الخواجة ونحن لا نعرف أي شيء عما يريد؟

- ابحث في قلب النخلة.. وهذه الفيلا هي قلب النخلة.

- وهل تريد أن نقتحم فيلا تابعة للسفارة؟ هل جُننت؟

- بالطبع لا.. لكن الفيلا الأخرى ليست تابعة لأحد، ودخولنا إليها منطقي.

نظر أسامة إليه متسائلًا، فأضاف إسلام:

- الفيلا التي يصورون فيها ملاصقة تمامًا لفيلا شيكوريل من جهة الشمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس أسامة على الأريكة في ردهة الفيلا، يحتسي الشاي مع فريد، ويجلس بينهما إسلام وإلهام.

- الصلح خير يا فنان أنتما فنانان ولا يصح أن يدخل الشيطان بينكما.

قالتها إلهام وقد بدت جميلة نوعًا بعدما أزالت الأصباغ عن وجهها وأظهرت شعرها المجعد البني الطبيعي. قال فريد وهو ينظر إلى الجهة الأخرى:

- تشتمني في بيتي ثم تعتذر؟ عمومًا اتصلت بالفنان محمود حميدة. فنان من زمن الفن الجميل يعرف عمله جيدًا. كفاني عَطَلة بسبب أولئك الذين لا يفهمون شيئًا في الباذنجان الأسود.

احمر وجه أسامة وكاد ينصرف، لكن إسلام قبض على كفه ووكزه مُذكِّرًا بالاتفاق وهو يقول:

- مع احترامنا للفنان الكبير، لكن لي وجهة نظر من واقع خبرتي في مجال قصص الأبطال الخارقين. المشاهد يتوحَّد مع الشخصية أكثر إن لم يكن يعرف الممثل الذي يقوم بها جيدًا. الأدوار الجيدة التي قام بها المشاهير من قبل تتداخل في عقل المشاهد، فيشعر أحيانًا أن من أمامه على الشاشة ليس لاشين، بل محمود حميدة أو دورًا سابقًا له.

تحدث إسلام كثيرًا عن تكلفة إعادة التصوير وتنفيذ ملابس أخرى، فقبل فريد وهو يتصنَّع الرفض.

- سأمنحك فرصة واحدة أخرى. صوِّر كل مشاهدك ولا تُرني وجهك مرة أخرى. لقد نحست «اللوكيشَم».

ويقصد بالكلمة الأخيرة «اللوكيشن»، أو مكان التصوير. بمجرد أن رحل فريد وذهب إسلام يبحث عن عمرو، اقتربت إلهام من أسامة وقالت دون أن تنظر إليه:

- استسلمت؟

- ماذا تعنين؟

- هل تعرف أنني كنت أمثل في فريق الجامعة؟ كرمتني وزارة الثقافة مرتين، وفزت بجائزة أخرى خارج مصر.. لكن ما قيمة كل هذا وأنا عاجزة عن الخروج من قالب الفقيرة ممتلئة القوام التي قد تبيع أي شيء مقابل فرصة؟ بالطبع تعرف أي شيء يلفت المنتجين إليَّ. رميت جوائزي في صندوق القمامة ومثلت على شاشات التيك توك والأفلام الهابطة التي لا يشاهدها أحد سوى الراغبين في مشاهدة نسخة شعبية عن نجمة قديمة. تعرف هذه الأمور، وأعرفها.. لا أقول أنني خُدِعت. ثم جاء فريد وطلب مني المشاركة في مسلسل رعب.. محتشم.

ضحكت إلهام في مرارة، ثم أكملت:

- لا أصدق أنني تشوهت إلى الدرجة التي جعلت كلمة «محتشم» هذه كأنها طوق النجاة. لا أكاد أعرف نفسي يا أستاذ أسامة، لكنني ضعت وانتهى الأمر. أنت رجل محترم، لا تدع أمثال فريد يشوهوك.

ظل فم أسامة مفتوحًا حتى بعدما رحلت إلهام. الأمور لا تبدو كما ظن، ولكل حكاية أبطال لا يُدرِك أحد أدوارهم. اتصل أسامة بفاطمة للمرة العاشرة فلم ترد، ثم تلقى اتصالاً من والدها.

- أقول لك يا أسامة، بنات الناس لسن لعبة. لقد وثقنا فيك كما وثقنا في إسماعيل رحمة الله عليه، لكنك بِعت ابنتنا عند أول طريق الشهرة...

- أي شهرة وأي بيع؟ دعني أتحدث إليها.

- ستخدعها مثلما خدعتها طيلة حياتك. لن أدعها تعود لك وتتورط في أقساط المُجمِّد وولادة زوجة عصام. أنت من عشمتها وهي لم تر منك راحة منذ تزوجتما.

- كل هذا لأجل رواية؟!

- بل لأجل حياة تحمَّلتها حتى فاض بها الكيل.

أغلق الحاجّ مرشدي الخط. جلس أسامة وسط أطلال الفيلا –التي ليست فيلا شيكوريل- ينصت إلى صوت ضربات عُمال فريد على الحوائط السميكة الصلبة. متى كانت حياته كلها وهمًا؟ متى انغمس في بطولتها حتى صارت كل الشخصيات كومبارس؟

عاد إسلام برفقة عمرو، وجلسا أمام أسامة. قال عمرو:

- إذًا أنتم تخططون للمبيت هنا، والتسلل إلى الفيلا في الخلف بعد رحيل فريد؟

- أنا لم أخطط لشيء ولدي ما يكفيني. إسلام هو الذي تمسَّك بحل القضية الروائية هذه.

قال إسلام متحمسًا:

- أليست الروايات مخرجًا مؤقتًا من الحياة؟! اسمعوا، لن نتمكَّن جميعًا من الاستمرار في هذا المسلسل المشوَّة، وعمرو عجز عن التلاعب بفريد وفرض وجهة نظره عليه. كلنا نحتاج إلى المال دون أن نتورط في هذا الإسفاف، ولو تركنا العمل لن نستطيع دفع الشرط الجزائي. ما الحل سوى الخلاص من المسلسل بالكامل؟ في نفس الوقت، الخواجة شيكوريل يرفض أن يدعنا وشأننا، ويحاول التواصل معنا. أخبراني إن كنتما قادرين على الحياة دون أن يُروى فضولكما! هذا ما يحدث في الروايات! الفضول محرك لا يُستهان به للأحداث.

تذكر أسامة مئات الأفلام التي شاهدها عن المنازل المسكونة، والتي يرفض ساكنوها تركها في الوقت المناسب. ما سر الرفض؟ الفضول؟ الأمل؟ الخوف من الخسارة؟ اللوم على قرار شراء البيت؟

أليس هذه هي الأسباب التي تحيط بهم رغم الظروف الطاحنة؟

هتف إسلام:

- ثمة شيء آخر.. الفريق. شيكوريل منحنا قطعًا من أحجية، إذًا فهو يريد منا أن نكون فريقًا. أنا وأنتما وإلهام. لكن.. هل سنحتاج إلى الساعة مع فريد؟

قال عمرو:

-يمكنني محاولة الحصول عليها. هو يثق في الآن، وسأطلب استعارتها منه لمشهد. المفترض أنني لا أعرف أن لها قيمة معينة، وهو يرتديها طيلة الوقت ويشكو من أنها معطلة.

- ممتاز يا عمرو. لنُنه الأمر الليلة، وسأخبر إلهام. المهم أن يبدو كل شيء طبيعيًّا اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتصلت فاطمة بأسامة في الساعة الحادية عشرة ليلًا، تطلب منه أن يرسل لها مصاغها من شقتهما وتحذره من أن يتصرف فيه كي يدفع الشرط الجزائي.

- هذا ما ورطنا فيه التمثيل.

- عندما أعود سأرسل لك ما تريدين، لكن دعينا نتحدث أولًا.

- تعود؟ آه.. ها أنت تدور «على حل شعرك» بعدما تركت لك البيت. قطعًا أنت مع سيدة الزمالك. حسبي الله ونعم الوكيل فيما يفعله الرجال ببنات الناس! قسمًا بالله لأفضحك أمامها!

أغلقت الخط، فزفر أسامة وهو يتابع فريد يجمع حاجياته ليستعد للرحيل. لاحظ أن الساعة ليست حول معصمه.

- غدًا بإذن الله نصوِّر مشهد عهد الدجالين، سأحضر ماعزًا أسود لأداء دور الشيطان ذي الرمح، وفي نفس الوقت سأربطه في الحديقة يأكل من خشاش الأرض حتى أذبحه في آخر يوم تصوير وأقيم على شرف لحمه حفلًا لكم. وسأحضر نافورة الجبن من المطعم طبعًا. هذه أشياء تبهر الصحافيين.

رحل فريد وهم يحكم غلق سترته الحمراء المنفوخة حول صدره. اقترب إسلام من عمرو وسأله:

- أين الساعة؟

- معطَّلة. هي معي عمومًا. ماذا سنفعل؟

- دعنا نفحص الأماكن التي تهدم فيها الجدار جهة فيلا شيكوريل، ربما نجد مدخلًا أو نحفر نفقًا؟

- هذا جنون. الغرف التي تهدمت مغلقة والمفاتيح مع فريد. هل نجرب الحديقة الخلفية مثلًا؟ هي عبارة عن دغل حرفيًا، نباتات جافة وقمامة وحيوانات ضالة.

هز إسلام رأسه وهو يفكر، فقاطعه أسامة وقد كان يغلي حنقًا من مكالمة زوجته وهزليتها:

- لندخل من أي مصيبة. هيا إلى الحديقة الخلفية.

قال عمرو:

- اذهبوا وإلهام ستذهب معكم، سأظل أنا هنا لأراقب الأجواء وأشغِل العاملين عن ملاحظة أي شيء.

قابلا إلهام عند غرفة تغيير الملابس، لكنها كانت بعد في زي سهير زاهر المكون من تنورة واسعة وقميص طويل وغطاء رأس «بُونيه»، فبدت أقرب لمدام عفاف موظفة الشهر العقاري منها لسهير المستبصرة.

دخل الثلاثة المطبخ المُطل على الحديقة الخلفية بعدما حمل إسلام سلمًا خشبيًا لزوم التسلل عبر السور، وانطلقوا إلى الدغل الصغير الذي يؤدي إلى سور فيلا شيكوريل الحديدي الذي يفصل الحديقتين الخلفيتين عن بعضهما. نظر أسامة إلى يساره فرأى الفيلتين مقترنتين عند الجدار الشمالي بالفعل، وبدا له أن مَن بنى الفيلا الثانية ألصقها عمدًا بالأولى بعد فترة من بنائها. قال إسلام:

- نظرًا لطراز المبنيين، الفيلا التي نصور فيها أحدث بكثير. ربما من مباني الثمانينات. لا يمكن لأحد أن يرى الجدار الملاصق إلا من حيث نقف نحن. لو وقفنا في حديقة فيلا شيكوريل الخلفية لن نرى شيئًا.

قال أسامة:

- لطالما كانت الفيلا وصاحبها مطمعًا. ذكر الكاتب أشرف العشماوي في الرواية أن قتلة سولومون كانوا يؤمنون بوجود كنز مدفون في الفيلا. لم يجدوه وقتها بالطبع، ولا أعرف إن كانت باقي المعلومات في الرواية عن عثور أحد القتلة على الكنز لاحقًا بعد القبض على باقي العصابة وفراره من خيال المؤلف أم لا. لم أكمل الرواية على أية حال.

قالت إلهام أخيرًا بعدما أنهت قراءة ما تيسر من القرآن في سرها:

- يبدو أن هناك من يؤمن مثل المجرم هذا أن هناك المزيد في الفيلا. كنز شيكوريل أو مقتنيات عائلة أبو عوف أو أي شيء آخر. أفهم سر قلق الخواجة في «تربته». أتمنى ألا نكون قد أثرنا حنقه بتسللنا هذا.

فرد إسلام السلم وصعد على درجاته وعبر السور حيث أبصر مقعدًا صغيرًا، وضعه جوار السلم من الجهة الأخرى كي تنزل عليه إلهام وأسامة.

عبرت إلهام بصعوبة بالغة، ثم هبطت على المقعد المتهالك فانكسر. في شجاعة قامت واقفة تعتذر وتحاملت على نفسها فابتعد قليلًا كي تختفي عن أعين الرجلين خجلًا من وزنها الزائد، وجلست أرضًا تمسح الدماء عن ركبتها بما وجدته في حقيبته في هذا الظلام الدامس. حدق إليها أسامة لحظات بدافع أبوة بحته. طفلة صغيرة بدينة تخشى سخرية رفاقها في اللعب.

صعد أسامة السلم، ثم عبر السور وقفز، إلا أن الطرف الحاد مزق سرواله من الجانب تمامًا فبدا في النهاية كبذلة رقص. ضحك إسلام –عن حماس لا سخرية- ووضع حقيبة ظهره على الأرض وفتحها وهو يقول:

- كنت تسخر من البذلات المطاطية، هه؟ لهذا السبب يرتديها الأبطال الخارقون، كي لا تتمزق بسهولة، والحرملة تخفي التمزق لو حدث! بعد

دراسة متعمقة توصلت إلى حتمية هذا التفسير. تفضَّل. اعتبرني مساعد البطل.

مد إسلام يده لأسامة بالبذلة المطاطية خفيفة القماش التي رفض ارتداءها في البداية فصنعوا له بديلًا أثقل. اتسعت عينا أسامة، فقالت إلهام همسًا:

- بسرعة.. يبدو أن أحدًا بالداخل.

هتف أسامة:

- لحظة. لا تنظري خلفك.

فرد إسلام الحرملة ووقف أسامة خلفها يبدل ملابسه وهو يسب ويلعن، لكن شيئًا بداخله كان مستمتعًا. بذرة صغيرة خضراء نسيها في نفسه يومًا، والآن ترويها ثقة شبح، وحماس الرفاق.

تحاشت إلهام النظر إلى أسامة الذي لف جسده بالحرملة في حرج، وسار خلف إسلام دس مفتاحه في باب مطبخ فيلا شيكوريل، فانفتح.

- الأغراض معنا لها مهام محددة! ألم أقل لكما أن الحياة لا تختلف عن القصص المصورة في شيء؟!

أشار لهما أسامة أن يلزما الصمت، تقدمهما إلى الداخل حيث ضوء باهت عند نهاية الممر. صوت خافت يهمس من بعيد ما بدا لآذانهما كخليط من حرف الشين والميم والواو... مشمشوومشمششش..

أنار إسلام شاشة هاتفه ليرى على ضوئها الخافت المطبخ المترب الخالي من أي شيء. حوائط من القيشاني وحوض غسيل كبير فقط. ثمة أكياس سوداء تفوح منها رائحة نتنة، وأخرى تحمل علامة أحد مطاعم الفول الشعبية في الزمالك.

أشار إسلام إلى الغبار على الأرض، فرأى أسامة آثار أحذية تسير في أرجاء المطبخ، وتمتد إلى الممر.

مشمشموشمشمشووو..

همست إلهام:

- تُرى مَن بالخارج؟

أجاب أسامة:

- ربما هو أحد عمال فريد المتسللين. آثارهم تغني عن السؤال. يبحثن عن الكنز بالتأكيد ولن أتعجب إن كان فريد نفسه بالخارج والصوت ما هو إلا أغنية

مريبة أخرى لسعيد أنتريه.

- سعيد مَن؟

- لا تعبأي.. لنقترب بحرص. أغلق شاشة هاتفك يا إسلام. سأتقدمكم، وإن حدثت أي تعقيدات، اهربا. مفهوم؟

قال إسلام:

- لا تنس أننا فريق، وإن هربنا فلن نفعل إلا لجلب المساعدة. يبدو أنك لا تتابع الأفلام والقصص المصورة.

سار الثلاثة في الممر العريض ذي المرآة الضخمة التي تمتد عن يمينهم. صوت حركة الأكياس خلفهم ينبئ بوجود فئران.

هناك شخصان بالخارج، واحد قصير يحمل كشافًا، ومن خلفه آخر لا يظهر في المشهد. صوت الميم والشين والواو، ثم..

- ياختاااي! فار!

صرخت إلهام ولمح أسامة وإسلام شيئًا يجري إلى نهاية الممر بعدما صدم ساقها. صاح صوت نسائي آخر:

- مشموش! لا أعرف سر حبك للقمامة!

قال الرجل معها:

- هو قط طبيعي قبل كل شيء. انظري يا أستاذة..

حدقت سهير إلى وجه أسامة المندهش، ثم نزلت عينيها ببطء إلى أسفل لترى الرداء الضيق الذي يبرز بطنه الضخم. ضم أسامة الحرملة حول جسده سريعًا وباغتها قائلًا:

- ماذا تفعلين هنا؟!

- أمارس عملي. أتحرى الماورائيات.. وأنت؟ تحضر حفلًا تنكريًّا في حضانة أطفال؟ أم هو افتتاح محل وستغير زي سوبرمان هذا إلى سبونج بوب في الفقرة التالية؟

- لا أسمح لك! هذا زي عملي.. أقصد، زي الشخصية.

- أي شخصية؟

قالت إلهام مدافعة عن أسامة:

- زي شخصية لاشين طبعًا. لا تظنيه يعبث هنا. هو بطل المسلسل.

ضحكت سهير حتى كادت تختنق، ضحكة قاسية تدفعها أعوام من غضبها عليه. قالت من بين أنفاسها المتهدجة:

- وكنت تقول أنني أنا الحمقاء فارغة العقل؟!

- لا أسمح لك..

- اسمح أو لا تسمح.. أنا لي برنامجي المحترم، وأنت تتبع منتجًا هزليًا سعيًا وراء المال. فكر في الأمر دون انحيازات يا أسامة. أنت عدو ما لا تفهمه.

ارتبك أسامة هنيهة وهو يتذكر العبارة التي قالتها.. هل قالتها من قبل فراقهما؟ كلا.. أين سمعها إذًا؟

صاح إسلام وهو يشير إلى حجرة جوار السلم الدائري:

- هناك.. رأيت الشبح هناك!

قال مهاب –مرافق سهير- في حيرة:

- بل هو في حجرة العشاء المفتوحة.

قالت إلهام:

- بسم الله الرحمن الرحيم، أراه عند قمة السلم.

رفعت سهير كفيها أمامها وقالت في تعقل:

- لحظة يا شباب.. يجب أن تفهموا أولًا طبيعة الأشباح كي لا تُضللكم. لذا أقترح أن تعودوا إلى حيث جئتم. الأشباح ليست للهواة.

قال أسامة وهو يقترب منا غضبًا:

- هواة؟ وهل صارت علوم الدجل علومًا يستثنى من ممارستها غير المختصين؟

- ليست دجلًا، وهي علوم نظرية لا تطبيقية. لا يمكن أن نجبر شبح على سكنى بيت كي ندرسه، نحن مضطرون لتتبع الأشباح أينما ظهرت. لا يمكن دراسة الأشباح في معمل.. لماذا أشرح لك من الأساس؟

قالتها سهير ثم أشارت لمهاب كي يتبعها نحو شبح حجرة العشاء وهي تنظر عبر كاميرا هاتفها المحمول.

- هذا هو الشبح الحقيقي يا مهاب. لنَر ماذا يريد.

تبعهما إسلام وهو ينظر عبر كاميرا سهير ويقول:

- أستاذ أسامة، سولومون يتحدث هنا. أسمعه..

- وأنا أيضًا سمعته بدون كاميرات. لا نحتاج لمرافقتهم. هيا... لحظة، ما الذي أتى بك إلى هنا يا سهير؟ أعني كيف عرفتِ أن هناك أمورًا غريبة تحدث هنا؟

أشارت سهير إلى نظارتها الطبية المستديرة، فأدرك أسامة ومن معه أنها ترتدي نظارة سولومون شيكوريل لا نظارتها.

- وجدتها في جيب سترتي في المرة الثانية التي أتيت فيها إلى البيت. بعد مقابلتنا الأولى، جئت بصحبة المحامي لنرى حلًا مع فريد، وقادنا أحد العمال إلى حيث كان يجلس مع شخص آخر. كانا جالسين في حجرة خلفية مهدمة الجدران، وحين رأيانا خرجا يتشاجران.

قالت إلهام:

- لم تكن موجودًا في هذا اليوم يا أستاذ أسامة. سمعت بما حدث ولم أحضره أنا أيضًا.

أكملت سهير:

- هددت وتوعَّدت، وطلب مني المحامي أن أغادر وسيتصرف هو. وأنا في طريقي إلى سيارتي جاءني الشاب الذي كان معه في الحجرة وسألني إن كنت سهير الحقيقية، وطلب مني أن أرى بعض التسجيلات التي ظهر فيها الشبح، وطلب مني أن أبحث في الأمر. ثم وجدت النظارة في جيبي بعدما عدت إلى المنزل. فكرت في ارتدائها هنا لعل الشبح يتواصل معي، وقد فعل.

هز أسامة رأسه في شرود وسألها:

- وكيف دخلتِ؟

- كنت «طفاشة» ([15]) إن كنت تعرفها، كما أفعل مع أي بيت مسكون أريد دخوله، لكنني وجدت باب المنزل مواربًا.

سارت المجموعة خلف سولومون شيكوريل الذي وقف في منتصف الحجرة الخالية إلا من منضدة طويلة في المنتصف. قال في حزن:

- يقولون أن الشبح هو من فقد فرصة التغيير. أليس كذلك؟ عاش أبي، وعشت من بعده نحفر في الصخر. نجمع المال من إبداعنا حرفيًا. من قال أن الأثرياء لم يتعبوا؟ من قال أنهم لا يميلون للبسطاء لأنهم يذكرونهم بأنفسهم، وبمن مد إليهم يد المساعدة في الماضي؟

قال أسامة:

- قرأت أنك كنت تعرف أن بعض العاملين لديك يسرقون أشياءً من بيتك، وتغافلت.

- حدث هذا. كيف أنكر أن بيتي وما فيه يستفز مشاعر بعض ضعاف النفوس؟ كنت أقول لنفسي: سولومون.. أنت كنخلة، يأخذ منها الرائح والغادي ما يشاء ولا ينقص هذا منها شيئًا. كيف سأعاقب خادمة أخذت بعض الطعام، أو سائق استولى على إبريق فضي أو استغل السيارة في مشاوير خاصة؟ هذه تفاهات، وكنت أتغافل.. أقول لنفسي أن هذا حقهم من الدنيا.

سأله أسامة:

- لكنك كنت تخبئ كنوزًا في أماكن متفرقة، أليس كذلك؟

- أنا أتغافل، لكني لست مغفلًا. أعرف ضعاف النفوس والطامعين والمخادعين. لن أترك ما تعبت لأجله يذهب هباء. من أين ستعيش ابنتي من بعدي؟ هذا إرثها. على أية حال، ما سرقه اللصوص الذين قتلوني وما سرقه من جاء بعدهم ليس كل ما أملك. قلب النخلة رغم خوائه، لا ينضب.

سأل إسلام:

- هل تعني أن هناك كنوزًا أخرى في البيت؟

- في البيت، وفي غيره. ليست الكنوز كلها أموالًا وذهبًا وألماسًا. لا تنسَ يا فنان أنني مثلك، فنان أبًا عن جد. يود البعض أن يفرق بين النجاح المادي وبين الفن، وكأنهم ضدان لا يجتمعان، لكن عائلة شيكوريل حازت الاثنين، واستكثرهما عليها الجميع. قتلوني بإحدى عشر طعنة، كل طعنة اخترقت جسدي مع ذكريات لا تنتهي مع مَن طعنني. ثم.. أين شركة شيكوريل الآن؟ أين الفن؟ أين الجمال؟!

علا صوته أكثر وازداد غضبه. أشارت لهم سهير بالصمت، ثم قالت بهدوء:

- سيد سولومون.. أنا سهير زاهر، مستبصرة..

- أعرف.. وإلا لماذا اخترت لك النظارة؟ واخترت له خاتمي، رمز التميز والتفرُّد، واخترت لها المنديل الأبيض كي لا تنسى نقاء موهبتها، واخترت لهذا الشاب المفتاح الذي هو أداة بين أصابعه لفتح أبواب الإبداع..

غمغمت إلهام:

- واخترت لعمرو القلم لأنه.. مخرج مثلًا؟

أجاب في شرود وكأنه يلقي بيتًا من الشعر:

- القلم قلم، والقلم سكين.. كنت أريدك يا سيد أسامة أن تحوز الساعة التي ليست ساعة، بل بوصلة كنت أستخدمها لتحديد موضع كنوزي بدقة، وكنت سأورثها لابنتي. البوصلة التي قد تساعدك في معرفة مكان الكنز يا أسامة..

أطلق القط الأبيض مواءً أرجف الشبح، ثم انطلق يعدو فجأة خارجًا من القاعة. تبعته سهير وهي تهتف:

- مشموش قط خارق. لا بد أنه رأى شيئًا.

قال أسامة:

- خارق، أجل. من يعبث في قمامة نتنة كهذه لهو خارق بالفعل.

توقف القط عند باب حائط، وظل ينبش فيه بينما صوت شجار يتعالى من خلفه، لكنَّ أحدًا لم يلاحظه. تساءلت إلهام:

- المهم يا جماعة، ماذا تريد يا أستاذ شيكوريل؟ لماذا يتحدث بهذا الغموض دائمًا؟!

هام شيكوريل على وجهه في المكان شاردًا، وكأنه عاد شبحًا، صورة لا تتفاعل مع ما حولها. قالت سهير مفسرة:

- الأشباح لا تتحدث في غموض، الأشباح تريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة، فلا تستطيع إلا التفوه بما يثقل كاهلها فقط. ما قال هذا الشبح خلاصة حياته التي علق في التفكير فيها حتى عجز عن مغادرة المكان.

شبح عالق في خلاصة حياته.. اذكر يا أسامة خمسة فروق بين حياة الأشباح وحياتك. كوَّر أسامة كفيه وقال:

- لنرحل من هنا. كما تقول سهير، الرجل يخرف أو يكرر أفكارًا أو تصرفات لسبب ما. ما أعطاه لنا مجرد طُعم كي نأتي لنسمع هراءه. لا يوجد ما ننقذه منه، ولا ما نفعله له.

قالت سهير ساخرة:

- قلها إذًا.. أنت تكره من يقاسمك البطولة!

اتجه أسامة إلى باب الفيلا ومد يده إلى المقبض، فهتف إسلام:

- ابحث في قلب النخلة! لنبحث طالما جئنا ومعنا إشارات!

- عمَّ نبحث بالضبط؟ هذه مغامرة سهير زاهر وهي الأقدر على القيام بها. رافقاها إن أردتما، وخذ هذا..

خلع أسامة الخاتم عن إصبعه ليعطه لإسلام، وقبل أن يفعل، تهاوى الحائط!

كان ينبشه القط السمين، وتبين للجميع أنه حائط خشبي على سبيل التمويه لا أكثر. من فتحته رأى فريد يجثم على صدر عمرو الذي كان نصف جسده في الردهة والآخر في الحجرة الأخرى، الحجرة الملاصقة للفيلا والتابعة للمنزل الآخر.

يصيح فريد وجهه محتقن:

- كنت أعرف أنك «تلعب بذيلك» من ورائي. قلت يا «واد» يا فريد دعه يسرق الشاي والسكر من الـ»بوفيه»، ولد غلبان، ولا بأس من أن يأخذ منهم لأهل بيته، لكن تستغل كاميراتي وإمكاناتي الإنتاجية الضخمة لتتجسس عليَّ؟

دفعه عمرو قليلًا كي يستطيع التنفس، وقال:

- أي شاي وسكر أيها الأبله؟! أنت أغبى من رأيت في حياتي.. تتعامل مع كنز مدفون بمنطق المقاول.. اكسر واهدم وغطِّ على أعمال الهدم بهراء يجلب لك المزيد من المال. كنت تريد الانتهاء من البحث عن الكنز أثناء التصوير، وإن لم يسعفك الوقت، كنت ستشتري الفيلا بتراب المال زعمًا أنها مسكونة ونحن الدليل. أليس كذلك؟ بخيل قذر.. ابتعد..

دفعه عمرو وارتكن إلى ركبتيه يشهق. أخرج فريد من جيبه مطواة «قرن غزال» وقال:

- وأنا الذي وثقت فيك وحكيت لك؟ أين الكنز؟! سأفتح «كرشه» ما لم تسلموني الكنز وكفانا الله القتال.

قالت سهير وهي تتراجع إلى الخلف، ولا شعوريًا تحتمي خلف أضخم الموجودين؛ أسامة:

- أنت أفسدت كل شيء. لا علاقة لي بالأمر سوى أن هذا الشاب هو من أخبرني بأمر الشبح، وطلب مني استجوابه كي أعرف مكان الكنز، فأخبره به، فيدفع الشروط الجزائية للجميع ويفسد المسلسل. أقسم بالله هذا ما حدث! وجاء أسامة وهذان فأخافا الشبح ولم أصل إلى شيء بعد. آسفة أنني كذبت عليكم..

تقدم أسامة من فريد وهو يمد إليه يده ودقات قلبه تتسارع.

- هات المطواة يا فريد ولنتحدث بهدوء.

- أي هدوء؟! لقد خدعت هذه المرأة نفسها.. هل تعرفين يا مدام أنه زرع كاميراتي في هذه البيلَّا كي يعرف ما يدور بينك وبيت العفريت؟ لو كانت نيته

خيرًا لجاء معك، أو انتظر أن تحكي له. لولا عدت بالصدفة ورأيته يراقبك عبر الشاشات لكنت مغفلًا حتى الآن!

فجأة، انطلق عمرو راكضًا ليهرب من الفيلا، قبل أن يمس الباب، ارتطم بجسد سولومون شيكوريل الذي هدر صوته يقول:

- ابحث في قلب النخلة أيها الجبان.. من يخشَ قلب النخلة الأجوف يظل عمره هائمًا في دهاليز نفسه المكتظة بأشباح الأوهام.

زحف عمرو على إليتيه إلى الخلف، وحدق فريد إلى الشبح الغاضب، ثم تَفَل في صدره وقال وهو يلوح بالمطواة:

- اسمع يا خواجة، الأمر بسيط للغاية. أنت ميتٌّ والحي أبقى من الميت. ما رأيك أن تدلني على مكان الكنز، وأترك لك البيلًّا الأخرى ترتع فيها كما تشاء.. لا، سأمنحك دورًا في مسلسلي ولأكن أول منتج يكتشف شبحًا. أنت وسيم ما شاء الله ولك وجه سينمائي «فَشَر» جميل راتب.

نظر سولومون إلى سهير وقد أفسد ما قال فريد تأثير ما فعل تقريبًا. قالت سهير:

- لنحل المشاكل واحدة تلو الأخرى.. سيد سولومون، يبدو أنك مدرك أنك شبح، أليس كذلك؟ حسنًا.. ماذا تريد منا الآن؟

- أريد مساعدتكم أيها الحمقى! أنا شبح وكُتِب عليَّ أن أشاهد حماقات البشر تُعاد مرارًا حتى صرت عاجزًا عن التحكم في حنقي!

قال إسلام:

- عظيم.. كيف تريد مساعدتنا؟

- ليفكر كل واحد منكم فيما منحته. ليبحث كل واحد منكم في قلب النخلة ال..

قال فريد في ضيق:

- لعن الله النخلة على قلبها.. لو تريد مساعدتنا فأعطنا الكنز وشكرًا جزيلًا لك! أنت تريد مساعدتنا كما تريد أنت لا كما نحتاج نحن!

أخيرًا قالت إلهام:

- لديك حق يا أستاذ فريد. ربما أنت عالق هنا يا أستاذ شيكوريل لأنك «لن» تنجز مهمتك أبدًا. تعتقد أنك ستستطيع مساعدة الجميع حسب رؤيتك للصواب والخطأ.

قال إسلام وقد أضاء وجهه:

- أنت من نوعية البطل الذي يريد تغيير العالم وفقًا لمعاييره، فيصبح هو شرير القصة! ركزوا.. الجوكر يريد تغيير العالم ليناسب صدمته في حياته، بينما الرجل الوطواط يحاول منعه عن ذلك وإنقاذ الناس من براثنه، لكن الرجل الوطواط –شخصيتي المفضلة- لا يرغم أحدًا ممن ينقذهم على شيء. هو منشغل بتطوير نفسه وتحدي مخاوفه!

قال سولومون:

- أي وطواط وأي جوكر؟ كفى هراء.. لن يخرج أحد من هنا قبل أن تجدوا الحل.. ابحثوا في قلب النخلة!

حام الشبح حول السبعة عاقدًا ذراعيه، ينظر إليهم غاضبًا مُهددًا. قال مهاب:

- أول مرة أرى شبحًا يريد مساعدة الآخرين لا العكس.

شرد أسامة هنيهة قبل أن يقول:

- هو يرانا أحق منه بالمساعدة. يربط رحيله بإنقاذنا.. الرجل يعاني عقدة البطل منذ زمن حتى قُتِل، والآن يمارسها معنا. يتخلى عن حقه الطبيعي في المُضي قدمًا في حياته.. أقصد آخرته، وينتظر هنا يحاول مساعدة الجميع!

قال إسلام وهو يجلس أرضًا ويضع أمامه المفتاح:

- هذه رموز.. مفاتيح للخروج من هنا. حسب الروايات فالحل يكمن في التلميحات. ها نحن في قلب النخلة، ومعنا عدة أشياء لا نعرف أهميتها بدقة. النظارة لم تُضف لأستاذة سهير كثيرًا.. المفتاح فتح لنا الباب الخلفي..

وضعت إلهام المنديل الملطخ بالدماء على الأرض وجلست جوار إسلام، فحذت سهير حذوها. قال أسامة وهو يمد يده نحو عمرو:

- أرِنا الساعة والقلم.

انصاع عمرو على مضض، واقترب يجلس مع الجالسين. قال أسامة وهو ينظر إلى الأغراض والشبح يطوف حولهم كمراقب في امتحان:

- هل يجب أن نستخدم كل تلك الأشياء كي نخرج من هنا مثلما استخدم إسلام المفتاح؟

قالت سهير:

- أم رموز لتغيير في نفوسنا حسب رؤية السيد شيكوريل؟

هتف فريد بصوته الذي أفزع الشبح:

- أم تراهم خريطة للكنز؟! اسمع يا «شوكوريل» بيه، لو عثرنا على الكنز سنقتسمه بيننا، يسدد منه هؤلاء شروطهم الجزائية ليغربوا عن وجهي بلا رجعة، وتهدأ مدام سهير لإيقاف تصوير المسلسل وقطع العيش.. ما علينا.. وأنعم أنا بتعويض مناسب عن مجهودي ووقتي وقلة القيمة التي أصابتني جراء تعاملي مع مدعي الفن هؤلاء. ما رأيك؟

نظر له شيكوريل في اشمئزاز وكرر بالفرنسية: ريشيرشي دو لو كير دي بالميِّ.

سأل أسامة:

- الساعة بوصلة.. إلامَ تشير؟ وفي أي اتجاه؟

قال عمرو مُنكَّس الرأس:

- إن وقفت بحيث يشير المؤشر إلى قلب النخلة المرسم على خلفيتها، فسيكون الاتجاه المطلوب هنا.

وأشار نحو الحجرة التي دخل منها هو وفريد، ثم مد خطًا هميًا على استقامته ليشير إلى حجرة سفلية صغيرة. قال مهاب:

- حجرة الخادمات. فحصتها منذ قليل. بها أسِّرة معدنية بلا حشيات ولا شيء آخر.

عقدت سهير حاجبيها وهي تشير إلى المنديل وتقول:

- افردي هذا المنديل لو سمحتِ.

فردت إلهام المنديل لترى نقشًا مضادًا للبلل قد ظهر مع بقع الدماء. صاح فريد:

- اللهم صلِّ على النبي! خريطة!

أمسك شيكوريل برأسه كأن فكرة مؤلمة تخترقه:

- لا.. لا.. المنديل هو النقاء.. البوصلة هي اتجاه الحياة.. لا..

قام عمرو متجهًا نحو غرفة الخدم ومعه المنديل:

- لنكن عمليين. نعرف أن الكنز في هذا الاتجاه..

وقف شيكوريل أمام عمرو يمنعه عن التقدم، وقد استطال حجمه غضبًا:

- ابحث في قلب النخلة أيها الوصولي!

- سأبحث كما أشاء، أفسح الطريق.

طار عمرو في الهواء إلى الخلف من طاقة غضب شيكوريل، وسقط فوق فريد بالضبط.

- فريد ابتعد عني.. ما لكم تطيرون كالدجاج العتاقي وتهبطون فوق خلق الله!

قال مهاب:

- لدي فكرة.. أستاذة سهير.. كيف سيطرتِ على شبح عزبة النخل الغاضب؟

- ياه.. قصة لطيفة للغاية، دعوني أحكِها لكم...

قاطعها أسامة:

- مع الاحترام الكامل لك.. اختصري. هل تستطيعين السيطرة على الأشباح الغاضبة؟

أجابت سهير مُمتعضة:

- أستطيع.. لكن الأمر فيه بعض المخاطرة.

همس مهاب:

- السيد سولومون أقل شراسة من شبح عزبة النخل.

مال مهاب –الجالس بين أسامة وسهير- على أذن الأول وقال:

- سنقيم جلسة تحضير، وسيسكن سولومون جسد الأستاذة فتستطيع تهدئته وفهمه أكثر، بينما تذهب أنت وعمرو إلى حجرة الخدم.

هز أسامة رأسه موافقًا، ونظر إلى السقف كأنه غير مهتم بأي شيء كي لا يلاحظ الشبح أنهم يتآمرون عليه. قامت سهير مُغمغمة:

- أعتقد أنني سأتقيأ.. مهاب، سنِّدني..

قامت ومهاب متجهان نحو دورة المياه، وبعد دقائق سمعوا صوت سهير يدوي من اللامكان:

- سولمون شيكوريل.. أنا سهير زاهر، أريد الحديث معك.. لا تخشَ شيئًا.. اتبع صوتي..

رأى الجلوس الشبح يحدق في اتجاه الحمام، ثم يهيم ببطء كأنه دخان يدفعه الريح. بمجرد أن ابتعد، قام أسامة يعدو نحو حجرة الخدم، ومن خلفه انطلق الباقون ومعهم الأغراض التي كانت على الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع عمرو البوصلة على الأرض جواره المنديل حتى تطابق الاتجاه مع أركان المنديل الذي يمثل أركان الحجرة الأربع. أشار عمرو إلى المنديل وهو يقول:

- انظروا، عند الركن الشمالي رسم على المنديل. دائرتان متماستان.

نظر الجميع إلى أرضية الركن، ثم اندفع فريد يركع هناك على ركبتيه:

- لا بد أن الكنز هنا.. هيا، هاتوا ما تحفرون به.

قالت إلهام وهي تدس قبضتيها في خصرها:

- يا سلام؟ ولماذا لا تحفر معنا؟ لسنا عُمَّالًا لديك.

- لأنكم لو لم تستخرجوا الكنز لن تستطيعوا دفع الشروط الجزائية لي!

قال إسلام:

- لو لم نستخرج الكنز ونحل اللغز لن نخرج جميعًا من هنا.

التقط أسامة النظارة الدائرية ونظر خلالها مبعدًا إياها عن عينيه ونظر إلى أركان الحجرة حتى وصل إلى الركن حيث يجثم فريد. بدت دائرتا العدستين فوق رأسه كأذني ميكي ماوس. ضحك أسامة ضحكة مبتورة وقد أدرك الحل.

- النشع على الحائط الشمالي ليس نشعًا. هو نصفا رسم نخلة باهت، ومركزه هنا، عند حاجز الأنف في النظارة، وعلى هذا الارتفاع. الكنز في الحائط لا الأرض.

صرخت سهير، وشعر الجميع ببرودة عظيمة، لكن أحدًا لم يرَ شبح سولومون شيكوريل سوى أسامة الذي تجمد تمامًا في مكانه، يرى كل ما حوله لكنه عاجز عن الحركة. يحرك إسلام أصابعه أمام وجه أسامة وتنظر إليه إلهام في ذعر.

«أسامة.. لقد حللت اللغز وعثرت على الكنز..»

فريد يأمر عمرو بشيء ما، فيدفعه الأول ويندفع نحو الحائط يحاول نبشه بأظفاره.

«حقًا؟ بعد كل هذا تستخدمون رموزي بهذه السطحية؟! أجل.. الكنز كان في غرفة الخدم تحت أعينهم طيلة الوقت، لكني لا أريدكم أن تعثروا عليه أيها الحمقى! أنتم لستم خدمًا! أنتم فنانون! الكنز كان تحت أنوف الخدم لكن لا أحد يهتم للبحث في قلب النخلة الخاوي. سنوات طوال يبحثون عنه في حجراتي حتى.. طعنوني لأجله..»

يخلع فريد سترته المنفوخة ويحاول خنق عمرو بها. إلهام تعدو خارج الحجرة وهي تصرخ طالبًا للنجدة. يحاول إسلام أن يُجلِس أسامة لكنه لا يتحرك.

يتملص عمرو من فريد ويهرع نحو القلم على الأرض، يفتح غطاءه، ويغرس سِنَّه في كتف فريد.

«إحدى عشرة طعنة.. هذا هو تأثير البحث عن الكنز يا أسامة. لم يتعلموا مني شيئًا ولم يسعوا لأن يكونوا أفضل. حاولت أن أساعدهم.. لكن أبوا إلا أن ينتشوا بدمائي.»

ضرب فريد الحائط بجسد عمرو، فسقط بعض الطلاء عن الحائط كاشفًا شيئًا معدنيًا عن الركن، حيث قلب النخلة.

«والآن.. أنا عالق هنا لا يريد أحد مساعداتي حتى بعد موتي. أعطيتكم مفاتيح استخدمتموها بسطحية لعينة! ظننتك ستكون البطل يا أسامة وتنقذهم. ظننتك ستقف وسطهم وتهتف بطريقة مسرحية: عليك أن تفعل كذا، وأنتِ، عليكِ أن تفعلي كذا! هذا هو الحل.. هذا هو التفسير! ليبحث كل منكم في قلبه الخاوي وليملأه بالرموز.. بالمفاتيح!»

خلع فريد قائمة من قوائم الأسِرَّة وراح يضرب به الحائط في غِل. إسلام يتصل بأحدهم، ربما طبيب.. رن صوت أسامة في نفسه، كأنه يتحدث في قاعة خالية.. في قلب نخلة خاوٍ:

- سيد سولومون.. ما تريده مستحيل. الحياة تمنحنا رموزًا وإشارات، نتجاهلها أحيانًا فنخطئ، ثم ندركها فنفهم.. ما بين التجاهل والإدراك رحلة نضج طويلة أليمة. هكذا تُملأ قلوب النخيل الخاوية بطرحها. أنت نفسك أنضجتك السنوات، لكن رفقك بالآخرين دفعك لتلقينهم الحلول.. طبيعي ألا يروها يا سيدي.

«هل أنت راض يا سيد أسامة عن حياتك وعن اختياراتك؟ ماذا لو كنت قد اخترت سهير حبيبة طفولتك التي لم تنسها لحظة وتناسيتها كي تحافظ على وفائك لزوجتك؟ ماذا لو رافقتها في طريقها ورافقتك في طريقك؟ ماذا لو اعتنيت بابن أخيك وأنجبت أبناءك؟ ماذا لو كنت قد قابلتني منذ ثلاثين عامًا وأعطيتك خاتمي لتمنحه لحبيبتك وتهمس لها: لأجلك يا سهير سأحكي، سأعيش، سأتألم وأضحك وأندم ثم أعود وأختبئ في قلبك؟..»

- كفى.. لو حدث هذا ما كنت لأرى فيه أي جمال. حين تقطع الطريق إلى نهايته ثم تنظر إلى الخلف ترى الرحلة كاملة، تدرك الحقيقة. أنت تخلق الطريق بخطواتك السليمة والخاطئة. الآن أنظر إلى الماضي وأرى عثراتي، ولا أندم. أنت عالق في الندم وفي محاولة منع الخطأ قبل وقوعه، لكنه يقع

في كل مرة يا سيد سولومون. لا يمكن إنقاذ أحد قبل أن يتورط فيما يحتاج للإنقاذ.

«وما خبرتك أنت كي تنصحني؟!»

- اعتبرها نصيحة من شبح حي، عالق -مثلك- في حياة راكدة، لا يرى سوى الماضي ولا يسعى للتحرك إلى الأمام.. لكنك حقًا ساعدتني يا سيد سولومون.

دخلت إلهام الحجرة وهي تسند سهير من جهة، ويسندها مهاب من جهة. سهير شبه فاقد الوعي تتمتم:

- سيد سولومون شيكوريل.. هل تثق بي؟ لا جدوى من البقاء هنا.. اترك كل شيء وارحل بسلام. ارتح من التفكير.. كنت بطل حياتك وصنعت معروفًا وفارقًا، والآن انتظر الحصاد.. تحرر من عبئك ومن عبء كنوزك.

ردد سولومون دامع العينين:

«وأنتم؟! كنتم أملي الأخير!»

- وما زلنا أملك. لا تخشَ شيئًا.. حرر أسامة وانصرف..

جال سولومون شيكوريل بنظره إلى الوجوه، ثم قال مشيرًا للكنز بصوت سمعه الجميع:

- هو لكم.. ولكم الاختيار..

سار الشبح ببطء نحو سهير ثم اختفى في اللحظة التي فتحت فيها الأخيرة عينيها وشهقت وهي تسأل:

- ماذا حدث؟! هل نجحنا؟! يا ربي! عمرو!

اندفع أسامة نحو فريد، يلف حرملته المطاطية حول جسده فيقيده ويسقط فوقه.

- يا لكم من دجاج عتاقي لا يكف عن..

قالت إلهام:

- نحن دجاج وأنت جزار! الإسعاف بالله عليكم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف أسامة ومهاب وسهير جوار سيارة الأول، يراقبون سيارة الإسعاف تُخرج عمرو من الداخل. اتفق الجميع على أن يزعم إسلام وإلهام أن عمرو

اختفى مع المنتج في الحجرة الجانبية، وحين انشغلوا عليهم اقتحموا الغرفة ووجدوا عمرو جريحًا في حجرة فيلا شيكوريل الخالية، وتمنى الجميع ألا يُدلي عمرو بشهادة تورطهم جميعًا. قال أسامة:

- أعرف أن الخير في عمرو أكثر من الشر. حاول الشاب مساعدة الجميع ومساعدة نفسه بطريقته. أؤمن كذلك أن الله عادل سيُجازيه على قدر نيته.

قالت سهير:

- ليته كان يعرف ما في الخزينة.

قبل أن ينصرفوا، غلب عليهم فضولهم لمعرفة ما في الخزينة، وقرروا أنهم إن وجدوا كنزًا سيضطرون لحراسته حتى تأتي الشرطة، فلا ضمان أن يعود فريد –بعد هربه- قبل وصول الشرطة فيستولي على الكنز. دسَّ أسامة الخاتم في القفل الذي يلاءم تمامًا نقش النخلتين والحجر، ثم لفَّه فانفتح باب الخزينة كاشفًا عن لفافة ورقية خالية، تحمل نقش النخلة عند حافتها اليسرى. لاحظ إسلام أن هناك أثرًا غائرًا لكلمات مكتوبة غير مرئية. أمسك القلم الذي لوثته دماء فريد ومسحه، ثم راح يحرك طرفه برفق على العبارة المحفورة حتى أظهرت الخطوط التي رسمها العبارة الخفية: ابحث في قلب النخلة.

ضحك مهاب وهو يقول:

- الرجل مهووس بالنخلة أكثر من اللازم. هذا عبث! هو مصر على أن ندخل في بحث لا نهائي عن شيء لا يعرفه سوى هو.

غمغمت سهير:

- من أكثر الأشباح التي قابلتها في حياتي غرابة. هل تتذكر يا مهاب شبح روض الفرج؟

نظرت إلى أسامة في حماس لأن تحكي كما اعتادت في برنامجها، ثم أخفضت عينيها وقالت:

- لنرحل. شكرًا يا أسامة لتعبك، ومعذرة لما تسببت فيه عندما وافقت عمرو على الدخول للفيلا. لا بد أن هناك حلًّا أفضل مما فعلت.

قال أسامة باسمًا:

- سأسعد كثيرًا لو عرفت ماذا حدث مع شبحي روض الفرج وعزبة النخل. يبدو أنك بارعة حقًا في الوساطة الروحانية. لقد ساعدتِه وساعدتِنا.. ساعدتني كثيرًا.

قال مهاب:

- سأدعوكما على مشروب في أي مكان ونحكي لك.

نظر أسامة إلى كرشه المتدلي من فوق الحزام الذي يحمل حرف فاء وقال:

- نظرًا لمنظري الآن، لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان سوى البيت، وأدعو الله ألا يراني أحد الجيران.

ابتسمت سهير وقد عرفت أن السبب في رفضه الدعوة وفاؤه لزوجته لا أكثر. لا يريد الاقتراب أكثر منها، وهي أيضًا لا تريد تعكير صفو حياته الهادئة التي اختارها.

- سأحكي.. لأجلك يا أسامة سأحكي في البرنامج عن هذه الأشباح. سعدت جدًا بالمغامرة الـ.. المشتركة.

قبل أن تنصرف سهير، توقفت سيارة أجرة أمامهم، ونزلت منها سيدة طويلة رفيعة الحاجبين تهتف:

- آه! ها هي سيدة الزمالك كما شككت! ذوقك يثير اشمئزاز الكلب! هذه المرأة جلد على عظم!

- فاطمة! تأدبي! هذه زميلة...

- وها أنت قد تخليت عن وقارك وسروالك ذي الكسرات الأنيق وارتديت زِي الرجل العِنَّاب هذا كي ترضي الطفلة التي فضَّلتها عن زوجتك التي تحملت سنوات فقرك! قِلة قيمة! طلقني يا أسامة! الآن!

شرد أسامة في المشهد وقد ذكَّره بشيء؛ طلقة مسدس.. سهير تبكي.. سروال مقطوع.. كلا، سروال علاء الدين.. ماذا يحدث؟ هل يصاب بجلطة مُخية؟ ارتكن إلى السيارة ممسكًا برأسه، فاندفعت فاطمة نحوه تطوقه بذراعيها:

- «يقطعني!» لم أترك لك ما تتعشى به! يبدو أن ال..

فراشة لامعة تطير أمام عينيه.. لا بد أنه أصيب بجلطة.. من هي رانيا؟ من هو شريف؟ من هو أسامة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

عليه إنس

تدق الساعة الثامنة بعد المغرب..

يدخل شريف الصاوي –الذي جاوز منتصف الثلاثينات- عيادته مرتديًا بنطالًا متعدد الجيوب وقميصًا قصير الكمين. يحيي المُمَرِّض الريفي منصور الذي يهرع ليُحضر له عباءة مغربية ذات غطاء رأس متصل، ويساعده على ارتدائها.

- شكرًا يا منصور. كم حالة لدينا؟

قطع منصور العيادة الخاوية حتى مكتبه، ثم ناول شريف رُزمة قطع جلدية صغيرة وهو يقول:

- ثمانية. جاءني الشبوكش في المنام ساعة العصرية وطلب مني تأجيل موعده ليوم الأربعاء.

هز شريف رأسه وأخذ «الكشوفات» ثم دخل حجرة الكشف وأغلقها خلفه. أضاء المصباح الفلوسنت الأبيض، ثم زفر ولعن شروده، فأضاء الأحمر بدلًا عنه. أشعل أعواد البخور ثم جلس خلف الــ «كارفان» الأبيض الذي يحول بين الـ ـ«شيزلونج» وبين باقي الحجرة. أشعل بقدَّاحته أول قطعة جلدية وأخفض رأسه المغطى بالعباءة وهو يُتمتم: - السلام عليك يا ابن جبال الأنباط. تفضَّل.

توهج ما خلف الكارفان بضوء أحمر خافت، وصدر صوت متحشرج يقول:

- السلام عليكم يا دكتور.

- ما أخبارنا؟ هل نفذت التمرين الذي طلبته منك؟

- الحقيقة لم أجد وقتًا لهذا. كلما انفردت بنفسي أشم رائحة الزئبق الأحمر فلا أتمالك نفسي من الانقياد نحوه، وهوب.. لا أجد نفسي في مكاني.

- وحين تفيق تجد أنك فعلت أمورًا لا تتذكرها؟

- أجل.

أجهش ابن جبال الأنباط بالبكاء وقال:

- أنا نادم على كل شيء فعلته، لكنني حين جربت الزئبق الأحمر لأول مرة كنت أظنني قادرًا على التوقف عن تعاطيه في أي وقت. والآن أنا خاضع لأي بشري يملكه وأفعل كل ما يطلب مني لأجل الــ «مزاج».

طقطق شريف بلسانه ثم قال:

- اتفقنا على أنه لا يوجد بشري في الأمر. البشر لا يتحكمون في الجن بالزئبق الأحمر ولا بغيره. أنت أدمنت الزئبق وفقدت قدرتك على السيطرة على عقلك. باقي موضوع البشر هذا أوهام من الإدمان.

- لكن.. كنت أسمع من أبي عن صديق له سخَّره ساحر من البشر مقابل اثنين كيلو من عظام الدجاج المشوي في المرة الواحدة. أنت تعرف أن البشر لم يعودوا يتخلصون من عظام الدجاج في القمامة. هل سمعت عن أسعار الدجاج حاليًا؟

ضحك شريف ثم قال:

- هذا شخص آخر تلاعب به أحدهم مقابل بعض الطعام. الفقر هو السبب في كلا العالمين، لكن –مرة أخرى- البشر لا يسخرون الجن. لا يوجد دليل على هذا، وإن كنت تقصد مُلك النبي سليمان عليه السلام، فهو مُلك لا ينبغي لأحد من بعده. قدرة خاصة به هو فقط، بينما تؤكد الأبحاث العلمية شيوع وهم التسخير عند الجان بنسبة ٧٠٪ عند الذكور و١٥٪ عن الإناث، وينتج هذا عن تدني أوضاع المعيشة وشعور الجان أنهم لا يتحكمون بالكامل في مصائرهم.

عوى ابن جبال الأنباط يبتهل إلى الله:

- منه لله شمورش.. منذ حكمنا وحالنا في النازل.

- الحال في النازل عمومًا بسبب هربنا من تحمل المسئولية. نعود إلى مشكلة الإدمان. أنت تعرف أنني لا أريد أن أقترح عليك الحجز في مصحة..

- مصحة لا! سمعت أنهم يقيدوننا بالأصفاد ويصبون علينا الماء البارد فننطفئ!

- مخاوفك لا محل لها هنا. هذه شائعات. رغم ذلك أنا أفضِّل أن تُعالَج وسط أهلك وأن تبتعد بإرادتك عن تجار الزئبق الأحمر، و...

وتستمر الجلسة تلو الأخرى حتى مطلع الفجر، ما بين الجنية التي تعشق الإنسي ويتلاعب بها ويستغلها، وبين الجني المراهق الذي يراقب الناس عبر المرايا ويضيع مستقبله الدراسي في ممارسة غير أخلاقية كهذه.

بعدما صلى شريف العشاء، دخل منصور -الخمسيني- عليه يتثاءب وقد اسودَّت ملابسه بما يشبه السناج. طوى الكارافان وهو ينظر إلى ملاءة الشيزلونج المحترقة ويبرطم: - لماذا لا يجلس أبناء «الهرمة» هؤلاء على الأرض. كل يوم: اغل الملاءات جيدًا يا منصور.. استخدم الزهرة يا منصور.. النظافة عنوان العيادة يا منصور..

قال شريف وبعد جالس فوق سجادة الصلاة:

- اتصل بالمِنجِّد يا منصور ليغير تنجيد الشيزلونج. أعتقد أن ابن ميمون أحرقه في نوبة هياجه.

انصرف منصور مستمرًا في التمتمة. قام شريف ليجمع حاجياته وينصرف. دسَّ في جيبه القطع الذهبية الصغيرة (ثمن الكشف) التي يتركها مرضاه مكانهم، ثم ودَّع منصور وصعد إلى شقته في الطابق العلوي. فتح الباب ليجد جده الحاجّ زاهر معلقًا في الهواء بين الأريكة والسقف.

- جدي.. السلام عليكم..

- عليكم السلام يا بُني. معذرة، دخلت بلا إذن.

- هذا بيتك قبل كل شيء. أنا الضيف.

تربى شريف مع الحاجّ زاهر؛ جده لوالدته، في بيته في طنطا بعدما سافر أبواه للعمل في الخليج. يعمل والده أسامة الصاوي مدرس علم نفس، ووالدته سهير زاهر مدرسة تربية فنية في الكويت. ظل والده يحدثه عن أمله في أن يصبح طبيبًا نفسيًا ويحقق حلمه الذي ضاع لعدم كفاية مجموعه في الثانوية العامة للالتحاق بكلية الطب. مع الوقت آمن شريف أن رغبة دراسة الطب رغبته الأصلية، حتى تخرَّج..

قال الحاجّ زاهر:

- ألم تسأم حياتك المزدوجة هذه؟ أنت بالكاد تنام يا بني.

- سئمت.. لكنني لن أستطيع كسر خاطر أبي وترك ممارسة الطب النفسي، ولن أستطيع كسر خاطرك وترك مساعدة الجن.

- أنت من الجن يا بُني. أنت زوهري.. خاب أملي في سهير حين قررت أن تكون إنسية بالكامل وضحَّت بموهبتها الخارقة في رؤية العوالم الخفية. نسيت أن أباها زوهري وولي الصالحين، من أعلى مراتب الزوهريين. يا خيبة أملي فيكِ يا سهير..

رغم أن الحاجّ زاهر قد قرر موالاة الجان، ظل يتذكر خيبة أمله في ابنته كأي مُسِن على المعاش لا يجد شيئًا يفعله أفضل من السخط على أبنائه.

والآن، على شريف أن يختار حتى بعد مرور كل هذه الأعوام على استقرار حياته. قال شريف وهو يجلس على الأريكة ويخلع حذاءيه متعبًا: - هل تسمع عن تامينو أمير يا جدي؟

- جني؟ من أي قبيلة؟

- ليس جنيًا.. بشري، يفعل شيئًا أقرب لما أفعله. يسير على الخط الفاصل بين العالمين؛ الشرق والغرب، ماضيه وحاضره.

- هذا كلام فارغ. القرار القاطع هو الحل.

- تصبح على خير يا جدي..

قام شريف إلى دورة المياه يخلع عنه ملابسه وأعباء اليوم، وقبل أن يستعد للاستحمام، وقف ينظر إلى الشرشف الذي يغطي المرآة –وكل مرايا البيت احترازًا من مراقبة الجن- لا يرى لوجه انعكاسًا.

تساءل؛ من أكون؟ هل أنا موجود حقًا في أي من العالمين؟!

ولم يجد طبيب النفس إجابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بداية الأسبوع التالي، وفي العيادة النهارية للبشر، دخلت شريهان على شريف لأول مرة، ولم يكن يدرك ما في هذه الزيارة من تغيير لموازين كل شيء.

جلست شريهان على المقعد الوثير المريح –شريف يخجل من أن تتمدد النساء على شيزلونج أمامه، ويشعر أن الأمر سينمائي أكثر من اللازم- ونظرت إليه منتظرة أن يبدأ.

- آنسة شيريهان.. ما سبب زيارتك اليوم؟

- أعتقد أنني جُننت يا دكتور. أو.. أو أن هناك مجرمًا في حياتي يفعل شيئًا ما.. كلا، ليس مجرمًا..

- اهدأي. احكي من البداية قدر الإمكان. ماذا تدرسين؟

- كلية تجارة. أنا من أسرة متوسطة تعاني مشاكل مادية تتزايد بمرور الوقت. أبي لا يحرمنا من أي شيء، لكننا نعرف ما يفعل كي يحافظ على وضعنا الاجتماعي ومستوى تعليمنا. أنا الكبرى من بين أربعة أشقاء. فكرت في طريقة أعمل بها من المنزل ودون أن يعرف أبي طبعًا كي لا أجرح مشاعره. عملت فترة في بيع الملابس والإكسسورات التي اشتريها عبر موقع صيني شهير، وكاد أمري ينكشف عند أبي فتوقفت. ثم حكى لي رامي عن شيء غريب.

- مَن رامي؟

- زميل.. صديق.. أعني، أنت طبيب نفسي، ولن تحكم عليَّ. نحن متحابان ونحاول تحسين دخلينا –خاصة رامي- ليتمكن من طلب يدي بعدما ننهي الدراسة.

- حسنًا. أكملي.

حكت شيريهان عن اليوم الذي قابلت فيه رامي في كافيتريا الكلية بعد فترة غاب فيها عن التواصل معها بل والحضور إلى الكلية. قال وهي تناوله شطيرة بطاطس سورية: - لا تغضبي مني يا شيري. ها قد عدت وسأبشرك.. وجدت عملًا مؤقتًا أجمع منه المال. لي جار أكبر مني، قال أنه يعمل في وكالة لها تطبيق على الفيسبوك. كل ما عليَّ هو أن أفتح حسابًا عن طريقه، وستصلني رسالة بأمر بسيط أفعله لشخص يحتاجه مثل.. مثل ترجمة عبارة لشخص أجنبي، أو توصيل طلب بسيط من مكان لمكان.

- وهل هذا الأمر مشروع؟ قانوني؟

- لي الحق في أن أرفض أي طلب قد يبدو مريبًا. لست طفلًا يا شيري. المهم، لكل طلب ثمن بالدولار.. بالدولار يا شيري!

أخرج محفظته وواربها قدرما تستطيع أن ترى شيريهان العملات الخضراء الجديدة. أضاف:

- لا توجد تحويلات حتى. جاري هو من يحاسبني، فقد دخلت التطبيق عن طريقه. أنا الآن في مرحلة إضافة أشخاص آخرين يدخلون عن طريقي فأحصل على نسبة من المهام التي ينفذونها، وحين يضيف إليهم أشخاصًا آخرين تصلني نسبة، وهكذا.

- الأمر يشبه التسويق الشبكي. لكن يا رامي كل من اشترك في موضوع التسويق الشبكي هذا خسر.

- يبدو الأمر شبكيًا بالفعل لكنه ليس تسويقًا. أنا لا أدفع أي شيء سوى اشتراك الإنترنت. كيف سأخسر؟

قضمت شيريهان من الشطيرة وقالت:

- خذ الحذر يا رامي. لكن.. ما علاقة هذا الأمر باختفائك؟

- لا علاقة مباشرة. أجهدت نفسي فقط في تنفيذ الطلبات فمرضت. كنت أصاب بنوبات صداع رهيبة أفقد خلالها الوعي. لكنني الآن في مركز متقدم ويمكنني أن أقلل جهدي لو استطعت ضم أشخاص آخرين.

تحكي شيريهان لشريف وهي تفرك منديلًا ورقيًا بين أصابعها، ثم تضيف:

- اقترحت عليه أن أدخل إلى التطبيق من خلاله، وأدخلت أخي الأصغر حسام، وأدخل هو زميلينا مصطفى وعز.

- ممتاز. متى بدأت الأمور في اتخاذ منحنى يريبك؟

- حين اختفى رامي..

ظنت شيريهان للوهلة الأولى أن رامي تهرَّب منها مرة أخرى توطئة لإنهاء العلاقة. بعد أسبوع ظهر مجددًا يرتعد وقد فقد نصف وزنه. ظهر في بث مباشر عبر فيسبوك يستنجد فيه ويقول: - يا رفاق.. أنا لا أعرف أين أنا..

أدار الكاميرا لتظهر الصحراء حوله وجبال متماهية مع الظلام.

- يبدو أنني هنا منذ أيام، ملابسي اتسخت و.. كيف جئت إلى هنا؟! كنت في بيتي أستذكر وفجأة وجدت نفسي هنا بعد أيام.. بعد أسبوع! التاريخ على هاتفي يقول هذا.. النجدة.. مُحدد المواقع يقول أنني في مكان ما قرب البحر الأحمر..

ثم انتهى البث، وعجز الجميع عن الاتصال به. استنتج البعض أنه يتلاعب بهم، وأبلغ أهله الشرطة مرة أخرى بعد بلاغهم الأول عن اختفائه والذي لم يأخذه أحد على محمل الجد.

بعد يومين وجدته الشرطة قرب دهب، في حال إعياء شديد. ذكر التقرير الطبي وجود أثر قيود على معصميه، لكن لم يكن هناك إصابات أكثر من ضربة الشمس والجفاف الشديد.

- ثم يا دكتور.. اختفى رامي من المستشفى. كان في حالة لا تسمح له بالحركة، لكنه اختفى. ولم يجده أحد من وقتها.

- منذ متى؟

- شهر ونصف.

- وما سبب مشكلتك غير الصدمة طبعًا جراء اختفائه؟

- أخي حسام.. منذ بدأ في تنفيذ المهام وهو يعاني مشاكل في النوم ليلًا، ثم بدأ يختفي لفترات قصيرة لم نلاحظها في البداية لأن أغلبها ليلًا.. ثم اختفى منذ ثلاثة أيام لمدة ست ساعات..

- ماذا عن زميليكما؟

- نفس الشيء. نفس الاختفاءات.. أنا لم أنفذ أي مهام بعد، لكنني أفكر في أن أجرب.. أن أعرف بنفسي ماذا يحدث بالضبط. لا يوجد شيء مثل هذا في

الكون! أنا جُننت.. لا بد أنني أتخيل كل هذا.

- وهل عرف والداك بشأن اختفاء حسام؟

- بالطبع! لكني أعتقد أنني أتخيل أنهما يعرفان.. لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقيًا!

قال شريف وهو يفتح هاتفه المحمول ويناوله لها:

- هاتي لي الفيديو الذي ظهر فيه رامي آخر مرة.

فتحت شيريهان حساب رامي على فيسبوك وشغَّلت الفيديو. قال شريف:

- هذا يعني أن ما حدث لرامي حقيقي. لكن هل اختفى حقًا؟ دعينا نفترض سوء النية ونقول أن التطبيق طلب منه مهامًا بمبالغ أكبر ونفذها ف.. خُطِف أو..

- أو قُتِل؟! حسام سيُقتل؟! هذا ما كنت أخشاه.. ثمة مجرم في الأمر.

- أولًا، يجب أن تتكاتفي مع زملائك للوقوف على حقيقة هذا التطبيق وقانونيته، ثانيًا، الكشف على أخيك وزميليك نفسيًا وجسديًا. أمامنا خطوات كثيرة قبل أن نفكر في أنك متوهمة أو أن هناك أمرًا يُحاك ضدك أنت بالذات.

انصرفت شيريهان على وعد بالمتابعة لاحقًا إن تأكدت أن المشكلة نفسية.

مرت أيام ونسي شريف كل شيء عن شيريهان ورامي، حتى زارته الفتاة مرة أخرى وعلى وجهها تعبير هو خليط بين الحماس والذعر.

- دكتور شريف! لديك حاسوب؟

ومدت له يدها بـ«فلاش ميموري» وهي تقول:

- سجلت كل شيء في تجربتي.. لن تصدق..

شغَّل شريف أول فيديو، فرأى كاميرا –غالبًا كاميرا موبايل- تصور حجرة متواضعة المستوى، وتُظهر شيريهان ترتدي إسدالًا وتجلس أمام حاسوب. تنظر شيريهان نحو الكاميرا تحركها كي يظهر واجهة التطبيق على الشاشة وهي تقول: - هذا هو تطبيق «يدًا بيد». أتممت الآن ترجمة عبارة لأحد المستخدمين. العبارة عادية جدًا توضح خلو منتج معين من الجلوتين. لا شيء غريب. سأترك الحجرة الآن وأخبئ الهاتف. هذه حجرة حسام لا حجرتي.

مدت شيريهان يدها تحرك مؤشر برنامج التشغيل، فتُقدم الوقت قليلًا ليظهر حسام النحيل أجعد الشعر نائمًا في فراشه.

نظر شريف نحو شيريهان متسائلًا، فأشارت نحو ركن الشاشة. رأى شريف كتلة ضوء مخضرة كأنها لهب، تتراقص وتهدأ، تعلو وتنخفض، تقترب من الشاب ببطء خطوتين ثم تبتعد خطوة، حتى لامست جسده فانتفض فزعًا.. ثم اختفى.

- آنسة شيريهان.. توجد برامج كثيرة ل..

- ولماذا أخدعك؟! ماذا سأستفيد؟! لقد عاد حسام بعد ساعة إلى فراشه، لكن من يضمن أنه سيعود دائمًا؟!

المشكلة الوحيدة هو أن شريف كان متأكدًا من أنها لا تخدعه، وما رآه على الشاشة الآن هي محاولة تجسد لجني. المرحلة بين التجسد والاختفاء بالضبط، تلك المرحلة التي تندلع فيها طبيعتهم النارية في عالم الماديات لتتخذ شكلًا يستطيع البشر تمييزه.

لكنه لا يعرف بالضبط لماذا اختفى البشري. هذا ضد كل قوانين عالمي الإنس والجن.

قال شريف وهو يمسح على وجهه:

- لا أكذِّبك قطعًا، ولا أقول أنك فعلت هذا متعمدة... دعينا نرَ، ماذا لديكِ أيضًا؟

ضغطت شيريهان على فيديو آخر وهي تقول:

- هذا الفيديو من حجرتي. بالطبع نمت مرتدية كامل ملابسي كي أستطيع تصويره. صورت هذا الفيديو بعدما أتممت مهمة غريبة نوعًا.. نسخ عبارة بلغة لا أعرفها عن طريق التثقيب.. بطريقة برايل لكنني استخدمت مسمار. هكذا كانت التعليمات، وأرسلتها إلى مكتب بريد في دهب.

- هل تعرفي فحوى هذه العبارة؟

- كلا. الحروف غريبة.. نسختها نسخًا من الرسالة التي أرسلت إليَّ. هل ترى هذا اللهب في ركن الصورة؟ شعرت ببرودة شديدة وقتها. لأنني كنت متوقعة ما سيحدث، قرأت القرآن طيلة الليل حتى غفوت.

حركت المؤشر إلى وقت آخر من نفس التسجيل وقالت:

- هنا كنت نائمة، وحلمت بصوت يقول لي شيئًا مثل: بحق العهد بيننا وبين حِتَّة ابنة هاشم وثريا، شيريهان بنت عبد الحليم ورقية أمَة مُسخرة عند شمروش حتى إتمام الأجل وتحقيق المُراد.. وقال أشياء أخرى هذا ما تذكرته..

اتسعت عينا شريف دهشة؛ جن يُسخِّر إنسًا؟! من أين لهم بهذا العهد؟ وكيف يعمل؟

- آنسة شيريهان.. أرسلي لي رابط تحميل هذا التطبيق. هل يمكنك أن تضيفيني عليه؟

- دكتور شريف.. ماذا ستفعل؟

- سأرى ما يحدث بنفسي. وسآخذ نسخة عن هذه التسجيلات بعد إذنك. المهم..

دفع كُرسيه ذا العجلات إلى الخلف ليفتح درجًا صغيرًا، أخرج من قطعة جلد مثلثة محفور عليها خنجر ذو نصلين. سألته في استنكار؟

- حجاب؟

- لا يوجد شيء اسمه حجاب، والاستعانة بغير الله كُفر. هذا ليس حجابًا.. هذا رمز الزوهريين. هل تسمعي عنهم؟

- من هم؟

- يقولون أن الجن يخطفون بعض الأطفال ذوي القدرات الخاصة بعد ولادتهم مباشرة، ويمزجون دماءهم بدماء هؤلاء الأطفال النادرين ليكونوا وسطاء بين عالمي الإنس والجن. هذا هو الهدف من وجود الزوهريين من الأساس. العالمان منفصلان، لكن بينهما خطوط تماس تجعل أشقياء الجن والإنس يحاولون الاستفادة منها. أشرار الجن يحاولون التلاعب بالبشر ورغباتهم، وأشرار الإنس يحاولون استغلال قدرات الجن ككائنات طاقية. الأمر يطول شرحه.. المهم، الزوهريون هم الوسطاء بين العالمين، وتلك العلامة تؤكد أنك تعرفين زوهريًّا، لو مسَّك أحدهم بضُر فسيؤذى ويُحاكم. بالطبع من الجن من لا يهتمون للإيذاء أو المحاكمة.. لكن، ماذا ستخسرين؟

قالت هي تأخذ منه المثلث الجلدي:

- وكيف عرفت أنت كل هذا؟ ومن أين لك بهذا الشيء؟

- أعرف هذه الأمور. لا تقلقي. اهتمي لنفسك وأخيكِ وزملائك وأعطيهم نسخًا من هذه العلامة.

أعطاها رقم هاتفه الخاص لتُرسل إليه التطبيق ودعوة الانضمام، ثم أخذ حاسوبه المحمول وصعد إلى شقته –التي هي شقة جده في الأساس- ثم جلس يشاهد التسجيلات مرة أخرى، ويُقرِّب الصورة ويُحسِّنها كي يتأكد من صدق ما رآه.

أحضر وعاءً نحاسيًا وضع فيه الفحم ثم نثر البخور، وقام إلى الحمام فشرب ماءً مالحًا ليفرغ معدته، فتحضير الجان المؤمن على صيام وطهارة أفضل

دائمًا، ثم توضأ وصلى ركعتين، وجلس أمام البخور يلقي السلام مرارًا وينادي على: - معشر المؤمنين من الجن، من يسمعني منكم يحضر حالًا إلى عَوني.. أنا شريف بن سهير بنت زاهر..

بعد نداء استمر عشر دقائق، رأى باب حجرة نومه يُفتح وخرج منها ظل مُتشح بالظلام، اقترب من شريف ببطء داخلًا إلى دائرة النور المنبعث من الشمعتين على يمين ويسار شريف الذي سأل: - السلام عليكم.. من أنت؟

اقترب الظل أكثر حتى مسَّ الضوء وجهه، ليرى ملامح دقيقة غاضبة يعرفها جيدًا.

- ولد يا شريف! أيقظتني من أحسن نومة! مَن تُحضِّر في هذه الساعة من النهار؟

- جدي! لم أكن أعرف أنك هنا.

- من ينجبكم لا يرى ساعة راحة واحدة.

شعر شريف أنه سمع هذه العبارة من قبل، لكنه لم يبالِ، ومد يده يغلق شاشة حاسوبه المحمول بينما يجلس جده متربعًا على الأريكة خلفه ويسأله وهو يضيق عينيه شكًا: - ماذا كنت تشاهد على هذا الجهاز؟ هه؟

- لا شيء يا جدي. أراجع عملي.

- ولماذا أغلقته حين دخلت عليك؟

قبل أن يحاول شريف نسج كذبة أخرى، دوى صوت انفجار مكتوم ثم ظهر مخلوق قصير يشبه البشر، وله أربعة قوائم ذات حوافر.

- السلام عليك يا شريف يا ابن سهير.. أنا الدرداح.. معذرة، وصلتني استغاثتك وأنا لم أتناول غدائي بعد، فلم أستطع التجسد جيدًا. هل يوجد مخلوق يشبه هذا التجسد؟

والدرداح –الذي اعتاد شريف حضوره- من شباب الجان في طور النمو، وهو جائع دائمًا، مُستهلك الطاقة، لكنه نشيط خدوم يحاول أن يجد نفسه قيمة بين الجان عن طريق تواصله مع البشر دون أن يسخروه.

- أهلًا يا درداح. لا يوجد مخلوق كهذا بالطبع، لكني أعتقد أنك كنت تحاول التجسد في شكل ماعز؟

- كلا.. حمار.. ما علينا.. لماذا طلبتنا؟

نظر شريف إلى ما خلف كتفه إلى جده الضئيل المتربع مضيقًا عينيه في شك، ثم نظر إلى الدرداح وقال:

- هل يوجد ما يُريب عندكم، في عالم الجن؟ تصرفات غريبة؟ اختراعات أو اكتشافات مريبة؟

- بعد انتخابات شمروش الأخيرة ونحن في غم لا ينقطع. الكل يحاول الهرب إلى عالم الإنس. لكن..

- لكن؟

- المقربون من شمروش في انتعاش وحلاوة عيش مريبة بعض الشيء، بل إنه وظّف آخرين لإعادة تشكيل مجلس كبار الجان.

قال الحاجّ زاهر:

- إعادة تشكيل مجلس كبار الجان؟ لقد سمعت عن هذا الأمر واعتبرته شائعة.

دارت رأس شريف بينهما وهو يتساءل:

- ماذا يعني هذا؟!

أجاب الدرداح:

- الأمر يشبه الصف السادس الابتدائي في عالم البشر. كلما وجدوا وقت فراغ أعادوه أو ألغوه.

عقد زاهر حاجبيه الأبيضين وغمغم:

- كلا.. الأمر أهم بكثير من هذا.. وأخطر..

قام زاهر واقفًا، ثم جمع أطراف جلبابه الأبيض الواسع وهمَّ بالرحيل، فسأله شريف:

- يجب أن أفهم! ماذا يحدث؟

- حافظ على أذكارك، ولا تغادر هذه البناية المُحصَّنة دون أن تخبرني. هذه أمور للكبار يا شريف، وأنت اخترت أن تظل على الحياد.

مرة أخرى يشعر شريف أن الموقف قد تكرر بشكلٍ ما من قبل، لكنه لا يتذكر متى. شرد قليلًا حتى اقترب منه الدرداح محاولًا ضبط شكل الحمار أكثر، فطال عنقه حتى اصطدم بالثريا: - سيدي شريف.. معذرة.. هل لي أن أقول شيئًا دون أن تخبر سيدي زاهر؟

- بالطبع.

- سمعنا أن.. أن هناك بشرًا في عالمنا. أسرى.. الجميع يتحدث عن أنهم رأوا جثث بشر مدفونة في الفلاة.

ثم تراجع في خوف إلى الظلام وقال:

- أنا لم أقل لك شيئًا.. لا أريدهم أن يؤذوني..

- انتظر..

- السلام عليكم.

واختفى الدرداح، وظل شريف يحدق إلى الفحم أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ شريف في اليوم التالي على عدة رسائل على واتساب. في البداية لم يُدرك كُنه المُرسِل ولا عن أي شيء يتحدث.

«صباح الخير..» الساعة ٨:٠٥

«دكتور شريف.. صباح الخير.. لماذا لا ترد؟» الساعة ٨.٠٨

«أعرف أنني قد أثقلت عليك.. آسفة.. ما كان علَّي أن أورطك في كل هذا؟» الساعة ٨:١١

«أي طبيب أنت؟! كيف تترك مرضاك هكذا دون رد؟ حسبي الله ونعم الوكيل.. لو مت فستكون أنت السبب» الساعة ٨:١٢

«دكتور شريف؟ أنا قلقة عليك.. رجاء أجب رسالتي..» الساعة ٨:١٣

ثم صورة كف فتاة نحيلة مُثبت إليه أداة حقن وريدي وموصول بخرطوم. المشكلة أن شريف طبيب ويعرف أن أداة الحقن الوريدي في الصورة مقلوبة. ثم الرسالة: «فقدت وعيي من القلق عليك وقال لي الطبيب أنني أعاني انهيارًا عصبيًا.» الساعة ٨:٥٥

اعتدل شريف في فراشه يراجع أول رسالة بينه وبين المُرسلة، ليجد أنها رابط تحميل تطبيق الخدمات. هذه هي شيريهان إذًا! غمغم شريف سُبة بريئة من بين أسنانه وكتب لها: - ألف سلامة. صباح الخير. أنا بخير لا تقلقي.

فأرسلت له «إيموچي» بابتسامة سمجة. تردد شريف قليلًا في الرد، فهو لا يعرف معنى ما أرسلت، ولم يرتبط بفتاة في حياته. وضع الهاتف على الكومود وأنزل ساقيه عن الفراش ليشعر بيد تجذب قدمه. أجفل، ثم نظر

إلى ما أسفل الفراش ليجد الدرداح متجسدًا على شكل سمكة بذراعين طويلين.

- ماذا تفعل بالأسفل؟ ألم تنصرف أمس؟

- أنت لم تصرفني!

- آسف.. شردت.. لك الإذن في الانصراف والحضور كما تشاء.

- ثقة غالية للغاية يا سيدي شريف.

زحف الدرداح خارجًا من أسفل الفراش، ثم استلقى على ظهره ينظر إلى شريف بعيني السمكة اللامعتين ويقول: - ظللت أفكر طيلة الليل وأنا محبوس هنا –ولم أشأ أن أوقظك يا سيدي شريف- في حياتي ومستقبلي. أي مستقبل في ظل حكم شمروش؟! جدي حكى لي عن جد شمروش الأكبر؛ مشكاح، الذي أذاق الجن الويل منذ أكثر من خمسة آلاف عام، حتى استطاعوا حبسه أخيرًا. يقولون أن شمروش ينتقم من الجن و..

اعتدل الدرداح على بطنه واتسعت عيناه الواسعة أصلًا وأردف كأنما تذكر شيئًا:

- شمروش ينتقم من الجن والإنس! لهذا.. لهذا رأى الجن جثث بشر عندنا!

عقد شريف حاجبيه وسأله:

- لماذا ينتقم شمروش من البشر؟ ما علاقتهم بحبس جده؟

تسلق الدرداح بذراعيه الطويلين ملاءة فراش شريف، وجلس إلى جواره مُسندًا ذقنه السمكية على قبضة يده وهمس وهو يتلفت حوله: - العهود السليمانية..

حكى الدرداح عن مُلك النبي سليمان عليه السلام الذي منحه له الله، فأطاعته كل المخلوقات من إنس وجن وشياطين وحيوانات. يقولون أن بعد وفاة النبي عليه السلام سرقت مَردَة الجن كتبه وفشلوا في معرفة ما فيها، فاضطروا للاستعانة بالبشر الذين استغلوا هذه الكتب في تسخير جزئي للجن. ما فعلوه لم يكن يشبه سلطان سليمان النبي في شيء، بل هو استعباد حقيقي للجن واستغلال لحاجاته أو لطمعه أحيانًا..

رن جرس هاتف شريف، ليرى رقم شيريهان. أغلق الصوت ثم سأل الدرداح:

- لا أظن أبدًا أن التسخير حقيقي يا صديقي. لا يوجد شيء يُمكِّن مخلوق من السيطرة على آخر دون أن يسمح له بذلك.

- لا أعرف.. لكن التسخير حقيقة يا سيدي شريف!

- لن أجادلك الآن، المهم، لماذا يريد شمروش الانتقام من البشر الآن بالذات؟

قال الدرداح أن السياسيين من الجن استعانوا بالبشر في تقييد مشكاح الأكبر الذي طغا وامتد شره إلى ممالك عالم الجن السبع، وقُيِّد في عالم الإنس لا يستطيع أحد تحريره سواهم. منع سياسيو الجن أيًّا من نسله من الحكم، حتى جاء شمروش وزوَّر في نَسَبه وفاز في الانتخابات، فقط ليكتشف الجميع أنه حفيد مشكاح، وقد صعَّد معه كل الفاسدين الذين ينافقونه.

- الصحافة هي من كشفت الأمر، لكنه يكذبه في كل مكان. كلنا نعرف أنه حفيد مشكاح ولا نستطيع فعل أي شيء. سيدي شريف..

- نعم؟

- هل يمكن أن أعيش معك هنا وأصبح خادمك الأمين؟ لا أريد أن أعود إلى عالم الجن!

وانفجر الدرداح يبكي. ربت شريف على رأسه الزلق وهو يفكر في حل لمشكلته، ومشكلة شيريهان ومشكلة جده الذي يطالبه بالاختيار. قال له أخيرًا: - إن كنت تفكر في مستقبلك يا صديقي، فلا تفكر في أن تكون خادمًا أبدًا. ساعدني وسأساعدك، اتفقنا؟

مسح الدرداح عينيه وابتسم، فأضاف شريف:

- سأوكل لك مهمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهب شريف إلى عيادته متأخرًا، فباغته منصور يصيح:

- يا دكتور! العيادة (تضرب تقلب) منذ أمس. لم أنم لحظة واحدة. الجن يزورونني في المنام «بالطوابير» وكلهم يريدون الحديث معك. هل جنوا جميعًا؟!

ارتبك شريف لحظة، وأفلت قلبه دقتين. قال لمنصور:

- احجز لأول ستة فقط. ألم يأتِ بشريون اليوم؟

- هناك آنسة سألت عنك ثم نزلت وقالت أنها ستعود بعد قليل.

هز شريف رأسه ودخل حجرة الكشف، مرت دقيقة ثم دُق الباب ودخلت شيريهان تحمل كيسًا فيه عصير وحلوى. ابتسمت في حماس وقالت: - صباح

الخير يا دكتور! سألت وعرفت أنك تعيش وحدك، فقلت أحضر لك شيئًا تفطر به.

رفع شريف حاجبيه ودعاها للجلوس وهو يقول:

- ما أخبار الانهيار العصبي؟

- أي انهيار؟ آه.. تحاملت على نفسي لآتي وأشكرك لأجل ال..

ثم هزت المثلث الجلدي المعلق إلى سلسلة تتدلى من عنقها وأردفت:

- أعرف كم هو غالٍ عندك وأنت منحته لي لتحميني. لم أر رامي جبانًا قط إلا عندما قارنته بشهامتك.

كتم شريف ابتسامته وقال وهو ينظر إلى عينيها:

- لدي منه الكثير. اعتبريه دواء أو وقاية. أي حالة تأتيني وتحتاج شيئًا في مقدرتي، أقدمه على الفور. ما أخبار الاختفاءات؟

نظرت إلى الأرض في حرج، ووضعت الكيس على المنضدة الصغيرة أمامها وسكتت.

- آنسة شيريهان؟ هل جد جديد؟

- ...

- ماذا بك؟

- لا شيء.

- لماذا زرتِ العيادة اليوم إذًا؟

- لو كنت مهتمًا لعرفت وحدك..

استند شريف بظهره إلى كرسيه عقد ذراعيه على صدره وقال:

- أنا هنا لأسمع أي شكوى. هذا عملي. هل جد جديد؟

- لا شيء. كنت أظنك مهتمًا.. طالما لست مجنونة فلا مكان لي هنا.. سأترك لك الحلوى.. ارمِها إن شئت، لن أبالي بعد اليوم.

ضرب شريف كفًا بكف وهي تهرع نحو باب الحجرة، تمسك المقبض وتتوقف قليلًا، ثم تستدير على عقبيها وتقول باسمة: - لكنك شهم فعلًا.. أعرف أننا سنلتقي مرة أخرى..

خرجت شيريهان من الحجرة، وسمعت صوت منصور يهتف: «الكشف يا آنسة!».

صاح شريف:

- اتركها.

ثم فتح حاسوبه يتفقد الأخبار. وجد طلب صداقة من شيريهان على فيسبوك. الفتاة تعاني مشكلة نفسية حقيقية. فتح صفحتها الشخصية ليرى آخر منشور لها كتبت فيه: «أشد الخذلان أن يخذلك الشخص الذي طالما حكيت له عن خذلان الآخرين لك»

وهو منشور منذ دقائق، أما المنشور الذي قبله بتاريخ الأمس كان: «إن عوض الله إن حل، أنساك كل ما فقدت» ثم قلبين أحمرين. أما المنشور الذي قبلهما فيتحدث عن التخلي بعد الثقة، ومن التعليقات يبدو أن إحدى صديقاتها فهمت أنها تتحدث عن رامي. رامي الذي اختفى؟! عن أي تخلٍ تتحدث؟! الفتاة هيستيرية!

لفت نظره أنها قد شاركت فيديو رامي، والتعليقات أسفله تزيد عن ثلاثمائة تعليق، آخرها تعليق من هناء مُسعد كتبت فيه: أنا والدة مصطفى الشرنوبي وابني مختفٍ بالضبط كما حدث مع رامي. أين نذهب ومَن نُبلِغ؟

فتح صفحة هناء مسعد ليجدها مليئة بالأدعية والآيات القرآنية مع تمنيات في التعليقات بفك الكرب وعودة الغائب. كتب لها شريف رسالة خاصة فيها: «مساء الخير، أنا دكتور شريف الصاوي، طبيب أمراض نفسية، وكنت أعالج أحد أصدقاء مصطفى وهو يعاني أيضًا من مشكلة تخص الاختفاء. أريد أن أعرف أكثر عن مصطفى وعلاقاته قبل الاختفاء. شكرًا.»

ردت السيدة فورًا:

«أهلًا يا دكتور.. لنتقابل أفضل..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقابلا في مقهى أسفل البناية التي يقطن فيها شريف. هناء في نهاية الأربعينيات، محجبة، يبدو الشقاء على وجهها مع ألم فقد الابن ورعب.. رعب غطى على كل شيء.

- مصطفى يا دكتور ابني الأكبر، وأنا أرملة منذ خمسة عشر عامًا. لا أقول أنه كان رجل البيت أو أي شيء، لكه ابني يا دكتور، ومؤخرًا أصبحت تصرفاته غريبة. يغيب في حجرته بالساعات.. تصيبه نوبات هلع لا يتحدث عنها معي ويتهرب مني..

نظر شريف إلى خارج نافذة المقهى ليرى شيريهان تعبر الشارع نحوه، ثم تراه جالسًا مع هناء، فترتبك وتتراجع إلى الرصيف، ثم تهرع إلى شارع جانبي.

-.. أضف إلى ذلك يا دكتور البنت التي كانت تدور على.. أستغفر الله العظيم. لا أعرف أمر «الصحوبية» التي يمارسها شباب هذا الجيل.. المهم، ثمة فتاة معهم في الكلية لا تنفك تتصل به منذ اختفى رامي، وتظل تبكي وتندب.

- هل تعرفين اسمها؟

- شيرين تقريبًا.. لم أسمعه ينادِها باسمها إلا مرة.

مسحت عينيها بمنديل ورقي، وأخرجت من حقيبتها الصغيرة وريقة مطوية وضعتها أمامنا، ثم أضافت:

- بعدما اختفى، فتشت في حاجيته لعلي أهتدي إلى طريقه بعدما فشلت في معرفه مكانه من أصدقائه، فوجدت هذا.. عَمَل..

فتح شريف الوريقة ليجد جدولًا بأرقام وحروف وفي المنتصف اسم لفت نظره.. شمروش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما انتهى شريف من العيادة الليلة، جلس إلى مكتبه يراجع ما حصل عليه من معلومات. غمغم بصوت مسموع وهو يفتح كيس الحلوى الذي جاءت به شيريهان: - شمورش الموتور من البشر تولى الحكم في عالم الجان، وهناك بشر مقتولون هناك انتقامًا لما فعله بنو آدم في مشكاح جده الأكبر المُسلسل في مكان ما في عالم الإنس.

فتح شريف كيس «مولتو» وراح يلتهم واحدة تلو الأخرى، فقد نسي تناول غداءه اليوم.

- رامي اختفى في مكان ما قرب دهب، بعدما ورط شيريهان وأخاها ومصطفى وعز.. على ذكر دهب، شيريهان أرسلت خطابًا مشفرًا لعنوان هناك.

مسح شريف أصابعه في منديل، وكتب على «روشتة» أمامه: «أين عز؟». ثم فتح علبة العصير ورشف من الماصَّة ثم غمغم: - إممم.. أكره عصير الجوافة.. يُذكرني برحلات المدرسة.. إمم.. ثمة جني حاول إخفاء شيريهان لكنه فشل، ولسبب ما نجح في إخفاء حسام أخيها. شيريهان سمعت تعويذة..

رمى شريف علبة العصير في السلة، وكتب: «بحق العهد بيننا وبين جِنَّة ابنة (لا أتذكر)، شيريهان بنت عبد الحليم و(لا أتذكر) أمَة مُسخرة عندنا حتى تمام

الأجل وتحقيق المُراد.»

مد شريف يده يُخرج عبوة المعمول، ليجد بالداخل وريقة مطوية حول نفسها ومُلصقة إلى داخل الكيس. فكَها ليجدها نسخة عن العَمَل الذي كان مع هناء. ظنت شيريهان أنه سيرمي الكيس، وسيظل في سلة المهملات فترة حتى.. حتى ماذا؟! المفترض أن سلة مهملات العيادة تُفرَّغ كل يوم، وفي حالة عيادته تُفرغ مرتين في اليوم وتُحرق مع نثر الملح.

- شيريهان صنعت سحرًا لي ولمصطفى عند ساحرة تُدعى حِنة.. هل فعلت بالمثل مع رامي؟ هل هي الأصل ولا وجود للصديق الذي نصح بالتطبيق؟ أم أن التطبيق هو الأصل وما فعلته شيريهان كان أمرًا عارضًا آخر؟

قام شريف وأشعل الفحم، ثم أحرق العَمَل فيه بعدما التقط له صورة بهاتفه. نثر البخور واستدعى الدرداح الذي تجسَّد على هيئة رجل قصير يحمل جاروفًا، لكنه نسي -أو فشل- في تجسيد ملامح الوجه. أجفل شريف ثم مسح وجهه بكفه وقال: - هلا كففت عن التجسد في هيئات مادية؟!

- كيف هذا؟ والمعايشة؟! انظر، هذه هي شخصية حفار القبور. لا داعي للوجه.. قصدت هذا!

نظر إليه شريف نظرة شك ساخرة، ثم سأله:

- المهم.. ماذا فعلت في المهمة؟

- فعلت كما أمرت يا سيدي شريف. تسللت إلى مقابر الجن من جهة مقابر عالم البشر؛ المكان الذي يزعمون أنهم رأوا الجثث فيه. فحصت وجوههم جيدًا، لكنني لم أجد بينهم صورة المدعو رامي. لكنني وجدت.. انظر..

أنَّ الدرداح وجز على أسنانه –إن كانت له أسنان- كأنما يعاني إمساكًا، ثم جسَّد على وجه حفار القبور الممسوح صورة رجل ذي شارب، ثم شاب، ثم سيدة ستينية. هتف شريف: - ماذا تفعل؟ كفى! ستنفجر شرايينك!

استرخى الدرداح ثم قال لاهثًا:

- حاولت أن أنقل لك صور الجثث التي رأيتها هناك، لعلك تعرف أيهم.

- أحسنت يا صديقي.. أحسنت. هل يمكن أن أطلب منك خدمة أخرى؟

- بالطبع. أنا خادمك.

- لست خادمي يا درداح، أنت مساعدي. هل يمكن أن تبحث بين عهود الجن عن ساحرة اسمها حنة؟

- حنة؟ عمتي تعمل في مكتب تسجيل عهود الجن يمكنها استخراج الملف لي لو قلت لي اسم حِنة بالكامل.

- مكتب ماذا؟! للأسف يا صديقي لا أعرف اسمها بالكامل. لو استطعت معرفته سأخبرك.

رفع الدرداح يده في تحية عسكرية، فضرب رأسه بالجاروف، ثم اختفى. جلس شريف إلى مكتبه وفتح التطبيق بحثًا عن خدمة يشترك بها. وجد شخص يعرض دولارين مقابل مساعدته في تركيب مكتبة اشتراها من آيكيا، فوافق شريف وأمضى الليلة مع الرجل عبر الفيديو يُركِّبان المكتبة كأنها قطع بازل، لكن لم يساعده هذا كثيرًا على ترتيب أفكاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دق جرس باب شريف في الصباح التالي، ففتح بملابس نومه باعتباره البواب أو جامع القمامة، ليجد شابًا داكن لون البشرة، يرتدي قميصًا قصير الكُمين مع عدد مبالغ فيه من الحلي الفضية وقرطين.

- السلام عليكم يا دكتور شريف. أنا مهدي أبركان. هل لي بالدخول؟

- من أنت؟

- زوهري مثلك.

ابتعد شريف عن الباب مأخوذًا، فدخل الشاب المهذب الذي يربط إلى خصره خنجرًا ولا يخشى الشرطة ولا الفضوليين. ترك شريف الباب مفتوحًا، كأنه سينقذه من هجوم شخص كهذا. المشكلة أنه لا يعرف حقًا لماذا تركه يدخل.

جلس مهدي وأشار لشريف بالجلوس ففعل. فرق الطول بينهما يجعل شريف يبدو طفلًا.

- لن أطيل عليك. أنا مبعوث لجمع الزوهريين للوساطة بين البشر والجن. مجلس الجن الأكبر قد تشكَّل مرة أخرى بعد قرون من حله، وأول قراراته تجريم التعامل مع البشر من خلال العهود.

- اقتراح لطيف.

- وإعدام كل البشر المتورطين في هذا الأمر بأثر رجعي.

- لن أدافع عن ضالين أو سحرة، لكن بمنطق الجن والبشر، تطبيق قانون كهذا بأثر رجعي فيه إجحاف.

- أنت قلتها: سحرة.. ضالون. أي إجحاف فيمن تسببوا في ظلم الجن والبشر؟

- لا يوجد تسخير يا أستاذ مهدي. الجن وإن ساعدوا السحرة فهم ضالون مثلهم. لهم إرادة حرة وعليهم عقاب مماثل. الجريمة مشتركة.

- لم يسعَ البشر لتجريم هذا الفعل ومعاقبة ممارسيه.

- بل حرمته الأديان.

قال مهدي في برود وابتسامة واسعة بيضاء تغطي أسفل وجهه:

- ولم تحرمه القوانين. نحن نتحدث عن القوانين لا أحكام السماء. البشر لا يبالون بضرر الجن ولا البشر أمثالهم. القانون لا يعترف بالجن والسحر.

- لدي سؤال.. مَن البشر الذين قتلهم الجن ودفنوهم عندهم؟ هل حُوكِموا؟

بدا أن مهدي لا يعرف شيئًا عما يقول شريف. عقد حاجبيه وقال:

- لو حدث هذا فلا بد أنها مشاكل شخصية، ونحن الزوهريين لا نتعامل مع أشخاص بلا صفة حاكمة أو مُسيطرة في عالم الجن أو البشر.

- نحن الزوهريين لسنا مضطرين للتعامل مع أي شيء قد يكون فيه استغلال لقدراتنا. نحن أحرار!

- بل نحمل على كتفينا عبء كينونتنا.

- المسئولية عبء، وكل يحملها كما يشاء. أنا أساعد البشر والجن لأنني طبيب.. طبيب من البشر يستطيع التواصل مع الجن.

سأله مهدي إن كانت إجابته هذه تعني رفض الانضمام إليه، فهز شريف رأسه إيجابًا. زفر مهدي، ثم ألقى السلام ورحل بهدوء لم يتوقعه شريف.

أغلق باب الشقة ثم فتح هاتفه ليجد فيضًا من الرسائل من شيريهان:

«كنت ذاهبة بالصدفة إلى الـ ـ«كافيه» ورأيتك، فتراجعت كي لا تظن أنني أتعقبك.» ١١:٤٥

«مع من كنت تجلس؟» ١١:٥٢

«آسفة.. ما كان لي أن أرسل لك من الأساس. دائمًا أتعشم في الناس أكثر من اللازم» ١١:٥٣

«دكتور شريف؟ هل عدت إلى بيتك؟ أريد فقط أن أطمئن عليك. سمعت أن هناك شجارًا وقع تحت العيادة..» ١٢:٠٥

«النجدة! حسام اختفى!» ١٢:٣٧

نظر شريف إلى الساعة فوجدها الواحدة وخمس دقائق ظهرًا. لقد غفا حتى فاتته صلاة الظهر وموعد العيادة.

وجد شريف عدة رسائل من شركة الاتصالات تنبئه بمحاولات اتصال منصور وشيريهان. اتصل بمنصور فباغته الرجل يصيح: - كنت سأكسر باب الشقة عليك يا دكتور قلقًا! أين كنت؟ قرعت الباب حتى تقرح كفاي بعدما وجدت هاتفك مغلقًا. سألت البواب عنك فأخبرني أنك لم تنزل.

- كنت متعبًا ونمت يا منصور. ألغِ مواعيد العيادة الصباحية اليوم.

- لم يأتِ أحد سوى الآنسة شيريهان.

- متى جاءت؟

- حوالي الثانية عشرة أو الثانية عشرة والربع. انتظرتك ربع ساعة والتهمت كيسي بطاطس مقلية ثم رحلت.

عقد شريف حاجبيه وكاد يقول شيئًا لولا أن سقطت الثريا من السقف وتدلَّت من أسلاكها، وظهر مكانها بُرص عملاق بلا ذيل. نظر البُرص مقلوبًا إلى شريف وقال: - سيدي شريف! لا نحتاج إلى معرفة من تكون حِنة. كنت أبحث في دفاتر من يحملن هذا الاسم ورأيت صورة المرأة المدفونة في المقابر، تلك التي أريتك وجهها! هي حِنة الساحرة! لقد قتلوها!

- أتعني أن الجن قتلها رغم العهد بينهما؟ وهل هذا شائع؟

- كلا. الشياطين فقط هم من يقتلون السَّحرة بعد انتهاء عهد الدجالين بينهم. كلهم ملاعين بلا شك، لكن لم نسمع بهذا من قبل. عمومًا، أنا مررت عليك منذ قليل ولم أجدك، فعدت سريعًا أخبرك ثم سأرجع إلى..

- لحظة.. متى جئت؟!

- منذ قليل.. بحث عنك في الشقة كلها وفي العيادة ولم أجدك. سأرحل الآن يا سيدي شريف، فلدينا ضيوف.

عاد البُرص إلى الشق، وظلت الثريا مُعلقة مثل سؤال شريف: أين كنت ما لم أكن في البيت ولا العيادة؟! رن جرس الهاتف برقم شيريهان. أجاب فورًا: - شيريهان. احضري إلى العيادة حالًا.. بلا أكياس حلوى هذه المرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لماذا تلومونني؟ ما الفارق بين حِنة والخاطبة إلا أنها تقيني شر الهجر والخذلان؟ لماذا لا تستمر العلاقة بيني وبين أي شاب يا دكتور؟

- ربما لأن الطرفين أصغر من أن يختارا اختيارًا صحيحًا من البداية؟ ربما لأنك تخشين الهجر حتى أنك تدفعين الطرف الآخر لاشعوريًا لهجرك، وتمنحينه أسباب الابتعاد كي تعيشي في عقلية الضحية المفعول بها؟ شيريهان.. ربما جئتني تشكين الجنون، لكنك لست مجنونة، وأنت تشكين المشكلة الخاطئة.

عقدت شيريهان حاجبيها وقالت لتغير الموضوع:

- ما علاقة هذا بما نحن فيه الآن؟! حسام مفقود. أمي اكتشفت أنه ليس في حجرة نومه واتصلت بي تبكي. المشكلة يا شريف.. أ.. يا دكتور شريف أن ساق حسام كُسِرت الأسبوع الماضي وهو يلعب الكرة مع أصدقائه. كيف خرج ولأي سبب ولماذا ترك هاتفه المحمول؟

خط شريف على ورقة من دفتر الوصفات الطبية خطين نابعين من نقطة واحدة وقال وهو يكتب:

- هذه النقطة هي مشكلة الاختفاء، وهي مشكلة كما يبدو ما ورائية لها علاقة بالجن. تقولين أن البداية كانت مع صديق رامي الذي عرَّفه على التطبيق.

- هذا صحيح.

- لكن.. لا يمكن أن نغفل أنك متورطة في صنع تمائم سحرية يا آنسة شيريهان. أمر آخر يبدو منفصلًا لكن له علاقة بالجن.. خاصة شمروش..

ضيَّقت عينيها وهي تنظر إلى صورة العمل على هاتف شريف المحمول، وصورة العَمل الآخر الذي وجده شريف في كيس الحلوى الذي رمته في سلة العيادة في الصباح. أشار شريف نحو منتصف الوريقة وقال: - شمروش.. ألا تتذكرين هذا الأسم؟

- ...؟

- أنت قلتِ لي أنك سمعتِ صوتًا في منامك يقول أن جِنة الساحرة لها عهد مع شمروش هذا بغرض تسخيرك!

اتسعت عيناها ووضعت يدها على فمها تكتم شهقة ذعر، ثم فجأة انفجرت في البكاء وقالت من بين دموعها: - أقسم بالله لم أكن أقصد شيئًا.. كان.. رامي.. أعني.. كلما تعرفت على شاب اختفى من حياتي بلا سبب. كنت أمنحهم الاهتمام والمحبة وهم يرفضونها ويهربون. الجامعة هي فرصتي الوحيدة في انتقاء شريك حياتي.. في أن أحب وأحب بعيدًا عن زيجات الصالونات الكئيبة.. هل تفهمني؟

هز شريف رأسه، فتابعت..

- ابتعد عني رامي منذ أربعة أشهر تقريبًا بعد خلاف بيننا على غيرتي الشديدة، من وجهة نظره طبعًا، ثم بعد فترة عاد إليَّ معتذرًا. كنت أشك بصراحة أنه يعرف أخرى، ولم يعد لي إلا بعدما تخلت عنه. في يوم ترك حقيبته وهاتفه فيها معي وذهب إلى دورة المياه. دفعني الشيطان للتفتيش في هاتفه المحمول، فلم أجد أثرًا لرسائل غريبة. فتحت تاريخ البحث على جوجل لعله يشاهد أفلامًا من إياها، أستغفر الله، فلم أجد شيئًا لكن لفت نظري بحث عن الشيخة حِنةَّ الغجرية.

- ومن تكون؟

- بحثت عنها بعد ذلك من هاتفي المحمول، لعلها حبيبته.. أنت تعرف غرام الرجال بالسيدات الشعبيات الأكبر سنًا.

- افتراض غريب.. ليس كل الرجال سواء..

- فوجدت منتدى يتحدث عن معجزاتها في السحر والتحصين، ومذكور رقم هاتفها للتواصل. لم أفكر في شيء وقتها وأكملت حياتي بشكل عادي، حتى اختفى رامي في المرة قبل الأخيرة، قبل أن يعود ويكلمني عن التطبيق والدولارات. في فترة الاختفاء أكلتني الحيرة والغضب. ماذا فعلت الآن كي يختفي من حياتي؟! اتصلت بالشيخة حِنة وسألتها إن كانت تعرف رامي، ضحكت المرأة وقالت أنها تعرف مئات الرجال ولا يملأ عينها أيهم. سألتني إن كنت أغار على خطيب أو زوج، فحكيت لها كل شيء. لم يكن في حياتي من أحكي له، وبدت امرأة ثقة. ثم.. طلبت منها المساعدة..

- أية مساعدة؟

- أريد أن أرتاح من القلق يا شريف.. أريد أن أحب وأترك مشاعري على طبيعتها دون القلق من الهجر.

- أكملي.

- قالت لي أن الحل عندها. عَمل بريء يجعل من أحب يُحبني ولا يهجرني.

- والمقابل؟

- قلت لها أنني لا ملك أي مال، فقالت أنها ستفعل ذلك لوجه الله لأنها ليست ساحرة شريرة أو دجالة.

مزق شريف الورقة من الدفتر، ورسم على الورقة أسفلها خطًا واحدًا وسأل شيريهان:

- إذن، الترتيب هو.. رامي هجرك بسبب غيرتك، ثم عاد ووجدتِ اسم الساحرة على هاتفه، ثم اختفى، فتواصلتِ مع الساحرة لصنع التمائم، ثم عاد وأخبرك عن التطبيق، ثم اختفى مرة أخرى إلى الأبد.. أو هكذا نعتقد. سؤال.. كم حجابًا صنعتِ؟

زمَّت شريهان شفتيها ونظر إلى كفيها في حرج.

- صنعتِ أكثر من واحد لأنك لا تأمنين غدر من تحبين؟ لم تكوني مؤمنة بكفاءة الحجاب حتى؟

- لم أكن مؤمنة في كفاءة أي شيء أمام النحس الذي يلاحقني. قلت لنفسي هذه فرصة، المرأة لن تأخذ مني أجرًا، فلماذا لا تصنع لي مجموعة أعمال على سبيل الاحتياط؟ بعد اختفاء رامي، تواصلت مع مصطفى لنفكر فيما سنفعل، فأحببته.

- بهذه السرعة؟

- كان لطيفًا معي.. المهم، دسست في حقيبته العمل.. لكن حظي الأغبر لم يمهلني.

- لكنك قابلتِني بعدما أعطيته العمل، أليس كذلك؟

احمر وجهها ولم تُعلِّق. هي ليست استثناء؛ أغلب المصريون يعتقدون بأن الطبيب والمهندس هما العريسان الأمثلان لأي فتاة، وكأن مجموع الثانوية العامة الذي أدخلهما هاتين الكُليتين هو نفسه الذي سيشفع لهم في مكتب تنسيق الزواج.

طلب شريف منها رقم جِنة –التي كان يعرف أنها قد ماتت بالفعل- لعله يجد طرف خيط هناك، ثم قال لها: - هل معكِ المزيد من الأعمال؟

هزَّت رأسها نفيًا وهي بعد تنظر إلى كفيها.

- آنسة شيريهان، أريد فقط أن أخبرك أمرين، الأول أن متابعتك الزائدة للشخص الذي تعجبين به سيجعله يفر منك. اتركي مساحة شخصية للطرف الآخر يتحرك فيها. «اتقلي» كما تقول أمي لأختي دائمًا. يمكن أن أرشح لك مختصَّة في العلاقات تسعدك على تخطي هذه المرحلة.

- لكني.. أعجبت بك حقًا! لماذا لا تمنحني فرصة؟ أنت طبيب نفسي، يمكنك أن ترشدني أنت. كيف تريدني أن أعاملك؟

ابتسم شريف بخفة، وكتب على ورقة أخرى اسم وعنوان المختصة في العلاقات، ثم دفع ما كتب نحو شيريهان وقال: - لا توجد وصفة سحرية للحب.

أريدك أيضًا أن تلتزمي بقراءة القرآن كل ليلة حتى نفهم ماذا يحدث. لا تستخدمي البرنامج مرة أخرى. احذفيه.

هزت شيريهان رأسها، واتجهت إلى الباب في تثاقل كأنها تريد أن تقول شيئًا وتكتمه.

- عنوان ورقم الأخصائية يا آنسة شيريهان.

- لا داعي. المفترض أن أدرك أن الطبيب لن يتزوج سوى طبيبة. لماذا قد تلتفت لي؟

رفع شريف إصبعه وقام وهو يقول:

- نسيت.. الأمر الثاني الذي أود أن أخبرك به. العَمل الذي كتبته جِنة لك ليس ضمانًا للمحبة، بل تسخير لك أنت.

رفعت حاجبيها دهشة، فأضاف:

- لا يوجد سحر دون معرفة اسم المسحور له، أليس كذلك؟ كأنه رسالة دون عنوان.

- نصبت عليَّ؟

- أتمنى لو أن هذا ما حدث. لكنها للأسف، سحرتك أنتِ.

تهاوت شيريهان على المقعد الجلدي جوار الباب، واصفر وجهها ففكت بدبوس حجابها السفلي وحركت يديها أمام وجهها كأنها تطلب الهواء.

- منصور! كوب ماء! آنسة شيريهان، بمَ تشعرين؟

- أختنق.. أنا أختنق.. هي لن تتركني أخبرك بشيء..

قامت شيريهان تجوب الحجرة في خطوات مترنحة كأنها تبحث عن هواء. دفعت شريف جانبًا وسارت نحو النافذة، تشممت الهواء، ثم استدارت عائدة نحو باب الحجرة.

- أنا محبوسة.. لا مخرج.. لا مخرج..

فتح منصور الباب وهو يحمل كوب ماء، فدفعته شيريهان وانطلقت تجري نحو باب العيادة وهي تصرخ:

- أين المخرج؟! ما كل هذه المرايا؟!

هرع شريف خلفها، فرآها تسير نحو المصعد، ثم تختفي فجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليوم ونصف لم يجد أحد أثرًا لشيريهان.

جلس شريف ساعات يبحث على صفحتها على فيسبوك عن أقربائها، لكن الحل جاءه أسرع مما توقَّع. اتصل به والدها موجه الرياضيات السيد عبد الحليم أبو النجا في اليوم التالي لاختفائها، وكان غاضبًا لسبب ما.

- لم أكن أعرف أنها تزور طبيبًا نفسيًا. لماذا لم تقل لي هذه «البهيمة»؟!

- ربما كانت مُحرجة. هي لم تفعل شيئًا خاطئًا.

- المشكلة يا دكتور أنها لم تخبر أمها حتى بهذا سوى أول أمس. استيقظت «المدام» فلم تجد حسام ولا شيريهان. اتصلت بشيريهان فأخبرتها أنه ليس معها، ومن المستحيل أن يتحرك وحده. سألتها أمها عن مكانها، فقالت أنها في الجامعة، لكن المدام لم تصدق. حاصرتها بالأسئلة، فاعترفت لها أنها عند طبيب نفسي ولم تخبرها اسمك. عرفناه لاحقًا من صديقتها المقربة بعدما شيَّبت شعر رؤوسنا من كثرة «الملاوعة».

شرد شريف لحظة، ثم سأل الرجل:

- يبدو أن هناك مشكلة ثقة بين المدام وآنسة شيريهان. لماذا شكَّت في أنها ليست في الجامعة؟

- من كثرة «الملاوعة». لست غريبًا يا دكتور ولعلها حكت لك.. شيريهان فتاة ذات خلق، لكنها كغالبية الفتيات مخبولة قليلًا. «كلمة توديها وكلمة تجيبها» كما يقولون..

حكى الأستاذ عبد الحليم عن ابنته التي بدأت مشكلاتها العاطفية منذ مراهقتها. اكتشفوا أكثر من مرة أنها لا تذهب إلى الدروس الخصوصية، وتخرج مع زميلاتها لمقابلة بعض الشباب في كافيه. لم يكن لشيريهان حبيب منهم، لكنها كانت تذهب معهن لعل وعسى يرها أحد. أضاف عبد الحليم: - هي الكُبرى.. وأظننا بالغنا في الاهتمام بأشقائها الأصغر ونسيناها..

صمت عبد الحليم بعدما اختنق صوته بالدموع. قال شريف:

- لا بأس.. هوِّن عليك.

- كنت.. كنت «أقطم» رقبتها في كل مرة نعرف فيها أنها لم تذهب إلى الدروس. التحقت بالجامعة، ومرة أخرى نسمع همساتها في الشرفة تكلم هذا الشاب أو ذاك.

- ومرة أخرى «تقطمون» رقبتها؟

- بالطبع. قل لي ماذا أفعل مع فتاة بهذه الطباع؟! لم يتقدم لها أحد يوحد الله ممن عرفتهم. كلهم طلبة جامعة مثلها على باب الله، وأنا يا دكتور أقضي يومي كله من درس لدرس كي أستطيع أن أكفي هذا البيت. شابة وثلاثة ذكور يأكلون ويتعلمون و.. أنت تفهمني؟

- قطعًا أفهمك.

- الفتاة الأخرى صديقتها لا تتخير عنها وإن كانت قد خُطِبت منذ عام أو اثنين لأحد أصدقاء أخيها الأكبر. سرها معها منذ كانتا في الثانوية وبالكاد عرفنا منها اسمك. والآن يا دكتور، ما طبيعة العلاقة بينكما؟! أين ابنتي؟

أجفل شريف، ونقل الهاتف إلى أذنه الأخرى هو ينظر عبر نافذة شقته إلى الشارع الصاخب بالأسفل. سأله: - ماذا تعني؟ هي مريضة وأنا طبيب. لا أكثر ولا أقل.

- لماذا قالت صديقتها إذن أنكما متحابان؟! لقد أخبرتها شيريهان أنك وقعت في حبها من النظرة الأولى! أي نظرة يا دكتور يا محترم؟ أين ابنتي؟

لو لم يكن شريف يمسك الهاتف بيده، لضرب كفًا بكف. هذه عائلة مخبولة بالكامل. الرجل كان يتحدث بعقلانية في البداية، ثم فجأة تحوَّل لدرجة اتهامه. يفهم شريف أن احتمالية أن تكون شيريهان معه أفضل عند الرجل من أن تكون هربت أو ضاعت في الظلام للأبد. ألاعيب النفس التي لا تظهر إلا في أحلك المواقف، ومع أقسى الشخصيات.

شرح شريف لعبد لحليم طبيعة مشكلة شيريهان النفسية، وأوضح له أن هذا ليس انحرافًا أخلاقيًا، بل حرمانًا عاطفيًا شديدًا. لم يُعلِّق الرجل وتفهَّم شريف موقفه. في النهاية وعده أن يحاول مساعدته قدر الإمكان، وإن تواصلت معه شيريهان سيبلغه حالًا ويقنعها بالعودة إلى بيتها.

- هل يعني هذا يا دكتور أنها ليست معك؟

- بالتأكيد. هي رحلت بعد جلستها.

- أريد أن أخبرك يا دكتور أننا نتشرف حقًا بمعرفتك، وإن كنت تقلق بصدد الجهاز والمقدم والمؤخر والقائمة، فنحن نشتري رجلًا...

قاطعه شريف وهو يحدق إلى المقهى في البناية أمام بيته:

- أستاذي العزيز، أنا طبيب شيريهان لا أكثر ولا أقل. سأتواصل معك فور معرفتي بأي شيء، واتصل بي إن احتجتني.

أغلق شريف الخط وهو يفتح الخصاص أكثر ليتأكد مما يرى؛ شاب داكن البشرة يجلس في المقهى البلدي أمام البناية، يرتدي حُليًّا فضية أكثر من اللازم، ويتدلى من خصره خنجر لا يبالي بالناس أو الشرطة.

نزل شريف على الفور متجهًا إليه، فلم يتحرك مهدي من مكانه، إنما وضع كوب الشاي على الطاولة جواره ونظر إلى شريف لا مباليًا.

- ماذا تفعل هنا؟

- أشرب الشاي.

- أنت تفهم ما أعنيه. لماذا تراقبني؟

- لا أراقبك يا شريف.

- إذًا لماذا تجلس هنا تحديدًا؟

- أباشر عملي. ولا تسألني عن تفاصيله كما لن أسألك أنت عن تفاصيل عملك. أنت اخترت، فالزم اختيارك.

زفر شريف، ثم جلس على المقعد المقابل لمهدي وسأله وهو يتحاشى النظر إلى وجهه بارد التعبيرات:

- كيف عرفت أنني زوهري؟ كيف عرفت عنواني؟

- جدك زوهري ولي الصالحين، من أرقى مناصب الزوهريين، ويورث قدراته لنسله، على عكس الزوهريين العاديين الذين يكتسبون قدراتهم بالميلاد ومزج دمهم بدم الجان.

- أنت تعرف جدي إذًا.

- ومن لا يعرفه؟

- وأنت؟ ولي الصالحين؟

- كلا. لكنني أطمح إلى هذه المنزلة.

التفت شريف إلى مهدي وسأله:

- مهدي.. لو انضممت إليكم، ماذا سيكون دوري؟

- ستعرفه إن انضممت.

اتسعت ابتسامة مهدي الباردة كأنه يتحداه بإثارة فضوله.

وضع مهدي خمسين جنيهًا تحت كوب الشاي، وانصرف دون أن ينتظر الباقي. هتف شريف:

- إلى أين ستذهب؟

- مكان آخر، وساحر آخر.

رغب شريف في أن يلكم تلك الابتسامة البيضاء المستفزة. صعد إلى عيادته وهو يتمنى لو أن في حياته شخصًا واحدًا يتحدث إليه بصوت مسموع. ثمة ثغرة أو أكثر في قصة شيريهان، خاصة في ضوء ما قاله أبوها عنها، لكن ما هي؟! بل إن الثغرة كانت واضحة في ذهنه منذ أيام، لكنها تتراجع دائمًا مع تدافع الأحداث وتزايد الأسئلة. أين ذهب أثناء نومه؟ هل حدث له ما حدث مع حسام وشيريهان؟ كيف جرؤ جني على اختطافه وهو زوهري؟! بل حفيد الحاجّ زاهر شخصيًا!

جاء منصور يحمل إليه الشاي والنعناع وهو بعد في ملابس نوم العصر الذي يواظب عليه بين موعدي العيادتين. وضع الشاي على المكتب وقال وهو يفرك عينيه المحمرتين: - لديك استشارة لابن جبال الأنباط.

- فقط؟

هز منصور رأسه إيجابًا، ثم أضاف:

- وتركت لك آنسة هذا الرقم لتتصل بها. تقول أنها من طرف شيريهان.

سحب شريف الوريقة من يد منصور بسرعة، ثم طلب منه الانصراف. اتصل بالرقم ليسمع صوت شابة تتساءل عمن يكون.

- دكتور شريف الصاوي. تركتِ لي رقمك في العيادة.

تهلل صوتها وإن أبقت عليه منخفضًا وقالت:

- دكتور شريف. حمدًا لله أنك اتصلت بي. ترددت كثيرًا في التواصل معك. أنا مخطوبة كما تعلم ولا أحب الاتصال بالرجال دون داعٍ.

- تفضلي. أسمعك.

- أعرف أن شيريهان كانت عندك يوم اختفت.

- كانت في عيادتي. صحيح.

- و.. أعرف أنها اختفت، ولم تهرب أو ترحل. اختفت.

- ماذا تعرفين يا آنسة.. ما اسمك؟

- رضوى.

قالت رضوى -المخطوبة- أن السبب في اختفاء شيريهان ببساطة قرينتها.

يسأل شريف نفسه وهو يغمض عينيه ويُرجع رأسه إلى الوراء: قرينة؟ ماذا تعرف يا شريف عن القرين؟ حكايات من طفولة بدت بعيدة. الحاجَّة مريم تُجلسه جوارها وهي تخبز، وتحكي عن القرين الذي يلازم الإنسان، فيُضله أحيانًا، ويعشقه عشقًا مرضيًا أحيانًا. كانت تقول له: لا تُطل النظر إلى المرآة يا شريف. أنت وسيم مثل أمك، وأخاف عليك من أن يقنعك قرينك أنك دميم غيرةً منك!

يتذكر حالة من أولى الحالات التي تعرض لها في عمله. أب يشكو من أن ابنه ذا العشرة أعوام لا يفارق والدته أبدًا، فقرر إنجاب طفل آخر لعل وجوده يقلل من الرباط المرضي بين وبين أمه. حين بلغ الطفل الأصغر الرابعة، طلب من أخيه كوب ماء، فذهب الأخ، لكن من عاد من المطبخ رجل ضخم أسود يحمل الأخ الأكبر فاقد الوعي، ثم اختفى به. شك الأبوان في حكاية الطفل، لكنهما لم يجدا بكريهما في أي مكان. جلبا شيخًا بناء على نصيحة الأقارب، فقرأ القرآن حتى الفجر، وظهر الطفل خلف البيت مغطى بغطاء أبيض، ولا يذكر أي شيء عما حدث له. قال الأب أن ابنه يختفي بين الحين والآخر لدقائق ثم يعود من تلقاء نفسه، ولا شاهد على هذا الاختفاء إلا الأب، ويطلب الرجل من شريف أن يطمئنه إلى أن ما يحدث له هلاوس جراء الصدمة التي تعرض لها من اختفاء ابنه من قبل، وأن الطفل خطفه بشري ثم خاف وأعاده، وأنه لا يوجد قرين.

أجل، الأمر مفزع، ويفضل الناس الجنون على الإيمان بأن ما يحدث لهم من الجن حقيقة... لكن ليس كل الناس..

سمع من أمه عن قريبة لهم كلما حملت أجهضت، ويلومها أهل زوجها على هذا ويتهمونها بالضعف والإهمال. ادعت هذه المرأة أن آخر جنين مجهض كان بين كتفيه أثر كف أزرق، وهذا دليل لا يُدحض على أن إجهاضها بفعل القرينة الشريرة «أم الصبيان».

هل يؤمن شريف بكل هذا؟ هو الزوهري، الذي يستقبل مرضى الجن ويرى جده يطير في الهواء ويطوي المسافات طيًا ليُصلي العصر في القدس والمغرب في الحرم؟ يقولون أنها هذه كرامات الأولياء، ويقولون أنه تسخير للجان، ويقولون أنه كذب وهلاوس.. يقولون..

- أنا صديقة شيريهان منذ المدرسة الثانوية. شيريهان جميلة، لكنها منطفئة، لا تجذب أي شخص لا رجلًا ولا أنثى. لم تعد تثق في نفسها ولا تفهم سر تخلي

الصديقات عنها بعدما يسأمنها. الحقيقة يا دكتور أنا نفسي وجدت صعوبة في الاستمرار في صداقتها. لا لعيب فيها، لكن.. لكن لأنها غير موجودة.. حضورها باهت لا رأي لها ولا صوت.

قالت رضوى أن قُبيل امتحانات الثانوية العامة، اختفت الصديقات من حياة شيريهان لظروف المذاكرة، ففسرت شيريهان الأمر على أنه تخلٍ منهن عنها، وأنها فقدتهن إلى الأبد. قالت لها في مرة: «لا أحد يسأل عني ونحن بعد في مدرسة واحدة، ماذا سيحدث عندما تذهب كل واحدة إلى كُلية مختلفة؟ أنا وحيدة، ويبدو أن هذا قدري.»

في لقاء مع رضوى في درس التاريخ للمراجعة النهاية، لاحظت الأخيرة أن شيريهان تحدق إلى مرآة «النيش» خلف المُدرس في ذعر. بعد الدرس اعترفت لها أنها فكرت في التواصل مع قرينتها معلله قرارها بأن: «هي أنا، أليس كذلك؟ لن تتركني! بيننا رباط لا يُقطَع! ماذا لو تصادقنا؟»

- قالت لي شيريهان أنها وقفت أمام مرآة الحمام وأطفأت النور، ثم ظلت تُردد اسمها بالمقلوب ناهيريش.. ناهيريش.. حتى رأت انعكاس وجهها يظهر في الظلام، لكن الانعكاس كان ذا بشرة سوداء تمامًا وشعر أبيض. كأنه صورة سلبية «نيجاتيف». صرخت شيريهان وهرعت إلى حجرتها تصلي وتقرأ القرآن حتى اليوم التالي. لكنها كلما نظرت إلى مرآة، رأتها تبتسم وتلوح لها.

- ألم يكن هذا ما أرادت؟ التواصل؟

- لكنها خافت حين رأت شكل القرينة. انشغلنا في الامتحانات، تراجع أداء شيريهان فيها، ثم جاءت عطلة نهاية العام، وسافرت مع أسرتي للمصيف قبل ظهور النتيجة كي نتحاشى «النكد» المتوقَّع منها. لم أتواصل مع شيريهان كثيرًا وقتها إلا من خلال بضع رسائل على واتساب. لم تحدثني مرة أخرى عن القرينة ولم أسألها. كنت مرعوبة من الفكرة.

ثم دخلت الفتاتان نفس الكلية بعد حصول شيريهان على مجموع أقل مما توقعه لها الجميع. «قطم» أبوها عنقها كالعادة، ثم استسلم؛ لا سبيل إلا الزواج، فهو يساوي الفتيات ببعضهن. لم يصرح بهذا، لكنه نقله لا شعوريًا للأم، التي لم تجد مفرًا سوى سؤال ابنتها يوميًا عن أحوال الجامعة، وهي تبتسم ابتسامة على الحد الفاصل بين «هانفرح بكِ إمتى؟ هذه آخر فرصة.» و«ويل لك لو جئت لنا بالعار.»

تعرفت شيريهان على شاب يُدعى علاء، لاحقته بالشطائر والمكالمات والهدايا.. ثم قرر أن زميلتهما ميرنا أجمل، و»أتقل»، فارتبطا.

- تكرر الأمر مرتين قبل رامي، وقبل أن أخطَب أنا. لا أقول أن شيريهان شعرت بغيرة مني بعدما خُطبت، لكن أمها هي التي حزنت أكثر من اللازم. تراجعت شيريهان عن حياتي من يومها، واتسعت الفجوة بيننا نوعًا..

دعت رضوى أن يتمم الله لشيريهان أمر علاقتها برامي، فما أجمل أن تتصادق المخطوبتان وتتشاركا تفاصيل جهازيهما واستعدادتهما للزفاف، ومشاكل الخطوبة الفريدة التي تثير الغيرة بين الفتيات. مع استمرار علاقتها برامي على نفس طريقة الاهتمام الزائد، وإعلام الجميع أنهما مخطوبان، حتى أنها اشترت دبلة من الذهب الصيني وورطته كي تُبعد الأخريات عنه، ثم حدث أمر غريب..

- لم أكن قريبة من شيريهان في هذه الفترة كما أخبرتك من قبل، ولا أعرف إلا ما يحدث في الكُلية أمامي. حدث أمر غريب، إذ اختفى علاء في ظروف غامضة، ولم يكن له نشاط سياسي ولا إجرامي ولا أي شيء مما يختفي الناس بسببه.

قال شريف واسترعى الأمر انتباهه:

- علاء اختفى؟! كيف؟

- هكذا. بلا أثر. لم أكترث وقتها طبعًا. بعدها بأسبوعين مثلًا، اختفى حازم.

- وهو الشاب الذي عرفته بين علاء ورامي، وليس له أنشطة مما يختفي لأجلها الناس، أليس كذلك؟

- بلى. كان من أصل صعيدي، وقيل أنه قُتل ثأرًا. مرة أخرى لم أعبأ لهذا. صدفة.. لكنني لاحظت شماتة وانتصارًا على وجه شيريهان أرعدانني. شيريهان ليست بهذا الخبث ولا الشر. متى تغيَّرت هكذا؟ الفتيات المخطوبات أمثالي لا يركزن مع الأخريات كما تعرف.

- طبعًا، مفهوم. آنسة رضوى، هل تعرفين تطبيقًا اسمه يدًا بيد؟

- كلا. ما هذا؟

- لا شيء. أكملي..

- لاحظت أن رامي بدأ يتضايق منها ويبتعد فترات فلا أراهما في الكافيتريا سويًا، ثم يعودان كأن شيئًا لم يكن.. ثم.. اختفى علاء، ورأينا جميعًا الفيديو الذي صوره من الصحراء. بعدها اختفى مصطفى، ثم حسام! ما الشيء المشترك بين كل هؤلاء؟

فكّر شريف قبل أن يجيبها أن التطبيق عامل مشترك، لكن.. كل المختفين أحبتهم شيريهان، ما عدا حسام.. هو نفسه اختفى وعاد، فهل سيختفي للأبد قريبًا. أجابها: - شيريهان.

- بالضبط. بعد اختفاء رامي تحديدًا، اتصلت بي وكانت منهارة. تصورت أن هذا بسبب حبها له. ظلت تقول لي: «أنا السبب»، وفهمت أيضًا أنها اعتبرت نفسها سببًا لهربه أو انتحاره أو أيًا كان. لم أعر الموضوع اهتمامًا كبيرًا، فأنا مخطوبة كما تعرف ولا وقت لدي لهذه لأمور. ثم وجدت مصطفى يرسل لي رسالة على فيسبوك..

- هل أنتما صديقان؟

- كلا بالطبع؛ أنا مخطوبة. لكنه لا يعرف لشيريهان صديقة سواي، فراسلني يسألني عن شيء غريب. بعد التحية الاعتذار عن الإزعاج، سألني: «هل شيريهان هذه (مخاوية)؟» وتذكرت فجأة أمر قرينتها القديمة. طلبت منه أن يختصر ويحكي ما حدث، فأنا مخطوبة ولا يصح أن أرد عليه، لكنني أفعل إكرامًا لشيريهان فقط.

حكى مصطفى لرضوى أنه بعد اختفاء رامي، اتصلت به شيريهان تبكي وتسأله إن كان يعرف مكانه. سأل عنها في الصباح التالي من باب الأخوَّة، فلاحقته بالرسائل تسأله «هل أكلت؟»، «هل وصلت إلى بيتك؟».. إلخ. لم يمانع مصطفى في البداية من الاهتمام، ولم يكن ليمانع لولا أن رأى شيريهان تنظر إليه من مرآة حجرة نومه ليلًا كأنها تراقبه وهو نائم، لكنها كانت سوداء البشرة، بيضاء الشعر والعينين.

رآها مرة أخرى في انعكاس باب فرن الموقد الذي يشبه المرآة وهو يتناول إفطاره في الصباح، وحين أدركت أنه رآها اختفت. مرة ثالثة وجد وجهها يحدق إليه من انعكاس صورته على مرآة الحافلة التي يستقلها إلى الجامعة. كلما حاول سحب نفسه بعيدًا عن شيريهان، تشبثت به أكثر، وراحت تحكي له تفاصيل حياتها الدقيقة كأنها تورطه أكثر أو تستدر تعاطفه حتى أنه قد شك أنها تؤلف حكايات عن اضطهاد إخوتها لها، وتفضيل أبيها لأخيها الأصغر. سأل شريف: - حسام؟ هل كان بينهما مشاكل؟

- غيرة عادية على ما أعتقد. والدها من النوعية التي تعتقد أن الرجال لا يجلبون العار، وقد سعد كثيرًا بإنجاب حسام ثم أخويها الأصغر، حتى أنه نقلها من حجرتها بعدما أنهت الثانوية العامة، إلى حجرة مشتركة مع أخويها الأصغر ليحتل حسام الحجرة والكومبيوتر. قال أن حسام شارف على الثانوية العامة ويحتاج إلى خصوصية للاستذكار. المشاكل العادية يا دكتور.

ثم اختفى مصطفى، وبعده حسام. كانت آخر مكالمة بين شيريهان ورضوى قبل اختفاء الأولى بقليل، أخبرتها فيها أنها تحب طبيبها النفسي وهو يحبها، وأنها ورطته في أمر لا تستطيع التراجع عنه ولا الحديث عن تفاصيله بشكل مُباشر وإلا عُوقِبَت. وأعطتها عنوان عيادة شريف ولم تخبرها ما المطلوب منها.

- ثم اختفت. عرفت من أمها التي اتصلت بي تسألني عنها. أعتقد يا دكتور أن قرينتها هي السبب. لا أعرف إن كنت في خطر لأنني أخبرتك أم لا. أشعر بذنب مريع لأنني كنت السبب بشكل ما في وحدتها. أنا مخطوبة كما تعرف، والمخطوبات مشغولات..

- مفهوم.. لحظة يا آنسة رضوى.

احتاج شريف إلى دقائق يجمع فيها أفكاره. سحب دفتر الوصفات الطبية وخط عليه كلمة القرينة.. القرينة هي كائن ما استحضرته شيريهان، يبدو أنه ينتقم من الرجال الذين خذلوها أو ضايقوها فيخفيهم. هل هناك المزيد ممن اختفوا بعد مضايقة شيريهان؟ لماذا الرجال فقط؟ أهو أمر نسوي بحت بين امرأة وقرينتها؟ هل شريف مُستهدف لأنه خذلها؟ هل شعرت شيريهان بالذنب بعد اختفاء أخيها؟ أم أنه اختفى دون قصد؟ هو ليس حبيبها على أية حال. ما علاقة كل هذا بالتطبيق؟ ما علاقته بالسحر الذي صنعته شيريهان عند حِنة إن كانت القرينة هي المسئولة؟ لماذا زارت طبيبًا نفسيًا من الأساس؟

ثم ضرب شريف جبهته بيده كمن يلعن غباءه. استعاد شريف حواره مع شيريهان في أول جلسة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وما سبب مشكلتك غير الصدمة طبعًا جراء اختفائه؟

- أخي حسام.. منذ بدأ في تنفيذ المهام وهو يعاني مشاكل في النوم ليلًا، ثم بدأ يختفي لفترات قصيرة لم نلاحظها في البداية لأن أغلبها ليلًا.. ثم اختفى منذ ثلاثة أيام لمدة ست ساعات..

- ماذا عن زميليكما؟

- نفس الشيء. نفس الاختفاءات.. أنا لم أنفذ أي مهام بعد، لكنني أفكر في أن أجرب.. أن أعرف بنفسي ماذا يحدث بالضبط. لا يوجد شيء مثل هذا في الكون! أنا جُننت.. لا بد أنني أتخيل كل هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما الذي دفع شيريهان لاستنتاج أن للتطبيق علاقة باختفاء رامي من الأساس؟! كيف عرفت أن الولد يختفي ولم تعلق؟ لقد أوعزت له بذكاء شديد أن التطبيق السبب وأثارت فضوله لاستخدامه. شيريهان من يستخدم هذا التطبيق، واختارته هو بالذات لسبب. ما هو؟ ما المميز فيه؟

بالتأكيد ليس وسامته..

لم تتعجب شيريهان بالقدر الكافي حين أعطاها رمز الزوهريين. شيريهان تعرف أنه زوهري.. مهدي يعرف.. لا يوجد من دخل حياته مؤخرًا سوى هذين..

- آنسة رضوى.. شكرًا جزيلًا لمساعدتك، واتصلي بي فور معرفتك بأي تفاصيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اضطر شريف لتأجيل بحثه في أمر شيريهان كي يستقبل مريضيه من الجن اليوم. ابن جبال الأنباط في تحسُّن، لكنه يعاني مشكلة أغرب. قال من خلف الحاجز بينه وبين شريف: - قلت لنفسي أن العمل سيشغلني عن إدماني، فقررت أن أعمل في أي وظيفة حتى لو كَنَّاس. لكن مرة أخرى –وحسبي الله في شمروش– لم تعد تلك الوظائف حتى متاحة.

- وماذا فعل شمروش؟

- أبدًا. لا شيء واضح في هذا العالم «المخروب». أنت تعرف أننا ننام نهارًا بتوقيتكم، ونقوم لنجري على أرزاقنا ليلًا. حين ذهبت لأسجل في مكتب الخدمات، قالوا لي أن تلك الوظائف الدنيا قد ألغيت، وعينت الحكومة فيها موظفين من «الخارج». ما هو الخارج؟ ولماذا لم نعد نرى كناسين ولا عُمالًا؟ هز الموظف كتفيه، ثم ردد ما يقوله رجال شمروش علنًا: سنفعل ما يلزم لاستعادة كرامة الجن كاملة، ولن يعمل جني في عبودية جني أو إنسي بعد الآن. كلام جميل، لكن من أين نأكل؟!

يدور كل شيء حول شمروش وقراراته، والرابط الوحيد بين العالمين حتى الآن هو شيريهان، التي اختفت. قال الجني غاضبًا: - أنا غاضب. حانق! كل شيء ضدي في هذا العالم! لقد سئمت!

اشتعل الفراش خلف الحاجز فجأة، فهرع شريف ينادي منصور ثم أمسك أسطوانة إطفاء الحريق جوار مكتبه –وجودها منطقي هناك- ورش الفراش حتى خمدت النار الخضراء. دخل منصور ووقف مكانه لحظة، ثم لطم خديه وقال: - نظف الحريق يا منصور.. أرسل الـ «شازلونج» للمنجد يا منصور.. أنا تعبت يا دكتور! والله لأتركن هذه العيادة للأبد..

استدار منصور ليخرج من الحجرة، فناداه شريف وهو يقترب منه سريعًا:

- منصور.. انتظر..

التفت منصور نحوه، فقال شريف:

- منصور.. ماذا يحدث؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منصور هو شقيق أحد الفلاحين الذين يعملون في أرض الحاجّ مدحت، شقيق الحاجّ زاهر غيرُ الزوهري، وزوج الحاجَّة مريم التي عرَّفت شريف كل شيء عن الجن من حكاياتها العفوية. خدم منصور الحاجّ زاهر منذ كان في الخامسة والعشرين من عمره، واعتاد على زيارات الجن حتى رشحه الحاجّ زاهر ليعاون شريف في عيادته. لا يوجد من يصلح لهذه الوظيفة سواه. أحيانًا يشعر شريف أن منصور أحد أقربائه، بل هو أقرب له من جده شخصيًا، ورحيله لا يعني شيئًا سوى الوحدة الكاملة لشريف في غياب الشخص الوحيد الذي يحترم اختياره ويعينه عليه رغم تذمره. قال شريف لمنصور: - والآن، وبعدما عرفت كل ما أمر به الفترة السابقة.. ماذا أفعل؟

نظر منصور إلى شريف الجالس على كرسي المرضى الوثير، وقال:

- أتكتم كل هذا يا ابن الحاجّ زاهر؟

- أنا ابن أسامة وسهير كذلك يا منصور. هذا جزء من مشكلتي.

- كان الحاجّ مدحت يقول لي وأنا صغير: «اختر الوجهة قبل الدابة.» أين تريد الذهاب يا بُني؟

- أريد أن أظل حيث أنا.

- هذا ضد طبيعة الكون يا دكتور. سبحان من يغير ولا يتغير.

- أنا أتغير.. أنضج.. لكنني أريد أن أظل شريف لا أكثر ولا أقل.

سأله منصور:

- أن تظل من الشعب الغلبان؟.. مثلي؟

ثم ضحك في مرارة، وأردف:

- نحن لا نرى إلا ما يوقعه القدر في طريقنا. لن تعبر الحاجز إلى عالم الجن بحثًا عن قرينة شيريهان هذه.. أم أنك تريد ذلك؟

ثمة حاجز وضعه بإرادته بين طبيعته كبشري وطبيعته النارية التي تسري في دمائه كفيروس كامن.

زمَّ منصور شفتيه، ثم استدار خارجًا من الغرفة وهو يقول:

- أنصت إلى نفسك يا بُني، ولا تتأثر بأحد. سأحضر الدلو والممسحة، وأتصل بالمنجد..

صعد شريف الدرج إلى شقته، وهو يحمل هم أن يجد جده بالداخل؛ لن يتحمَّل المزيد من التقريع. فكّر في أن يكتب منشورًا تثقيفيًا على فيسبوك عن الهوة التي تتسع بين الآباء والأبناء بسبب توقع اللوم المستمر وغموض الذنب الذي اقترفه أي من الطرفين. الهوة تتسع من الجانبين، لا واحد فقط.

تراقص ضوء مصباح السلم حتى انطفأ، ثم شعر شريف بقط ينزل الدرجات سريعًا وهو يموء مواءً طويلًا حتى ارتطم بالحائط خلفه. أضاء شريف كشاف هاتفه فرأى كتلة سوداء في حجم القط تتكوم عند الركن. اقرب ببطء منها، فانتفضت حتى وقفت على قائمتين خلفيتين وقالت: - سيدي شريف! معذرة.. لا أظن القطط تنزل على الدرجات مسرعة بساقين فقط. لا بد من أربع. سأراعي هذا في المرة القادمة.

- الدرداح! كفاك دراما يا صديقي. تجسد على شكل كرة المرة القادمة ولا تكلف نفسك عناء التفكير. هل من جديد؟

- البشر في عالمنا يتزايدون. لي خالة تعمل في مكتب التوظيف وتقول -وهذا سر- أنهم استبدلوا العمالة الجنية بأخرى بشرية. عبيد! كلهم من شباب الإنس.

- هل تستطيع أن تجلب لنا أسماءهم؟

- إحم.. اعذرني يا سيدي شريف، فخالتي واسعة الذمَّة قليلًا. طلبت منها هذا بالفعل، ففتحت درج مكتبها الأيمن وابتسمت.

- تريد رشوة؟! حسنًا.. لا أظنها تريد المال.

- كلا. ولا أستطيع أن أخبرك عما تريد.

- لماذا؟

ازداد طول فراء القط الأسود -الدرداح- وابيض لونه، فتحول إلى قط شيرازي سمين أزرق العينين، بلا قائمتين أماميتين. شعر شريف أنه رأى هذا القط من قبل في مكان ما وأن اسمه.. مشموش؟! من أين له بهذا الاسم؟

- الحقيقة.. أكثر شيء مطلوب في عالمنا الآن -وهذا سر- هو دماء الزوهريين.

ثم همس الدرداح:

-يقولون -بالله هذا سر- أن الأختام السبعة لتحرير مشكاح قد اكتملت، وينقصها دم زوهري.

- من أين تعرف هذه الأسرار؟!

- مواقع التواصل الاجتماعي، لكنها فيما تسمونه أنتم الإنترنت المظلم. هو ليس إنترنت بالضبط، بل حلقة وصل بين العالمين. أنت تعرف هذه الأمور.

هز شريف رأسه كأنها معلومة منطقية، ثم سأله:

- أعتقد أن الزوهريين يملأون عالمكم.

- ومن يجرؤ على اعتراض طريق أحد الزوهريين يا سيدي شريف. أنت تعرف أنني أحبك كثيرًا وأفديك بروحي، لكنك.. لكنك أكثر الزوهريين الذين رأيتهم براءة! لا تغضب من خالتي، فثمن معلومات هامة كهذه باهظ كما تعلم، وهي أمَة المأمور..

حمل شريف القط –الدرداح- وصعد إلى شقته وهو يسأله:

- طيلة عمري لا أفهم فكرة وجود الدماء في صنع أو فك السحر.

- في حالة مشكاح، هو يحتاج إلى دماء صنفي الكائنات الذين قيدوه، البشر وهذا سهل، والزوهريين. لم يكن مشكاح ليعبر بكينونته ليُحبَس في عالمكم دون عون الزوهريين، لكنني درست في التاريخ أن الجن يعتبرون الزوهريين بشرًا، لذا لم يُذكروا كجنس مستقل فيما درسنا عن تقييد مشكاح.

فتح شريف الباب، فباغته هاتف يرن برقم رضوى:

- النجدة يا دكتور! شيريهان حبيسة المرآة! افتح الفيسبوك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتصل عبد الحليم بكل من هم في قائمة هاتفه يخبرهم بالكارثة التي اكتشفها؛ شيريهان تطل عليهم من داخل المرآة، وتضربها بكفيها في ذعر. دخل شريف إلى الشقة المكتظة بالأقارب والأصدقاء، بعضهم يرفع هاتفه المحمول يصور ما يجري ويبثه مباشرة على فيسبوك، بل إن منهم من تجرأ وأرفق حساب شيريهان بالفيديو كأنه فيديو زفافها. اتصل شريف بوالدها الذي كان في حال يرثى لها، وطلب منه العنوان، فأعطاه له دون مقاومة.

اخترق شريف الجموع إلى حيث شيريهان في مرآة الحمام تستغيث. ما أن رأته حتى أشارت له أن يبتعد وهي تشير نحو الباب كأنما جُنَّت. حركت شفتيها

ببطء وعيناها متسعتان ذعرًا بكلمة: «اهرب.»

قبل أن تُنهي شيريهان عبارتها، رآها الجميع تُضرب إلى المرآة فتسقط، وتظهر من خلفها نسخة عنها، داكنة البشرة، بيضاء الشعر والعينين. سمعها شريف تقول مباشرة في أذنيه، بالضبط كما يسمع الجن: - تظنني لن أصل إليك لو كنت تغطي مرايا بيتك وعيادتك؟!

انفجرت المرآة، فانحنى الجميع، وهرب من هرب. استقام شريف ليرى ممرًا طويلًا خلف المرآة لا يراه أحد سواه. شيريهان هناك في العالم المظلم أمامه، وربما باقي من اختفوا من الشباب. الدماء تسيل من ذراع شريف الذي وقى به وجهه، فيبحث خلفه عن شيء يضمده به، ليرى مهدي أبركان يندفع نحو الفتحة.

- شريف، احمِ دماءك. ابتعد من هنا.

- مهدي؟ هل كنت تتبعني؟

- أتبع الساحرة..

انحنى مهدي شاهرًا خنجره، يعدو في الممر حتى اختفى. الساحرة؟ مهدي كان يراقب شيريهان فبدا لشريف أنه كان يراقبه. لفَّ شريف ذراعه بمنشفة من الحمام وسمع عبد الحليم يهتف من خلفه وهو يراقب شريف الذي أدخل ذراعه في النفق، فبدا كأنه يختفي في الحائط أمام عيني الرجل: - أين اختفى هذا الرجل وذراعك؟ بسم الله الرحمن الرحيم! شرفي يا بُني، كنت أعرف أنك تحبها! لا يهمك من شيء يا بُني حتى لو كنت «مخاويًا»! لا قائمة ولا أثاث ولا مؤخر.. فقط عُد بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان شريف مأخوذًا، يسير خطوات إلى داخل النفق الذي لا يراه سواه، ثم يتوقَّف ينظر حوله فلا يرى شيئًا، لكنه بعد يرى..

يرى أمه في سيارتها، تحاول تخدير أبيه لكنها تقاوم وتحذره.. يرى شيطانًا يخترق حاجزًا غير مرئي، ويتسلل كجذور الأشجار نحو ابن أخته، فتضمه الأخيرة وتبكي.. تقاوم.. يرى أباه يخترق كواليس مسرح يحترق وهو يمسك صدره متألمًا، يجد سهير على الأرض، مرتعبة ضعيفة، فيضمها إليها، ويقاومان..

من أين له بهذه الذكريات؟

يسمع صوت نفسه تهمس في أذنيه:

«شريف.. قاوِم.. عُد.. أنت على الحياد، لا تتورط.»

لكن كيف يظل على الحياد ومَن اعتاد مساعدتهم من إنس وجن في خطر؟ ألم يقسم أن يراقب الله في مهنته وأن يصون الحياة في كافة أدوارها وفي كل الظروف والأحوال؟ وأن يبذل كل ما في وسعه لاستنقاذها من الموت والمرض والألم والقلق، وأن يحفظ للجميع عوراتهم وكرامتهم وأسرارهم؟

من خلفه يسمع صوت مواء، القط السمين يسير خلفه، ويسمع صوته يقول:

- سيدي شريف.. ستسير إلى ما لا نهاية هنا. يجب أن تتخلى عن ماديتك وتطلق سراح قدرات الجن فيك لتنتقل إلى عالمنا.

- لا أعرف يا درداح.. ماذا أفعل؟

- كما أفعل.. أعرف أنني لست بارعًا في التجسد، لكنني أتخيل الشيء الذي أريد التجسد فيه، وأحاول تشكيل نفسي على هيئته.. هكذا..

أنَّ الدرداح وجزَّ على أسنانه، فقاطعه شريف:

- فهمت، فهمت. المفترض أن أفعل العكس؟ أحاول نسيان شكلي البشري؟ لقد فعلها مهدي هذا في ثوانٍ..

حاول شريف مرارًا، وفي كل مرة تجذبه علاقاته بالبشر أكثر. كان يظن أنه وحيد، لكن في موقف كهذا أدرك أنه بالفعل ينتمي للعالم الملون النهاري الصاخب. حاول التخلي عن كل تفاصيل حياته الدقيقة؛ ركوب الحافلة، الفول والفلافل، ملابسه الشتوية الدافئة والصيفية الخفيفة، الحاجَّة مريم والحاج مدحت، أبيه وأمه وأخته وابنها..

تهمس له نفسه الحائرة:

«لست وحيدًا يا شريف، أنت من وضعت الحاجز بينك وبين البشر كما وضعته بينك وبين الجن.. اختَر..»

حتى ذكرياته مع الجن اللطيف الذي رآه في حالات ضعفه ووهنه، كلها في عيادته حيث منصور والشيزلونج ورائحة المطهرات.. لكن شيريهان والآخرون يحتاجونه. إن كان مشكاح يحتاج إلى زوهري كي يعود إلى عالم الجن، فالعكس صحيح.. هذا عالم معكوس كالمرآة، مقلوب، أسود كالظل على الأرض. بضع خطوات أخرى، ليجد شريف نفسه في حمام شقة شيريهان، لكن المكان خالٍ، رمادي، هادئ أكثر من اللازم. التفت خلفه نحو القط، ليجد شابًا قصيرًا ذا شعر طويل أجعد يقف خلفه. جسده ليس ماديًّا لكنه يراه بوضوح.

- هل.. عبرنا؟ أنت الدرداح؟

هز الشاب رأسه مبتسمًا كاشفًا عن أسنان قصيرة سميكة كأن كلها ضروس. سمعا صوت حفيف أقدام، وصوت ضربات مكتومة. خرجا من الحمام عبر ردهات الشقة الخاوية المظلمة متجهين نحو الصوت. أدرك شريف أن الشقة ليس خاوية تمامًا كما ظن، بل هو يرى الجمع البشري في الشقة كأنهم أطياف شفافة للغاية، ويسمع أصواتهم بعيدة. أهكذا يرى الجن البشر من حيث لا يرونهم؟

اقشعر جسده كما لو أن له جسدًا ماديًّا، ودخل إلى الحجرة التي سمع منها صوت الحركة ليرى شيريهان الضعيفة وجهها غارق في الدماء، ومهدي يقيدها بقيود فضية. أدرك مهدي وجودهما، فنظر نحوهما، ورفعت شيريهان عينيها نحو شريف، فصرخت: - لا! كيف جئت؟! ارحل بسرعة.. حالًا..

نظر مهدي خلف شريف في قلق، فترك شيريهان لتهوي على الأرض كأنها وسادة، ودفع شريف جانبًا وهو يقول: - أنت غبي.. هل كنت تلف ذراعك بشيءٍ ما؟!

هز شريف رأسه، وأدرك أن ملابسه والمنشفة في النفق. تركهما حين تخلى عن جسده المادي.

- دمك في المنشفة اللعينة يا شريف، ولا حدود لما يمكن فعله بدماء الزوهريين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال مهدي وهو يسوق شيريهان أمامه نازلًا درج البناية وخلفه شريف والدرداح:

- ليس لنا دماء ولا جسد مادي هنا كما لا بد أنك لاحظت، فلا يمكن لزوهري أن يُخطف في العالم الجن ويُصفى دمه. ما يجري في أجسادنا غير المادية الآن هو دماء الجن لا أكثر.

قال شريف:

- كيف أخذت القرينة المنشفة وهي غرض مادي؟

- الجمادات تنتقل من عالم البشر إلى هنا بلا مشكلة وإن كانت تتحلل أسرع. أنت مبتدئ، لذا تخليت عن أغراضك المادية مع جسدك. هذا شائع عند الزوهريين المبتدئين.

- مهدي.. الفتاة معك ليست ساحرة، وإن كانت ساحرة فلن تُحاكم وستُقتل، وهذا عين الإجحاف.

توقف مهدي عن نزول الدرج، بينما يعبر بشري جواره كشبح شفاف:

- لقد خدعتْك يا شريف. أنا متأكد أنها ساحرة، وتتعاون مع ساحرة أخرى سلَّمتها من قبل للسلطات هنا. عُد أنت إلى عالم البشر لا تشغل بالك.

قال الدرداح:

- سيدي مهدي.. هل الساحرة التي سلمتها اسمها حِنة؟

نظر إليه مهدي متسائلًا، فقال شريف:

- هذه هي الساحرة التي تعاملت معها شيريهان، وقد قُتِلت ورُميت في الفلاة مع سحرة آخرين. لو كنت تريد أن ترى بنفسك، سيأخذك صديقي الدرداح إلى هناك.

بكت شيريهان وارتجفت، بدا لشريف أن القيد يؤلمها، لكنه أدرك من حالة بشرتها أنها تتحلل حية. هي مادية وخُطِفت في عالم غير مادي. قالت الشابة:
- هي السبب.. قرينتي السبب. هي من اقترحت عليَّ الدجالة حِنة. كذبت عليك يا شريف، لكنني كنت خائفة.. خائفة من أن تراني بغيضة كما أرى نفسي، وخائفة من أن أقول لك الحقيقة فتؤذيني قرينتي. لم أكن أعرف أن الأعمال لتسخيري وتقييدي، ولم أكن أعرف أنها ستكون السبب في تسخير من أعطيها له.. حاولت أن أنبهك وأنبه رضوى.. آسفة يا شريف.. حقًا آسفة..

ضحكت شيريهان ضحكة مريرة وأضافت:

- هل تذكر التسويق الشبكي؟ يبدو أن الأعمال هي التي تسخر الآخرين من خلالي. شيك على بياض بدون اسم المستحق.

قال شريف لمهدي:

- الفتاة ستموت هنا.. لنعد إلى عالم البشر ونتحدث هناك، ثم أقسم لك أنك إن وجدتها مُدانة، سأسلمها لك بنفسي.

- لست قاضيًا.. هيا..

أمسك الدرداح بذراع مهدي وهتف:

- سيدي مهدي.. معذرة، لكن هل تسمع عن مشكاح الأكبر؟ لقد كُسرت أصفاده ولا يحتاج سوى إلى دم زوهري ليعود! سيدي شريف ألطف زوهري

عرفته في حياتي.. معذرة، لكنه.. أضعف زوهري. دماؤه مع القرينة وعلينا أن نتحرك بسرعة.

قالت شيريهان:

- أعيدوني بالله عليكما.. أعرف أنني مجرمة، لكنني لست ساحرة.. قرينتي هي من ورَّطتني وزعمت أن الأعمال ستكفيني شر الهجر والخذلان. هي من قالت لي على التطبيق وطلبت مني أن أرسل لبعض الأشخاص العشوائيين طلبات غريبة؛ كتابة تعاويذ بلغة لا أعرفها وإرسالها إلى دهب. كانت تقول لي أنني إن لم أفعل ما تطلب مني ستهجرني..

بكت شيريهان فبدا على وجه مهدي شيء من اللين. قال الدرداح:

- يا الله! الأختام السبعة! هل أرسلتم سبع رسائل؟!

- نعم.. ما هي الأختام؟

قال مهدي:

- قيود ملوك الجن. لا يقيد الملك إلا بسبعة أختام..

نظر شريف إلى عينيه وقال:

- مشكاح يا مهدي.. الأخطر على الإطلاق. والآن معهم دمي. لقد خططت تلك القرينة ومَن وراءها لعودة مشكاح دون أن يلاحظ أحد. توزيع المهام على أشخاص لا علاقة لهم ببعض، ووسط مهام أخرى عادية فكرة ذكية.

قال مهدي:

- لا بد أن هناك آخرين غير شيريهان، فتحريره يحتاج إلى من يستطيع معرفة مكان تقييده ومن يستطيع تلاوة الأختام بترتيب معين.. هم يحتاجون إلى ساحر بشري، أو جني قديم متمرس..

قال شريف:

- لقد تخلصوا من السحرة المشاركين في تحرير مشكاح عن طريقك. أنت الذي كنت تقبض عليهم لتسلمهم كما تظن إلى المحاكمة. لن يتركوا أثرًا لمن يستطيع تقييد مشاح مرة أخرى.

قالت شيريهان:

- هل يعني هذا أنهم قتلوا رامي وعلاء و... حسام؟! أخي! أنا لم أعطه عملًا! لا بد أنه وجده وهو يفتش كعادته في أغراضي! هل قُتِل؟

سأل شريف:

- مهدي.. كيف يظل البشر هنا عبيدًا دون أن يتحللوا؟

أشارا في شرود إلى القيد حول معصم شيريهان وقال:

- هذا يمنعهم من التحلل.

هتفت شيريهان بصوت مبحوح:

- كان هناك أثر قيد حول معصمي رامي حين وجدوه!

غمغم الدرداح:

- إذًا هؤلاء هم العبيد الذين استغنوا بهم عن الجن في أداء المهام الدنيا..

أضافت شيريهان:

- كانوا يساعدون -دون أن يتذكروا بالطبع- في مهام تحرير مشكاح.. العناوين التي أرسلنا إليها الكتابات في دهب، ورامي وجدوه قرب دهب..

قال مهدي:

- إذًا، فمشكاح مقيد قرب دهب. أستطيع أن أجده..

سأل شريف:

- كيف؟

- بقيوده. أنت تعرف أن الزوهريين قادرون على الشعور بأماكن تواجد الكنوز والخبايا.. قيوده فضية كثيرة، سأشعر بها.

أسلم مهدي قيد شيريهان لشريف وقال في غضب مكتوم:

- عودا إلى عالم البشر، سأتصرف أنا. لا يتلاعب أحد بمهدي أبركان، ابن ديهيا الأسود.

- بل سآتي معك.

ثم التفت نحو الدرداح وقال:

- عُد بها إلى النفق، وفك قيودها. لا تتجسد رجاءً، فعائلتها لن تتحمل المزيد من الرعب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتطلب الأمر وقتًا طويلًا للارتحال في عالم الجن حتى الوصول إلى النقطة المطلوبة في جبل الطويلات قرب البحر الأحمر. قال مهدي: - السجين هنا.. أشعر به..

- وأنا أيضًا. غريبة..

قال مهدي وهو يشهر خنجره:

- هناك ما هو أغرب.. زوهري واحد على الأقل غيرنا بالقرب من هنا.

صعد الشابان في طريق مائل، حولهما البشر من كل الجنسيات يصخبون ويحتفلون بنزهتهم السياحية في الجبل. دخل مهدي في شق طويل في الصخر، وشعر شريف أنهما يقتربان جدًا من هدفيهما. ضيق شريف عينيه ليرى جسدًا يشبه أجساد البشر لكنه أصغر، يتوهج بلهب خافت. همس مهدي:
- هو مقيد الآن لكنه عاجز عن العودة إلى عالم الجن. فيمَ التأخير إن كانوا يمتلكون كل ما يحتاجون لفك أسره؟

- ربما ينقصهم شيء. أين القرينة؟

أشار مهدي إلى شيء رمادي يتحرك في الظلام جوار مشكاح. بدا لشريف أنه القرينة. كيان أسود ذو شعر أبيض، يُمسك منشفة ملطخة بالدماء. همس مهدي: - الآن!

ثم اندفع نحو القرينة وخلفه شريف الذي تبيَّن أن ما يندفعون نحوه ليس سوى قرين ذكر، ذي ملامح دقيقة وشعر قصير. نظر القرين نحو مهدي، ثم نحو شريف الذي صاح: - مهدي! هذا قريني أنا!

كان مهدي قد لف ذراعه حول عنق القرين، وجرَّده من المنشفة ثم ألقاها نحو شريف، فسقطت تحت قدميه. موقف آخر شعر شريف أنه رآه من قبل.

هدر صوت هز أرجاء الشق العميق الضيق:

- اتركه يا مهدي.

التفت مهدي نحو الصوت، بينما يهمس شريف متسائلًا:

- جدي؟

- أجل يا شريف. وهذا قرينك.

- وهل للزوهريين قرناء؟!

- بالطبع. أنت لم تُختطَف وأنت صغير لتُحقن بدماء الجن؛ بدماء قرينك، فتندمجا، لقد ورثت زوهريتك عني، لذا فأنت بشري بعد، ولك قرين.

ترك مهدي القرين انصياعًا للزوهري ولي الصالحين. أشفق شريف عليه، فمهما بدا قويًا، ليس حُرًا. سأل شريف وهو يقترب من جده: - ماذا يحدث؟

- الغلبة للأذكى يا شريف. الغلبة للرمادي.

انحنى زاهر يمسك المنشفة، ثم استدار نحو مشكاح الذي بدأ يئن في وهن، ثم قال:

- ما رأيك أن أؤنس وحدتك يا مشكاح؟

دخل رجلان من عمق الشق، يرتديان جلبابين أبيضين، ويجُرَّان ماردًا عظيمًا يقذف كرات اللهب الخضراء في كل مكان ويصرخ: - ويل للزوهريين! ما كان لنا أن نصنع سُمَّنا بأيدينا.. ويل لكم، لن يترككم خدمي تهربون.

اقترب الحاجّ زاهر منه في هدوء، وقال له:

- هم خدمنا الآن يا شمروش. كنتم تعتقدون أن الزوهريين عبيد لديكم؟ صنعتموهم للوساطة، وخدعتموهم لصالحكم.

- أنتم صنيعتنا، ودماؤهم لن تنتصر علينا..

- بل تنتصر.

دفع الرجلان شمروش إلى داخل الدائرة التي تحيط بمشكاح الهزيل. أخرج الحاجّ زاهر رزمة أوراق من جيب جلبابه، وشرع يتلو منها الأختام السبعة. صرخ شمروش: - اللعنة عليك أيها الزوهري! أين خدمي وسحرتي؟! أين القرناء المخلصون؟

لم يكترث الحاجّ زاهر، وأكمل القراءة، ومع كل ختم يصرخ شمروش ويلتصق أكثر بالأرض. نظر شريف إلى مهدي المشدوه، ثم نظر إلى قرينه الذي يقف قربه في أدب. سأله: - فيرش؟ هذا اسمك أليس كذلك؟

- هو اسمي، واسمك.

- ماذا تفعل هنا؟

- أخدم جدي، الحاجّ زاهر الزوهري ولي الصالحين. أنت رفضت أن تنضم إلينا في حربنا الأخيرة، ورفضت أن تنضم حتى للزوهريين مع مهدي أبركان. أنت تكره الجان..

- لا أكرههم! بل هم أصدقائي وأساعدهم بطريقتي! هل أنتم من أرسل مهدي لي؟!

قال مهدي وهو بعد يتابع التقييد:

- لم أكن أعرف أيًّا من هذا. تلقيت الأوامر من المجلس الأعلى للجان و.. لم أعرف ولم يعرف أي زوهري آخر أن الحاجّ زاهر يخطط لانقلاب على الحكم!

رفع شريف حاجبيه دهشة وقال:

- انقلاب؟! كنت.. كنت أظنه يساعد الجن في تقييد حاكمهم الظالم!

- ألم تفهم بعد؟ جدك لم يعد زوهريًا وسيطًا، ولن يقبل أن يكون وسيطًا بين عالمين. جدك ترك الزوهريين يجمعون السحرة ليعرف منهم سر التقييد. أتراه هو الذي قتلهم؟

قال القرين:

- الحاجّ زاهر ترك مخطط شمروش يسير كما هو، بل سهَّل له الكثير من العقبات. الحاجّ زاهر لم يلوث يديه، هو فقط جمع كل الخيوط التي جلبها الجن والإنس في يده.

احتج شريف:

- بل كذب الحاجّ زاهر، ووافق على انتهاكات في مجتمع الجان وتركهم يتلاعبون بالزوهريين!

قال القرين في هدوء:

- بل هي خدعة الحرب يا شريف. يوم يحكم الزوهريون عالم الجان ستعرف أن كل شيء مسموح في الحرب مقابل السلام الذي سيعم العالمين. أنت لست مؤمنًا كفاية بقوة الزوهريين.

شعر الجميع بموجة تضاغطية عنيفة كادت تُسقطهم، ثم خمدت نيران شمروش بعدما وضع زاهر المنشفة الملوثة بدماء شريف على رأسه. احترقت الأخيرة وتحولت إلى رماد على الفور.

استدار زاهر نحو شريف، وخطا نحوه بضع خطوات وهو يقول:

- الآن يا شريف سيُلاحَق السحرة ويُعدمون مع كتبهم وينتهي هذا العهد للأبد. سنغلق أي تواصل بين عالمي الجن والبشر دون إذن من الزوهريين. هذا هو التوازن الحقيقي الذي نريده. هذه هي الخطوة الأولى في طريق إصلاح العوالم يا شريف. قريبًا سنغلق كل بوابات عبور الشياطين وسنحمي الجميع من بعضهم ومن أنفسهم.

خطا شريف خطوة نحو جده وقال:

- بل ستحبسون الجميع. من ولّانا أوصياء؟ لقد تعلمت منك يا جدي أن الزوهريين وسطاء لحفظ السلام والعدل بين العوالم، ولهذا أحببت الطب النفسي، هل تعرف السبب؟ لأننا جميعًا، وبلا استثناء، نفوس ضعيفة أمارة بالسوء. هذا هو الرابط بيننا. ليس بالحرب والانقلابات يا جدي نصلح. ليس بإعدام السحرة، بل بمحاكمتهم وسماع دفاعاتهم ومنحهم فرص التوبة. ليس بأن نحكم الجن ولسنا منهم. ليس بأن نغلق كل عالم على من فيه.

- أنت صغير يا شريف. صغير وبريء وضعيف. أنت أضعف زوهري رأيته في حياتي.

- ربما أكون أضعف زوهري، ولا أعبأ. المهم ألا أكون أضعف إنسان.

نزل رماد احتراق المنشفة ببطء حولهم، وتحولت بعض ذراته إلى فراشات شفافة صغيرة تدور حول شريف الذي غمغم: - ما هذا؟

قال زاهر:

- اقتل قرينك وكُن زوهريًا كاملًا. سترث العرش من بعدي، ولتفعل ما شئت بعدها.

- لا تغريني السلطة..

- انضم إلى مهدي، وسيعلمك أن تكون جنديًا نافعًا، تخترق الحُجُب، وتنفذ القانون وتقيم العدل.

- لن أصبح عبدًا أنفذ قانونًا غاشمًا. مهدي خُدِع وتقبَّل الخداع.. هل تراه أقوى مني؟!

هدر صوت زاهر:

- شريف! لن أتركك تعود إلى عالم البشر وتستسلم كما استسلمت أمك! سآمر قرينك أن يحبسك هنا حتى تعود إلى رشدك. لقد جلبك إلى هنا أكثر من مرة لترى بنفسك الظلم الذي يعانيه هذا العالم، لكنك كنت تتمسك ببشريتك وتفقد وعيك، مثلك كمثل البشر العاديين. أنت ضعيف.. أنت عار على اسم زاهر..

- أنا راشد، عاقل، حر. سأتمرَّد وسأفر مع كل الذين استعبدهم الجان وخدعوهم. تعلَّم يا جدي من شمروش. لا تصنع سُمَّك بنفسك.. بل لا تجعل سببًا يدفع أحدًا لتسميمك. أنا شريف أسامة الصاوي، البشري الذي يحب الإنس والجن وأقسَم على حمايتهم بما أعطاه له الله من علم.

تكاثرت الفراشات الصغيرة، ووقفت واحدة منهم على أنف شريف، لها وجه كُرة زرقاء، وهمست له:

- سيدي شريف.. ابن جبال الأنباط في العيادة مع تسعة من الجن وأربعة عشر شابًّا من الإنس، يقولون أنهم حرروهم أثناء الانقلاب كي يجد وزملاؤه فرصة عمل. و.. وشيريهان مع عائلتها، ووالدها ينتظر عودتك لتشتري الشبكة، ويقول لك أنه يشتري رجلًا، لكنه يريد تأمين مستقبل ابنته.. متى ستعود سيدي شريف؟.. سيدي شريف؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

عجائب وغرائب

تُوقف سهير زاهر سيارتها الصغيرة خلف لافتة مركز أبحاث جوزيف بانكس راين، في حرم جامعة دوك، الولايات المتحدة. اللافتة زرقاء مطبوع عليها رسم لخمس بطاقات تُسمى «بطاقات زينر»، وتحمل كل واحدة رمزًا مختلفًا؛ خطوط متوازية مموجة، دائرة، مربع، نجمة، خطان متعامدان. تحت البطاقات اسم المركز، ثم «معهد أبحاث ودراسات ما وراء علم النفس والوعي.»

تخترق سهير في بذلتها البيضاء الأنيقة ونظارتها الشمسية حاجز الأشجار الكثيف الذي يحجب خلفه المبنى العتيق للمركز، وهو قصر قديم نوعًا مقارنة بسلسلة المباني القوطية المرعبة التي يتكون منها الحرم الجامعي، خاصة حرم الجامعة الغربي، الذي يمكنك أن ترى من أي مكان فيه قمة كنيسة دوك ذات الأربعة أبراج.

دخلت سهير المبنى الذي لا يحوي داخله سوى الضروريات فقط؛ فلا تكييف في مكتبها الخشبي في الطابق الأرضي، ولا كافيتريا معقولة. المركز يقوم بالكامل على التبرعات، ولا مجال لإنفاق دولار خارج إطار المعامل في الطوابق العليا.

- صباح الخير يا آنسة زاهر.

- صباح الخير يا ديانا. سأفتقدك.

قالت ديانا ذات الشعر المصبوغ بالأسود، الذي تتخلله خصلات بيضاء:

- لولا أنك لم تسافري إلى مصر منذ أعوام لما سمحنا لك بإجازة. هل اشتريت هدايا للعائلة؟

- ليتك تساعدينني. أشعر أني فقدت قدرتي على التركيز في تفاصيل العائلة وآخر مستجداتها، وأخجل من أن أسأل رجاء أختي عن نوعية الهدايا التي تحتاجها كل أسرة.

اتفقت ديانا السكرتيرة على أن تصحب سهير في جولة تسوق ليلًا. قالت ديانا قبل أن تدخل سهير حجرة مكتبها الصغيرة المشتركة مع شخص آخر: - بروفيسور أويرباك سيسافر معكِ.. من ستتركان لنا هنا؟ ألا يمكن أن تطلبي منه تأجيل سفره حتى تعودي؟

وبروفيسور لويد أويرباك من الأشخاص المحبوبين في المركز، حتى أن طلبة المركز الذين يدرسون فيه عبر الإنترنت ينتقون دروسه ودوراته التعليمية دونًا عن باقي الأساتذة. رغم عمره الذي جاوز الخمسة وستين، لا زال نشيطًا،

شابًا، يرتدي قمصانًا ملونة ويجمع القصص المصورة، ويزين حوائط مكتبه بمجسمات السيارات الصغيرة والهدايا التذكارية من أشهر أفلام الخيال العلمي العالمية. قالت سهير: - للأسف، لن يستطيع إنجاز مهمته في مصر دون مساعدتي. لن يستطيع السير في شوارع مصر من الأساس دون رفقة مصري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست سهير إلى مكتبها المُطل على الحديقة الصغيرة، وفتحت جهاز الكومبيوتر لتستكمل كتابة تقاريرها عن الحالات الأخيرة التي اختبروها في المعمل.

لم تستكمل سهير دراسة الباراسيكولوجي بشكل أكاديمي، وإنما فضَّلت أن تظل «الآنسة زاهر» وسط مركز يمتلئ بالأستاذة وحملة الدكتوراه. هي مجرد باحثة متطوعة غير رسمية، درست علم الإنسان في جامعة دوك، ثم قررت الانضمام إلى المركز لدراسة ما وراء علم النفس الفريد الغامض. هذه هي الحياة التي تحبها.. حياة حرة بلا قيود دراسية أو اجتماعية.

أكثر ما يغيظ سهير في هذه الدراسة هي أن تجاربها غير قابلة للتكرار. فرع كامل مما وراء علم النفس قائم على انتظار وقوع أحداث غريبة، وهو فرع دراسة الظواهر العشوائية، والذي يهتم بدراسة ظواهر الأشباح والأماكن المسكونة. يجب أن ينتظر الباحثون تلقي بلاغ عن ظاهرة مشابهة، فيرسلون فريقًا استكشافيًا لتقصي الأمر وغالبًا يجدون تفسيرًا فيزيائيًا أو نفسيًا لا أكثر.

أما دراسة قدرات العقل البشري الفائقة للحواس، فتعتمد على ثقة الموهوبين في المركز، ورغبتهم في اختبار أنفسهم. مرة أخرى الأمر يتوقف على وجود متطوعين موهوبين بالفعل، لا موهومين، ولا يمكن الإعلان عن طلب متطوعين لاختبارهم ولا يوجد أي جهاز حتى الآن يعرف الموهوبين دون اختبارات مُطوَّلة.

القسم الأكثر إيجابية هو ذلك المهتم ببناء جسر بين ما وراء علم النفس والعلوم الأخرى مثل الأحياء والكيمياء والفيزياء، وتوجد تجارب وأبحاث كثيرة مقنعة لكنها في مجال بعيد عن دراسة سهير، لذا لا تعرف عنها سوى قراءاتها، ولا تشارك فيها.

أما بروفيسور لويد أويرباك، أقرب أصدقائها، فيدير –إلى جانب عمله في المركز- مكتب التحقيقات الماورائية الخاص به، ويقدم خدمات مجانية للجمهور مقابل المعلومات التي يجمعها المتطوعون.

هذا بالضبط هو الجانب الذي تحبه سهير؛ المغامرة والبحث والتفكير دون قيود المركز وأكاديمية الدراسة.

قال لها لويد في مرة:

- لماذا لا تخضعين لاختبار الإدراك الفائق للحواس؟ أعتقد -من خلال التحقيقات الماورائية التي شاركتِ فيها- أنك تتمتعين بموهبة ما.. ربما الوساطة الروحانية.

ضحكت سهير ثم قالت:

- لن أفعل هذا ولو على جثتي. حين أشعر بصداع أخشى الذهاب إلى الطبيب كي لا يكتشف ورمًا في مخي و(يفتح عليَّ فاتوحة) كما نقول بالعامية المصرية، فما بالك بالخضوع لاختبار مخيف كهذا في معمل؟ في مصر نقول «اللقمة اللي تتفتش ما تتاكلش»، بمعنى أنك لو فتشت الرغيف جيدًا قبل أكله ووجدت في سوسًا أو حشرات لن تأكله. استمتع برغيفك كما هو.

سأل لويد مضيقًا عينيه:

- وهل هذا شائع عندكم؟ أن يحوي الرغيف حشرات؟

بسبب تلك البراءة الشديدة والانبهار الطفولي، لا يمكن للويد أن يسافر إلى مصر وحده، خاصة إن كان سيتعامل هناك مع محامين ومكاتب حكومية وأوراق وتصاريح.

حشت سهير حقائبها بالهدايا العشوائية التي اشترتها وديانا للأهل في مصر، وركبت الطائرة مع صديقها العجوز الشاب لويد أويرباك في رحلة طويلة خلت من الملل تقريبًا. لويد لديه حكايات لا تنفذ عن الحيل السحرية وأفلام الرعب التي شارك في كتابتها بصفته خبيرًا، ثم حذف المخرج ما كتب باعتباره حشو علمي لا لزوم له.

نزل لويد في القاهرة في أحد فنادق ميدان التحرير متوسطة المستوى، ونزلت سهير عند أختها الأرملة رجاء في بيتها في المنيل.

في يوم وصولها، اكتشفت أن رجاء دعت عشرات الأقارب ليسلموا على سهير. تعرَّفت سهير على نصفهم، أما نصفهم الآخر فهم أزواج جدد لأقاربها وأطفال أنجبوهم خلال السنوات التي لم تنزل فيها إلى مصر. تقول رجاء وهي تجلس بين طاولة السفرة والأخرى التي تُفتح للطوارئ: - هذه نهى ابنة خال سيد. ألا تذكرينه؟

فتهز سهير رأسها مبتسمة وهي تتابع تقطيع صواني المكرونة بالبشاميل والرقاق، وتقسيم أرباع الدجاج بين الحضور مع شريحتي لحم بارد. تناول

رجاء طبقًا بلاستيكيًا لطفلة في الخامسة وتقول: - هذه «خالتو» سهير يا نِمنِم، وقد جاءت من أمريكا حيث ديزني لاند.

تنظر لها الطفلة في انبهار، ثم تقرر الجلوس جوارها على نفس المقعد، وتطلب منها أن «تُقَصِّص لها الكوكو»، أي تقطع الدجاج إلى نسائر. مر الغداء كله في محاولات مستمرة لتذكُّر شبكة صلات العائلة التي تمدَّدت بشكل مريب، لكن سهير كانت تتذكر وجوهًا أخرى لا تراها، فتسأل: - أين مراد؟ لماذا لم يأتِ؟

تجيب زوجته التي غام وجهها فجأة:

- ألم تسمعي بما حدث؟ مراد مسجون منذ عامين. أقسم بالله أنه مظلوم.

وسهير تعرف جيدًا أخلاق مراد ابن عم أبيها. هو رجل مسالم للغاية، لم يتعد طموحه إدارة بقالة أبيه. سألت سهير: - ماذا حدث؟

- هل تصدقين أنه قد ينصب على أحد، فضلًا عن نصبه على أغلب رجال شارعنا؟!

تقول الزوجة أن رجال الشارع اتفقوا على الإبلاغ عنه زعمًا أنه سحب منهما أموالًا طائلة بهدف استيراد...

- بذلات فضاء لهم ولأولادهم! هل تصدقين هذا؟! بذلات فضاء؟!

عقدت سهير حاجبيها تعجبًا. إما أن هؤلاء الرجال في غباء الجاموس، أو أنهم قد اتفقوا عليه للسخرية منه. تضيف رجاء: - كُلي يا سهير. المشكلة أن هناك أدلة على اجتماعه بكل واحد منهم على حدة. شهود وتسجيلات كاميرات الشارع والسوبرماركت وغيرها.

- وكيف أقنعهم بهذا أصلًا يا رجاء؟

- تذوقي سلطة البطاطس.. لا أعرف.. لا أحد يعرف كيف أقنعهم ولا يتذكر الرجال ما زعمه كي يدفع كل منهم تحويشة عمره.

وكزت زوجة مراد ابنها الصغير الذي يفتت كبد الدجاجة أسفل المنضدة وقالت:

- وأين المال الذي جمعه؟ هو نفسه لا يعرف أين المال. لا أصدق أبدًا أن مراد يكذب أو ينصب. مستحيل.

بعد الغداء، جلبت سهير حقائبها كي توزع الهدايا، والتقت العيون متحمسة مع كل كيس تُخرجه. قال قائل: - حتى الأكياس في أمريكا أفخم من هنا.

ناولت ابنة خالتها –التي لم تكن قد تزوجت في آخر زيارات سهير لمصر- منامة رقيقة، فتحتها قريبها ووضعتها على صدرها لتجد أن القطعة العلوية من المنامة لا تغطي نصف جسدها. لقد تمددت السيدة كما تتمدد أي مصرية أخرى تزوجت وأنجبت طفلين ولا زالت تعيش على الهرمونات المُنشطة لتنجب ذكرًا. تظاهرت سهير أنها لا تلاحظ هذا كي لا تحرجها، ثم أعطت عمها الخمسيني غير الشقيق علبة عطر، فأدارها بين يديه وقال: - شكرًا.. لكننا كبرنا على هذه العطور. يكفي أن يجد المرء مترًا في متر يتمدد فيه ويموت.

فقالت سهير:

- هل كبرت على استخدام العطور يا عمي؟!

- هذه أشياء تصلح للشباب تحت الثلاثين. لو رششت من هذا العطر وذهبت إلى الإدارة التعليمية سيزفَّني الزملاء باعتباري عجوزًا متصابيًّا.

- عجوز في الخمسين؟ كل هذا لأجل عطر؟

قال قائل:

- بِعه يا محمود، هل تعرف كم سعر الدولار اليوم؟

فأجاب محمود:

- لمن أبيعه والشباب في الإدارة يشترون العطور المركبة أو في أكياس صغيرة كأكياس الشامبو من الصيدلية؟

ابتلعت سهير ريقها وهي تفتح كيسًا آخر وتقول:

- أين كوكي؟

وكوكي هي ابنه مازن ابن رجاء. قالت رجاء وهي تفتح الكيس وتُخرج دُمية «باربي» أنيقة ذات شعر مموج يشبه شعر كوكي: - احمدي الله أن كوكي ليست هنا. أولًا كوكي في الصف الرابع الابتدائي وقد كبرت على الدمى...

غمغمت سهير:

- ... الرابع الابتدائي وكبرت على الدمى؟...

-.. الدمية ذات شعر أجعد، سوف يذكِّرها بشعرها وهي أصغر. أمها الآن تواظب على فرده لها بجلسات البروتين..

-.. بروتين؟

- لا بأس.. عم جابر البواب أنجب طفلة منذ شهرين، ستروق لها هذه اللعبة، وربما تلعب بها عامًا أو اثنين قبل أن تكبر على هذه الأمور.

بعد ساعة تقريبًا كان كل واحد من الحضور قد أمسك كيسًا يحوي شيئًا يناسبه بالمنطق، ولا يناسبه حسب ثقافة «استعجال الانتهاء من الحياة» التي صار الكثير يعتنقها في مصر.

قالت سهير للويد في اليوم التالي وهما يسيران في أحد شوارع وسط البلد المزدحمة:

- الجميع تعساء بشكل أو بآخر..

- لهذا يستعجلون حياتهم، فربما يجدون في الأعمار الأكبر ما يسري عنهم. الأمر أشبه بأن تقلبي سريعًا صفحات رواية مملة كي تصلي إلى المشاهد الأكثر تسلية.

- طفلة تفرد شعرها كيميائيًا؟!

وصلا إلى مقهى مزدحم ليجدوا نبيل –شقيق مراد النصاب- ينتظرهم. لوَّح لسهير ثم نظر من أعلى إلى أسفل سريعًا متفحصًا قميص لويد الأخضر وبنطاله القصير. انطلق نبيل بلغة إنجليزية مُعتلَّة يُرحب بالخواجة، ثم قال: - هيا، أخبراني ما هي طبيعة العمل الذي تريدان ممارسته في مصر؟

وقبل أن يجيب لويد، قاطعه وهو يدفن سيجارته فيما تبقى من كوب شايه:

- لو هرَّبتما بضائع من أمريكا وبعتموها هنا ستكسبان ذهبًا. النساء لا يملكن مالًا فائضًا هنا، لكنهن يتصرفن حين يرين بضائع أمريكية أو أوروبية معروضة على الإنترنت خاصة لو كتبتما جوارها عبارة (فوري- العدد محدود) سألت سهير:

- وما طبيعة هذه البضائع؟

- أي شيء يمكن للمندوب توصيله إلى البيوت دون أن يلاحظ الآباء أو الأزواج، ويمكن إخفاؤه في مكان ضيق. أحمر شفاه، كريمات، حقائب..

قال لويد وهو يرشف رشفة من القهوة التركية:

- الحقيقة لن نتاجر في شيء هنا. نحن نريد افتتاح مكتب..

قاطعه نبيل:

- توظيف؟! خيرًا فعلتما. الناس ستدفع أي شيء للهرب إلى أمريكا.

قالت سهير في ضيق لقريبها المحامي:

- نبيل.. اسمع للنهاية ولا تقاطعنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت نرجس ابنه خالة الحاجّ زاهر رحمة الله عليه:

- يا سهير، هل تصدقين أن نجلاء تسرب امتحانات الثانوية العامة؟! بالله كيف ستصل إليها وهي أصلًا موظفة في مكتب التنسيق لا علاقة لها بالتدريس؟

كانت رجاء قد أصرَّت على زيارة نرجس لمواساتها في سجن ابنتها الوحيدة، ولإعطائها مطحنة البُن التي اشترتها لها سهير.

- شكرًا على المطحنة، ولو أننا نشرب «المُر» يوميًا ولن نتحمل مرارة القهوة.

قالت سهير:

- بإذن الله ستُظهر التحقيقات الحقيقة.

- أي حقيقة يا ابنتي وقد رآها الشهود تقف أمام الخزانة التي يحتفظون فيها بالأسئلة؟ صوَرها أحدهم، وتتبعت الشرطة حاسوبها لتتأكد من أنها هي من وزَّعت الإجابات عشوائيًا على الطلبة قبل الامتحان.

- لحظة.. كيف فتحت الخزانة؟

- لم تفتحها.

- وكيف عرفت الأسئلة دون فتحها؟!

- لا أعرف.. هي أيضًا لا تعرف، لكن نجلاء «تغرق في شِبر ماء» بسهولة، وقد اعترفت أنها سرَّبت الامتحان، ولا تتذكر كيف فتحت الخزانة.

بكت نرجس وهي تضم المطحنة إلى صدرها، وسهير حائرة لا تعرف كيف تواسيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زمَّ نبيل شفتيه وهو يستمع إلى ما يقول لويد، ثم أخيرًا قال:

- مكتب تحقيقات ما ورائية؟!

أجاب لويد في صبر:

- النصابون كثيرون في مصر، وأعتقد أن المصريين يستحقون أن تعامل مشاكلهم الماورائية بشكل أكثر احترافية.

-

أضافت سهير:

- أنا أفهم المصريين بالطبع، ولن أصطدم مع المعتقدات الدينية، لكننا قد ننقذ الكثير من أوهام الجن العاشق والبيوت المسكونة و..

- ليست هذه هي المشكلة يا سهير. لا توجد أوراق يمكن استخراجها أو تصاريح لهذا النوع من العمل. ستُعتقلان بتهمة الدجل بعد نصف ساعة من ممارسة هذا العمل الغريب.

هتفت سهير في حماس:

- لهذا جئنا إليك. نريد استخراج أقرب أوراق وتصاريح تناسب عملنا. هل نتفق مع أخصائي نفسي مثلًا ونفتتح مكتب استشارات نفسية وأسرية يمكن من خلاله التواصل مع مَن يعاني من هذه الأمور؟

- ستغرقان في مشاكل الطلاق والزواج ولن تحصلا على شيء.

فكَّر حينًا ثم قال:

- مكتب تحقيقات خاص! سنحتاج فقط إلى شرطي سابق كي نستوفي التصاريح وأمور التنسيق مع المباحث.. لا تقلقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من أهداف زيارة سهير المعلنة لمصر حضور حفل زفاف ابن خال أبيها، وهي من الأمور التي تُشعر سهير بالذنب للتملص منها. عائلة زاهر عائلة متشعبة مترابطة، وأي محاولة منها للابتعاد أو التملص من حضور المناسبات تُعزى إلى تكبُّرها لأنها درست في أمريكا، أو لطباع الأمريكان التي اكتسبتها وأنستها طباع المصريين. اضطرت لترك لويد مع نبيل فترات أطول لمناقشة تفاصيل المكتب، وإن كانت لا تعرف سببًا يجعل لقاءاتهما تتكرر، إلا لو كان نبيل قد أحب رفقة لويد بشكل ما وصارا صديقين.

قالت سهير لرجاء وهي تساعدها في إعداد طعام لزيارة زياد ابن ابنة عم سهير في الحبس:

- لا أصدق ما يحدث.

قالت رجاء:

- لا أعتقد أنك ستقبلين تفسيري. لقد حُسِدنا. منذ حضرنا جميعًا زفاف نعمة منذ عامين والمصائب تطارد عائلتنا.

لم تنطق سهير بما يعتمل في عقلها. علامَ سيُحسدون؟ عائلة عادية حضرت زفافًا عاديًا. أردفت رجاء: - بل الحسد بدأ في نفس الليلة. نشبت النيران في الكوشة دون أي سبب، وتشاجر والدا العروس حتى فتح والدها رأس أمها ضربًا في عامود من أعمدة القاعة. كعكة الزفاف نفسها سقطت دون أن يمسها أحد، وأُلصِقت بالحائط. لم تسقط أرضًا!

قالت سهير وقد احمر وجهها حنقًا:

- ماذا؟ وتفسرين هذا بالحسد؟

- طبعًا. مذكور في القرآن!

- لا جدال في هذا. لكن ما تقولينه لا ينطبق على الحسد. هذه أحداث غريبة خارجة عن طبيعة الحضور وطبائع الأمور الفيزيائية!

- قلِّبي الـ ـ«بانيه» يا سهير كي لا يحترق.. كله من الحسد..

أخرجت سهير قطع الدجاج المقلي من الزيت، وأطفأت النار ثم وقفت أمام رجاء وقالت في تحدي:

- ثمة ما يجري لهذه العائلة، وهو ليس حسدًا. وسأعرف ما هو.

- كل هذا كي لا تحضري فرح ابن خال أبيكِ؟

- بل سأحضره، وسأرى بنفسي إن كُنا سنُحسَد مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس لويد على فراشه فاردًا أمامه التذكارات السياحية الرخيصة، إلى جوار كيس فيه شطائر طعمية. قال لسهير وهو يضع الهاتف المحمول بين كتفه وأذنه كي يتمكن من فتح كيس الشطائر: - لم أميز شيئًا من فيديو الزفاف الذي أرسلته لي. ما كل هذه الضوضاء ولماذا يتقافزون هكذا؟ رأيت رجلًا بدا لي وقورًا قبل أن يقف فوق مقعد ويهز ردفيه بينما يصفق له الجميع. هل هذا هو النشاط الماورائي الذي تتحدثين عنه؟

ضحكت سهير ثم قالت:

- كلا، هذا شيء عادي في أفراحنا، ولا أقول طبيعي طبعًا. المشكلة أن سقوط كعكة الزفاف نحو الحائط لا يبدو ظاهرًا في الفيديو، لكن هل لاحظت أنها انزلقت يمينًا قبل أن يمسها أحد، ثم خرجت خارج الكادر؟

- لاحظت. أعتقد أن المنضدة كانت مائلة، أو أن أحد الأطفال قد تسلل إلى ما أسفل المفرش الطويل ودفع الطاولة دون قصد.

- ماذا عن النيران التي اندلعت في ال»كوشة»؟

- هذه الزينة كلها من البلاستيك والألياف الصناعية. أي مصدر حرارة قد يشعلها.

- والرجل المسالم الذي شج رأس زوجته؟ لم يظهر في الفيديو لكنهم حكوا لي بالتفصيل.

- الضغوط المصاحبة للزفاف قد تتسبب فيما هو أكثر. نحن لا نعرف على أي شيء تشاجرا.

فتح لويد الشطيرة وراح يدقق النظر في الخبز بحثًا عن الحشرات، لكنه كان جائعًا ورائحة الطعمية أغرته، فكرر مقولة سهير عن اللقمة التي لا تؤكل بعد تفتيشها، ودس الشطيرة في فمه. قالت سهير: - والجرائم التي تورط فيها أهلي منذ الزفاف؟

قال لويد بفم بمليء بالطعمية:

- سهير، هل تتذكرين فكرة التزامنية لعالم النفس كارل يونج؟

- طبعًا.

- يجد العقل البشري معنى ومغزى لأي سلسلة أحداث متكررة، ويخلق صلة بينها. ساعدنا مفهوم التزامنية في ما وراء علم النفس فيما يتعلق بالإحصاءات.

- هذا يؤكد كلامي يا لويد. ثمة علاقة بين الأحداث التي تحدث في عائلتي، خاصة وأنها تشير بقوة إلى نشاط القدرات فائقة الحواس.

- مشكلتك يا سهير أنك لا ترين إلا ما تريدين رؤيته. هذا هو الانحياز التأكيدي الذي عشنا عمرنا نحاول الابتعاد عنه في المركز.

- لكن لا يمكن تجاهل الأمر تحت تفسير المصادفة. لا أعرف إن وقعت أحداث غريبة قبل الزفاف، لكنه كان بداية ملاحظة رجاء أن هناك ما يجري، وفسَّرته بالحسد.

قال لويد وهو يفتح غلاف شطيرة الفول بسرعة وقد أصابه النهم غير المبرر الذي ينتاب آكلي شطائر الفول والطعمية: - الحسد نفسه قد يكون أحد ظواهر التليكنيزيس؛ قدرة الإنسان على التأثير على المادة دون استخدام وسيط مادي. وقد يكون نوع من أنواع القدرة على التأثير في مجال الآخرين الحيوي. هل تلاحظين كم كلمة «قد» استخدمتها؟ لسنا متأكدين من شيء دون فحص كل هذه العينات في المعمل ومحاولة تكرار الظواهر.

زفرت سهير، وقررت أن ألا تحكي له الأغرب، بل تدعه يسمعه بنفسه.

- لويد.. هلا أتيت معنا لزيارة في السجن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعيدًا عن الاضطراب المعوي الشديد الذي أصاب لويد، فقد كان بخير. سخرت سهير من ربطه مرضه بشطائر الفول والطعمية، وطلبت منه أن يتذكر الانحياز التأكيدي الذي يجب أن نتحاشاه. بالنسبة لسهير فالصلة بين الأحداث التي تجري لعائلتها وبعضها هي نفس الصلة البسيطة بين المرض والأكل الملوث. بسيطة وواضحة.

جلس لويد مع سهير ورجاء المتشككة أمام صفاء المتهمة في جرائم قتل متعددة. قالت صفاء عبر ترجمة سهير وهي تختبئ خلف غطاء وجهها؛ هي منتقبة: - بدأ الأمر منذ عامين تقريبًا. كنت في العجوزة لقضاء أمر خاص بي، وتوقفت فجأة أمام بناية بعينها وشعرت بذعر. ليس ذعرًا مجهولًا، بل كنت متأكدة أن أحدهم يُقتل الآن في البناية.. يُقتل بالسم تحديدًا. كنت أراه في ذهني كأنني أرى ذكرى. حاولت كثيرًا حتى استطعت مقاومة رغبتي في الصعود وطرق جرس شقة رقم ستة وإنقاذ هذا الشخص. بعد فترة قصيرة انتابني نفس الشعور وعرفت مكان القتيل. شاب سُرِق وقُتل في شبرا الخيمة. بعد يومين رأيت صورته مصاحبة لخبر مقتله، في نفس الوقت الذي شعرت فيه أنه قد قتِل.

قالت صفاء أن الأمر تكرر مرة أخرى، وبدأت تلك الرؤى تُذكرها بموقف مقيت تعرضت له منذ عشر سنوات.

- تحرش أحد سائقي الميكروباصات بي، وكاد يحدث ما لا يُحمَد عُقباه. لكنه ضربني وسبَّني و..

بكت صفاء، فربتت رجاء على كتفها وقالت:

- ما الداعي للحديث في هذه الأمور مرة أخرى؟ صفاء بنت نقية للغاية مكشوف عنها الحجاب. هذا معروف عنها من صغرها.

حاولت سهير شرح عبارة «مكشوف عنها الحجاب» للويد، فقال في ثقة:

- استبصار. رؤية استباقية. هذا يفسر كل شيء. أكملي يا آنسة.

حكت صفاء عن اليوم الذي شعرت فيه بشجار بين فِتية بالمطاوي، وكان هذا الشجار في منطقة تبعد عنها نصف ساعة تقريبًا. عادت إليها ذكرى محاولة اغتصابها، فهرعت في العاشرة مساء إلى المكان الذي كانت متأكدة من تفاصيله، لتجد فتى ممددًا قتيلًا في مدخل إحدى البنايات. صرخت، واجتمع

الناس حولها. لم تحكي عن رؤيتها، لكنها ادعت أنها لمحت جثة الفتى أثناء مرورها بالصدفة في المنطقة. المشكلة الوحيدة أن الجثة لم تكن مرئية من الشارع بأي حال. مر الأمر خاصة مع شهادة البعض أن الفتى كان يعاني مشاكل مع زملائه في المدرسة، وأنهم جميعًا سيئو الخلق بشكل أو بآخر. أضافت صفاء: - في مرة تالية هرعت لأنجد سيدة ضربها زوج ابنتها بأسطوانة غاز إثر شجار على مال.

وجدت صفاء المرأة ميتة أمام باب شقتها، ويبدو أنها كانت تحاول الزحف خارجة للاستنجاد بالجيران.

- لم أجد مبررًا لوجودي أو لمحاولة فراري كي لا يراني أحد. المرة الأخيرة كانت في الحبس، حين رأيت أن سجينة معي قد كسرت ملعقة بلاستيكية كانت تأكل بها، وغرستها في عنقها بغرض الانتحار. السجينة كانت أمامي ورأيتها تبدأ في تنفيذ ما رأيت. هرعت نحوها أمنعها، لكنها طعنت نفسها وأنا أحاول منعها. لم ير أحد الحقيقة، وشهدوا أنني هجمت عليها وقتلتها.

بكت صفاء مرة أخرى. هي حقًا في ورطة، وتاريخها يشير إلى مشكلة نفسية قد تدفعها للعنف، وربما تشير إلى إصابتها بمرض عقلي. قالت سهير: - ربما يستطيع محاميكِ أن يستغل احتمالية إصابتك باضطراب عقلي.

قال لويد:

- وغياب سلاح الجريمة في مقتل الفتى، وعدم وجود بصماتك على أسطوانة الغاز، أعتقد أنهم لم يجدوا بصماتك طبعًا.

هزت صفاء رأسها إيجابًا، ورفعت كفيها في قفازيها وأضافت:

- لكنني منتقبة وأرتدي قفازين في الشارع أو في وجود رجال غرباء.

أثناء رحلة العودة، قال لويد لسهير وهو جالس في الميكروباص المزدحم:

- من الأمور الغريبة في جرائم عائلتك، جريمة تسريب الأسئلة. يقولون أنها وقفت أمام الخزانة وعرفت الأسئلة، لكنها لم تنكر تسريبها إلى الطلبة.

- هل ترى النسق الذي أتحدث عنه؟ رؤية استباقية مع صفاء، رؤية عن بعد في جريمة تسريب الأسئلة..

- إشعال حرائق وسقوط الكعكة في الزفاف يشيران إلى تأثير على المادة دون وسيط مادي.

- ماذا عن النصب والشجار؟

- لا نريد الانجراف في ربط القضايا ببعضها أكثر من اللازم. ربما كان قريبك نصابًا حقًا، وربما تشاجر الرجل وزوجته شجارًا لأسباب طبيعية.

هزت سهير رأسها غير مقتنعة، لكن لا يوجد إثبات على خطأ استنتاج لويد. أضاف لويد فجأة:

- سيدة رجاء، هل من عائلتكم ذوو سجلات في الشرطة؟ مخالفات قانونية من أي نوع؟

نظرت رجاء إلى سهير تتأكد منها من الترجمة، ثم أجابت:

- ليس أكثر من أي عائلة محترمة أخرى. لم يدخل أي فرد من عائلتنا قسم الشرطة إلا للإبلاغ عن ظلم تعرض له، أو لاستخراج أوراق. لا يرتكب أينا أكثر من مخالفات قيادة سيارة من وقت لآخر.

- إذًا ما الذي استجد عليكم؟

- قلت مرارًا، لقد حُسدنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعرف سهير أنها تحلم. هذه الأحلام الواضحة المريحة التي تعرف أنها آمنة، غير حقيقية ولا توهمها ولو لدقائق أنها حقيقية. تسير سهير في شوارع طنطا وكفها تعانق كفه. لا تراه لكنها تعرف أنه هو.. من يكون؟ لا تتذكر اسمه، لكنها تحبه وتتمنى لو ترى وجهه في هذا الحلم الآمن.

تترك يده، فتلمح دبلة خطوبة ذهبية. تصعد إلى بيت أبيها. رجاء تجلس في الصالة تحشو الباذنجان أمام التلفاز. تسأل سهير: «ألن يتناول الغداء معنا»، فتجيب: «نعم.. هو مشغول اليوم.»

تدخل حجرتها وترتمي على الفراش. تفتح حقيبتها وتمسك كاميرتها لترى كم تبقى من صور على فيلم التصوير ماركة «كوداك». خمس صور.. لا بأس.

رجاء في الحجرة، لكنها أكبر سنًا من رجاء في الصالة. تسير مرتكنة إلى عكازها وتقول لها:

- سهير.. ألن تنسي؟ ألن تتذكري؟ هذا الموقف المائع هو سر عذابك.

- لا أريد أن أتذكر، لكن عقلي لن يدعني أنسى.

تجلس رجاء على الفراش جوارها وتقول لها:

- عرفت بالصدفة أنه يعيش في طنطا بعد. في منزل أبيه.

- لا أريد أن أعرف عنوانه. لا أريد أن أعرف حتى إن كان حيًا.

- هو حي. يقولون أنه حي، وإن كنت نسيتِ فأنا لا أنسى. ولو مات أبونا فأنا سأحميكِ وسأحمي هذه العائلة بدلًا عنه.

....

تستيقظ سهير على صوت ضوضاء في الصالة. تفتح عينيها لتجد أنها تنام في فراش رجاء. صوت الطفلة المدعوَّة نِمنِم التي تحب نسائر الدجاج يصيح في جذل: - لقد ركبت المكعب وحدي. أقسم بالله!

- أصدقك!

- أنتِ ساعدتني يا تيتة رجاء. رأيتك في الحلم تعلمينني كيف أعيد ترتيب الألوان.

تضحك رجاء، فتقوم سهير متسللة إلى الحمام لتغسل وجهها، ثم تبدل ثيابها وتخرج إليهم. تنطلق نحوها الطفلة وهي تحمل مكعب الروبيك ذا الأوجه مختلفة الألوان.

- تيتة سهير، أعدت كل وجه بلون وحدي!

- برافو!

تسلم سهير على والدها الذي هو أحد أقارب أبيها، وتلاحظ أنه يحمل همًا معينًا. يقول:

- آسف للإزعاج يا سهير، لكن كنت أريد استشارتك في أمر.

نظر نحو ابنته ثم رجاء، ففهمت الأخيرة أنه يريدها أن تبعد الطفلة. هتفت:

- تيتة صنعت كعك برتقال رائعًا في المطبخ، ما رأيك أن تساعديني في تقطيعه وصنع الشاي؟

قامت الطفلة مع رجاء التي لم تكن جدتها بالطبع، لكن جرت العادة أن يطلق الأطفال لقب «تيتة» على مَن هم مِن جيل أجدادهم أو في مرتبة قرابة أقرب للجد. قال معتصم والد نِمنِم: - سهير، اعذريني أنا لا أعرف بالضبط مجال دراستك، لكني رأيت صورًا لك على فيسبوك وخلفك لافتة لمعمل علم النفس. أليس هذا اسمه؟

- مركز ما وراء علم النفس يا معتصم. علم مختلف عن علم النفس.

ضحك معتصم ضحكة متوترة وقال:

- لعنة الله على التعليم الحكومي. إنجليزيتي ضعيفة. يبدو أنني مضطر للبحث عن مختص آخر.

- ما المشكلة يا معتصم؟ احكِ لي ولو على سبيل الفضفضة.

- أبدًا.. نِمنِم منذ ولادتها وهي تتابع أشخاصًا غير مرئيين. كانوا يقولون أن الرُضَّع يرون الملائكة، لكنها الآن في عمر السادسة ولا زالت تراهم.. لا أقصد الملائكة طبعًا، لكنها ترى بسم الله الرحمن الرحيم..

- جنًّا تقصد؟

- كلا. موتى. المشكلة أنها رأت أختي رحمها الله، التي ماتت منذ تسع أعوام، ووصفتها بدقة. في مرة كنا في بيت والدتي في طنطا واختفت نِمنِم، لنجدها بعد ساعة وسط الحقول تحفر لتُخرج لنا علبة من الصفيح فيها ألفا جنيه. قالت لنا أن عمتها هي من طلبت منها استخراجها وإعطاء المال لأمها كي تسدد دين عليها. لم يكن هذا هو الموقف الوحيد طبعًا. منذ أشهر تزعم أنها ترى رجاء في الأحلام وتساعدها في الاستذكار أحيانًا أو تلعب معها. آخر ما حدث هو موضوع مكعب الروبيك هذا. كان على مكتبي وأوجهه الستة فوضى من الألوان، ثم في الصباح وجدتها قد رتبته وتزعم أن رجاء هي التي علَّمتها. كلنا نعرف كم أن رجاء بارعة في هذه الألعاب.

فكرت سهير في معنى هذا، وكيف قد يكون له تفسير في علم النفس أو أي علم آخر سوى الباراسيكولوجي. ما الذي حدث لهذه العائلة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نفس المقهى في وسط البلد، جلس لويد يلتهم المزيد من الشطائر الملوثة وينصت إلى سهير التي تتلكم في حماس: - هذه ليست المرة الوحيدة التي يتغير فيها شكل حياة عائلة مصرية بعد حضورهم زفاف!

أدارت نحوه شاشة الحاسوب المحمول وهي تشير نحو ملف مُدعم بالصور والروابط وقالت:

- ساعدني نبيل في البداية على تحديد أغرب القضايا في العشر سنوات الماضية. القضايا التي حُوِّل أغلب مرتكبيها للتقييم النفسي، أو ظلَّت مُعلقة دون سلاح جريمة أو جثة أو طريقة مُقنعة لارتكابها رغم الشهود.

تقلَّص وجه لويد كأنه يعاني ألمًا، لكنه أشار إليها أن تستمر، فقالت:

- هل أنت بخير؟ حسنًا.. بحثت خلف مرتكبي جرائم الفئة الأخيرة، اثنان منهم على الأقل من عائلة واحدة. استعنت بنبيل مرة أخرى للحصول على بيانات من خرج منهم من الحبس لعدم كفاية الأدلة، وسألت تسعًا منهم عن أحوال

عائلاتهم، وأقرَّ اثنان أن البداية كانت من وقت زفاف عائلي، وأخبرتني واحدة أن الغرائب بدأت مع حفل عيد ميلاد في أحد النوادي، ولم يتذكر الباقون البداية، لكن الجميع أكدوا أن هناك غرائب حدثت في محيط العائلة.. لويد؟ إن كانت هذه النوعية من الأطعمة تتعب صحتك فلماذا تأكلها؟

قال لويد أخيرًا وهو يغلق كيس الشطائر ويحني ظهره يأسًا:

- نفد المال الذي أحضرته معي، وكذا مدخراتي في المصرف.

شهقت سهير وضربت صدرها على الطريقة المصرية وقالت:

- كيف؟! فيم صرفت كل هذا المال؟!

- نبيل.. سهير، أنا لا أتهم قريبك بأي شيء طبعًا، لكنه مُقنع للغاية! كان يصحبني إلى أصدقائه من أصحاب البازارات فيقنعني بطريقة لا أتذكرها أن أشتري قطعًا باهظة الثمن منهم. في مرة طلب مني مبلغًا ضخمًا ليعطيه لشرطي متقاعد يقبل أن يساعدنا في أوراق مكتب التحقيقات..

سألت سهير في شك:

- وهل وصل لشيء في موضوع استخراج الأوراق؟ نحن في مصر منذ أسبوعين تقريبًا.

- كلا.. لكنه يطلب المزيد من المال ويصحبني إلى أماكن أدفع فيها أموالًا طائلة لأمور لا أتذكرها. المشكلة يا سهير أنني لست غاضبًا ولا أشعر بأي مشكلة!

ضربت سهير جبينها بكفها وهتفت:

- يا لي من حمقاء.. انجرفت في استخلاص المعلومات ولم أسأل نفسي عن طريقته في الحصول عليها.. قد يكون بعض هذه المعلومات سريًّا، و..

اتسعت عيناها فجأة، وفتحت حقيبتها فأخرجت بطاقتها البنكية، ثم هرعت نحو ماكينة صرَّاف آلي ودسَّتها فيها. وقف لويد خلفها ينظر إلى الشاشة التي أنبأتهما أن رصيد سهير في البنك الأمريكي سبع دولارات وخمس وخمسون سنتًا.

- لويد.. نبيل شقيق مراد، النصاب الذي لا يمكن أن ينصب على أحد، لكن الجميع شهدوا ضده..

- غالبًا ما يتشارك الأشقاء نفس القدرات الفائقة للحواس..

- الاثنان يستطيعان إقناع الناس بأمور معينة ولا تقابلهما أية مقاومة. هل تظن أن نبيل أو مراد أو كلاهما أقنعا بعض أفراد عائلتي بارتكاب جرائم؟

- ماذا عن العائلات الأخرى يا سهير؟ هل لنبيل علاقة بهم؟ ما علاقته برؤية الطفلة قريبتك للأشباح، أو رؤية السيدة السجينة لجرائم ستقع في مستقبل قريب؟

ارتكنت سهير إلى الحائط وهي تحدق إلى النادل الذي عبر الطريق يطالبهما بدفع ثمن الشاي. تذكرت أمورًا ضبابية نسيتها منذ سنوات. حديث رجاء لها في الحلم، وزيارتها لنِمنِم في المنام.. كل هذا يتسق بشكل ما، لكن لو استطاعت فقط أن تُجلي عقلها قليلًا..

قال لويد وهو يخرج آخر خمسين جنيهًا من جيبه:

- لنتصل بنبيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفن نبيل سيجارته في بقايا كوب الشاي وقال:

- سهير، إن كانت لي علاقة بالجرائم كما تزعمين، فلماذا أساعدك في تحري أمرها؟! يبدو أن العمل مع العفاريت أثر على ظنك في عائلتك..

صاحت سهير:

- اسمع يا نبيل، أنا أعرف أخلاق عائلتي جيدًا وأعرف أنك ومراد لستما نصابين، وغالبًا فعلتما ما فعلتماه دون أن تُدركا! أنا أحاول فهم ما يحدث. ألا تقلق بصدد أن يُبلغ أحد عنك؟ أن ينتهي بك الأمر في الحبس مثل مراد؟

زفر نبيل وأسند مرفقيه إلى المنضدة وقال وهو ينظر إلى سهير ثم إلى لويد وقال:

- ماذا تقترحان؟

أجاب لويد:

- أن تعيد إلينا أموالنا أولًا. كل المال الذي أخذته مني لتسهيل الأوراق التي لم ولن تنتهي، وما أخذت من سهير مقابل المعلومات.

- مستحيل يا دكتور. أغلب ما أخذت منكم ذهب إلى جيوب آخرين ولم أستفِد إلا بنسبة لا تزيد عن عشرة بالمائة من أموالكما. أقسم بالله أن هذا ما حدث، وما فعلت بالنسبة لي لم يتعدَّ استغلال قدرتي على الإقناع!

قالت سهير في شرود:

- كيف كنت تقنعنا؟ ولماذا ننسى تفاصيل ما أقنعتنا به؟

- كنت أقنع الجميع بأقل مجهود وبأقل كلمات. ورحمة أمي أنا نفسي لم أبذل أي مجهود...

قاطعه لويد:

- لنقطع الشك. صوري يا سهير ما سيقوله لي وهو يحاول إقناعي ببيع ساعتي له. نصور ما سيحدث كي لا يؤثر على كلينا وننسى.

أجفلت سهير ثم هتفت:

- لا.. لا أحب التصوير.. لا أعرف كيف أصور.. أعني.. صور أنت يا لويد وهو يقنعني بأي شيء.

هز لويد كتفيه ثم أخرج كاميرته من حقيبة كتفه وبدأ يصور. ابتلع نبيل ريقه وقال متوترًا:

- سهير.. ما رأيك أن تبيعي لي هاتفك مقابل مائة جنيه؟

- لا طبعًا.

حاول نبيل مرات بطرق مختلفة لكن سهير لم تتأثر. وضع لويد الكاميرا على المنضدة وسأل نبيل:

- أنت متوتر ومُراقَب. أغلب اختبارات القدرات الفائقة للحواس تفشل بسبب التوتر ومحاولة صاحب الموهبة نفيها أو إثباتها. ادعنا على الغداء إذًا ولنحاول لاحقًا.

أضافت سهير مازحة:

- ولا تدعنا على شطائر فول ولا كشري! الرجل سيموت منا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت سهير منزل رجاء مُجهدة بعد جلسة طالت مع نبيل دون جدوى. بدلت ملابسها وقبل أن تخرج من الحجرة سمعت صوت رجاء من الخارج تناديها: - سهير.. نبيل على الهاتف يقول أنكِ نسيتِ هاتفك معه.

اتسعت عينا سهير وفتحت حقيبتها تفتش فيها كالمجنونة.. الهاتف ليس معها! كيف نسيت؟! خرجت إلى رجاء مسرعة وأخذت الهاتف من يدها وقالت لنبيل: - شكرًا يا نبيل، أتمنى ألا تتصرف فيه حتى الصباح. اقرأ لي رقم لويد لو سمحت.

كتبت الرقم على طرف منديل، ثم اتصلت به من هاتف رجاء. رد الرجل سريعًا كأنما يتوقع مكالمتها.

- سهير! لقد فعلها! لا بد أن تشاهدي الفيديو.

- ألم توقف التصوير؟

- بالطبع بلى، المحقق الماورائي لا يوقف التصوير أبدًا!

أرسل لويد الفيديو إلى سهير على الواتساب الخاص برجاء. فتحته لتجد أنه قد قص الفيديو بحيث يُظهر المقطع المهم الذي يُظهر نبيل صامتًا ينظر إلى سهير، وهي تضيق عينيها كأنها تحاول التركيز في أمر ما، ثم تبتسم وتدفع هاتفها المحمول نحوه، وتُكمل شرب قهوتها.

أرسلت سهير للويد:

«ماذا فعل بالضبط؟!»

«أرسل رسائل عقلية إلى لا وعيك مباشرة. قدرة نادرة للغاية، وتعتبر من أنواع التخاطر العقلي. يبدو أنه قد فعلها دون أن يدرك بعدما زال توتر الاختبار.»

«هذا يفسر ما فعل مراد، لكن.. ما فعلاه جريمة تحت أي مقياس. هل يمكن أن يمارس المرء فعلًا لا شعوريًا عكس قيمه الأخلاقية؟»

«هذا يتوقف على مدى تأكدنا من قيم هؤلاء الأشخاص بالفعل. كلنا لدينا جوانب مظلمة في عقلنا، يمنعنا ضميرنا والخوف من العقاب عن تحقيق ما فيها. هذا لا يقلل أبدًا من أخلاق نبيل أو أي شخص آخر.»

خطر على بال سهير خاطر مُفاجئ: «ما هي أعمق أمنياتِك؟» قبض هذا الخاطر معدتها للحظات قبل أن ترفع عينيها نحو رجاء وتقول لها: - رجاء، هل يمكن أن تجمعي أقرب الأشخاص لكل من ارتكبوا جرائم من عائلتنا؟ أريد الحديث معهم للضرورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مساء اليوم التالي، وبعد انصراف مَن طلبت سهير لقاءهم، جلست رجاء مع سهير في متجر المخبوزات الذي تملكه، ويقع أسفل البناية التي تسكن فيها. قالت رجاء: - تقصدين أن عائلتنا –كلها- لديها قدرات خارقة؟!

- أولًا ليست كلها طبعًا، لكن معدل الموهوبين عال بشكل غير طبيعي، ولا أعرف السبب بعد. ثانيًا هي ليست قدرات خارقة يا رجاء. كل البشر لديهم تلك القدرات بنسب متفاوتة، ولا تظهر إلا تحت ضغط قوي. كم من أم

سمعت ابنها يستغيث بينما يفصل بينهما مسافة شاسعة؟ كم مرة تعطلت الأجهزة بسبب توترنا الشديد؟ كم مرة رفضت السيارة الحركة في أكثر وقت تحتاجينه فيها؟ كم مرة أثر حقدنا على أحد في حالته الصحية؟ هذه القدرات أكثر شيوعًا مما تتصورين، لكنها أقل قوة مما يظهر في عائلتنا.

- أتفهم هذا، ولم يفاجئني ما قلتِ كما تظنين. أنا فقط فوجئت بالعدد.

قالت سهير وهي تنظر إلى وجه أختها الذي تخبئ ملامحه أمرًا:

- تصورت أن تفسيري سيفاجئك، أو على الأقل لن تتقبليه بسهولة.

- الغرائب تملأ العالم يا سهير، لكننا نهرب منها. تقبُّل الضعف أسهل من تقبُّل مسئولية القوة.

أجمع أفراد عائلتها على أن السجناء ذوو أخلاق ونوايا حسنة، وأن بعضهم أبدى قدرات غريبة مرة أو مرتين في ظروف معينة. لم يتبق لدى سهير سوى سؤال واحد أحبت أن تسأله بعيدًا عن الآخرين.

- رجاء.. ماذا عنكِ؟

- ماذا عني؟

- موهبتك. معتصم أخبرني عن الأحلام التي تراك فيها ابنته..

-.. مجرد أحلام...

-.. ماذا عن الأحلام التي أراكِ فيها وكنت أظنها أيضًا أحلامًا؟ منذ سافرت إلى أمريكا وأنا أراك في أحلامي تمارسين حياتك الطبيعية كأننا نعيش سويًا. لكن كم مرة أخبرتني بأمور في الحلم لأجدك تخبرينني بها عبر الهاتف في اليوم التالي؟

حدقت رجاء في وجه سهير وكأنها تنظر عبره إلى عقلها مباشرة وقالت:

- ماذا عنكِ يا سهير؟ لماذا تركت هذا المتعجرف الذي حاول التحّكم فيكِ ثم هربت أنت من كل شيء حاول حرمانك منه؟

عادت ومضات من مشاهد إلى عقل سهير.. كفان متعانقان.. عينان حانقتان.. كاميرا تُكسر.. فراشة زرقاء شفافة تقف فوق طبق كعك.. كعك؟

هزَت سهير رأسها كأنها تُبعد الفراشة عنه. نظرت حولها لتجد الظلام يحيطها، وقبل أن تفكر في شيء آخر فتحت عينيها. حجرة رجاء حولها، ورائحة كريم المفاصل تفوح من النائمة جوارها.

كان هذا حلمًا..

لكنه ليس مسالمًا كالأحلام السابقة. لقد بدأت تتذكر ما هربت منه.

قامت في هلع تهرع إلى هاتفها الذي استعادته.. تبحث عن رقم تعرفه جيدًا في أمريكا ولم تتواصل معه منذ أكثر عشرين عامًا. رن الجرس عدة مرات قبل أن تسمع صوت بريتا تتساءل عن المتصل.

- بريتا.. أنا سهير زاهر.. مركز جوزيف بانكس راين، ٢٠٠١..

صمتت العجوز هنيهة ثم قالت في ترحاب:

- آه! بالطبع أتذكرك! سعيدة أنكِ طلبت ألا تنسيني. امرأة عجوز مثلي تعرف أن النسيان التام ليس من طبائع الأمور، ولا بد للإنسان أن يتذكَّر ويتألم، وإلا لن يتعلم.

لكن بريتا كانت مَدينة لسهير، ولهذا طاوعتها ردًا للجميل. في شتاء عام ٢٠٠١، وسهير في طريقها إلى شقتها الصغيرة في مبنى هولي هيل قرب الجامعة، سمعت أنينًا مكتومًا خلف صفوف سيارات السُكان. أخرجت الصاعق من حقيبتها واقتربت وهي تهتف: - مرحبًا.. من هنا؟ هل أنت بخير؟

استمر الأنين وزاد عليه صوت ضربات أو ركلات. حذاء يضرب الأرض بلا انقطاع. دارت حول السيارة وهي تتلفت حولها متوقعة أن يكون هذا فخًا لسرقتها. لم تكن قد أكملت عامين في الولايات المتحدة وذكرى الأفلام الأمريكية التي شاهدتها في مصر عالقة في ذهنها بعد.

رأت سهير سيدة في بداية الستينيات جالسة خلف السيارة، وأمامها كهل غليظ الملامح ممد على الأرض يركل ويئن دون أن تمسه. سألتها سهير: - سيدتي. هل هو مصاب بنوبة صرع؟

-....

- هل أتصل ب ٩١١؟

لم ترد المرأة وظلت تحدق إليه. خشيت سهير أن تقترب أكثر، لكن الرجل كان في وضع سيئ واستنتجت أن المرأة مصدومة. طلبت رقم ٩١١ من هاتفها المحمول الضخم فجاءها الرد المعتاد يطالبها ببياناتها ونوعية المشكلة التي تواجهها. نظرت المرأة إلى سهير بعينين متسعتين مُحذرتين وهمست: - أغلقي الخط! ليس الأمر كما تصورتِ!

لاحظت سهير أن الرجل توقَّف عن الارتجاف فجأة، وشهق وهو يدير عينيه بين وجهها ووجه المرأة، ثم قام يتعثر ويبتعد وهو يرسم علامة الصليب كأنه يفر من شيطان.

تراجعت سهير خطوات إلى الخلف وهي ترفع الصاعق بيد وتمسد الهاتف باليد الأخرى. وقفت المرأة ورفعت كفيها أمامها وقالت لسهير: - لا تخافي. هو مَن حاول سرقتي فاضطرني للتعامل معه.

- ابتعدي عني..

- سأبتعد..

تراجعت العجوز نحو الرصيف، ثم ركعت تُلملم بعض العبوات التي تناثرت من كيس مقطوع. سألتها سهير بعدما أنهت المكالمة واعتذرت لموظفة الرد على مكالمات الطوارئ: - كيف يمكنني مساعدتك؟ أين تسكنين؟

قالت المرأة وهي تضم العبوات إلى صدرها:

- لا تقلقي، ولا تعرضي نفسك لخطر الحديث مع مَن لا تعرفينه. أستطيع الدفاع عن نفسي جيدًا..

- ماذا فعلتِ به؟

- دافعت عن نفسي.

- كيف؟

- أنسيته سبب مهاجمتي، لكن يبدو أن الرب لم يسمح له بنعمة النسيان.

نعمة النسيان.. ليت الله يمن عليها بها. سألت سهير وهي تقترب من المرأة أكثر:

- اسمي سهير زاهر، أدرس في جامعة دوك.

أشارت إلى ما خلف المرأة تجاه الجامعة عبر الطريق. قالت المرأة:

- أنا بريتا. لا بد أنك تعرفين مركز جوزيف بانكس راين هناك.

- أعرفه. ماذا تفعلين هناك؟

- أخضع لاختبارات هناك مقابل بعض المال.

عقدت سهير حاجبيها وقالت:

- أية اختبارات؟ وكيف تحصلين على المال؟ سمعت أن المركز لا يمنح المال مقابل الاختبارات.

- الأمر ودي. أنا من الجيل الذي تربى على قصص الخارقين وسلسلة عودة الشعلة الآدمية ومغامرات كابتن أميريكا. هذا الجيل هو من يعمل في المركز الآن، وأصبحِت مهمته وضع إطار علمي لكل هذا الخيال. حين سمعت عن

المركز لم أندهش. قلت لنفسي: «لماذا لا تجربين يا بريتا؟ لماذا لا تذهبين وتطلبين منهم أن يطلقوا اسمًا منمقًا على ما تفعلين طيلة حياتك ويُخيف الجميع منك؟»

لم تشعر سهير إلا وهي ترتكن إلى مقدمة السيارة وتسمع في شغف حكاية بيرتا، التي عاشت حياتها وحيدة منبوذة حتى في سنها الذي جاوز الستين. توفي والدها ووالدتها في عمر الأربعينيات وهي بعد في الخامسة عشرة، بعد معاناة طويلة مجهولة مع فقدان الذاكرة التدريجي الحاد. انتقلت للعيش مع عمتها، وقبل أن تبلغ الثامنة عشرة أصيبت عائلة عمتها بالكامل بفقدان الذاكرة الكُلي. تأكد الأمر بعد أن بدأت العمل في إحدى دور السينما، إذ عانى زملاؤها النسيان، فتركت العمل على الفور. تقول بيرتا: - عرفت أنني السبب بشكل ما. كل من يقترب مني يفقد الذاكرة. كنت قد تزوجت وقتها من أحد زملاء عملي، وحملت في ابنتي الوحيدة، ثم قررت الفرار خوفًا عليه مني. بعدما ولدت ابنتي، أرسلتها إلى والدها وكتبت له أخبره بكل شيء. كنت أراقبها من بعيد وأبكي. أنا أمتص ذاكرة الناس ولا أعرف لهذا سببًا ولا اسمًا.

اكتسبت بيرتا من حياة الشوارع حكمة ورؤية أدق نفسها، ولاحظت أنها تستطيع التحكم في لعنتها. فشلت في كبتها بالكامل، لكنها استطاعت أن تستخدمها سلاحًا تدفع به الأذى عن نفسها.

- أنظر إلى المرء وأتخيل نفسي مكانه، أتخيل أنني هو، وسرعان ما تندفع إلى عقلي ذكرياته من الأحدث للأقدم. كم كان هذا مؤلمًا. كم كان مُدمرًا أن أخوض في ذكريات بائس تعس يحاول إيذائي لينقذ نفسه من الجوع أو يوفر لنفسه مأوى وسط الأطلال التي أحتمي فيها تحت الجسر. هو مثلي، خائف خطر، يصارع لأجل الحياة.. غريزة لا أكثر. لكن حياتي مقابل حياته، وأنا لن أسلبه سوى أسباب مهاجمته لي.

تدريجيًا، وجدت بيرتا نفسها تتجول في عقول المشردين حولها. تلك الأوجه الجشعة الخبيثة التي تداري أرواحًا تنزف الكرامة. لكل حكاية تؤلمه، ماذا لو محت هذه الحكاية؟ ماذا لو محت أسباب المعاناة؟

- لم أجد ونيسًا في وحدتي سوى قراءة أي وريقة أجدها. لو كانت جزءًا من خبر في جريدة أكمله مما يمتلئ به ذكريات الناس، لو كانت قصة أكملها بحكاية أليمة مما التهم عقلي. أنا لا أنسى أبدًا، ولا أجد ما يوازن ألم ذكريات الآخرين سوى الخيال.

لبريتا زي نظيف تحتفظ به لزيارة المكتبة العامة. تجلس هناك لتقرأ بالساعات حتى موعد الإغلاق. في يوم من أيام شتاء عام ١٩٩٩، قرأت في كتاب «عالم الوعي- الحقيقة العلمية وراء الظواهر الروحانية» بقلم واحد من

أهم علماء الباراسيكولوجي؛ دين رادين. قرأت بريتا نبذة الغلاف الخلفي عن الكاتب، وعرفت أنه يعمل في جامعة سونوما في كاليفورنيا، عند الجهة المقابلة من الولايات المتحدة.

سألت بريتا أمينة المكتبة عن أماكن دراسة الباراسايكولوجي قرب شمال كارولاينا، فبحثت الأمينة في سجل المعلومات على الكومبيوتر أمامها ثم قالت لها: «جامعة دوك تُدرّس هذا العلم، ويوجد معمل للأبحاث هناك.»

قالت بريتا لسهير:

- وأنا آتي هنا منذ عامين تقريبًا. تمنحني الدكتورة ريبيكا جولدمان مالًا من جيبها الخاص لتدرس حالتي أكثر، وتساعدني على التحكم فيها. قالت لي أن موهبتي هي خليط من الرؤية التقهقرية؛ القدرة على رؤية الماضي، والتلاعب في الذاكرة عن طريق التخاطر العقلي.

عرفت بريتا من خلال جلساتها مع الدكتورة ريبيكا أنها كانت تمحو الذكريات من عقول الآخرين دون وعي، ظنًا منها أنها تمحو آلامهم، وكررت نفس الأمر عن وعي حين كبرت ووعت لقدراتها.

- اكتشفت أنني آذيت الكثير ظنًا مني أنني أساعدهم. لكم وددت في البداية أن أُنسي نفسي ما فعلت، لكنني فهمت أنني لن أتعلم شيئًا إن نسيت.

فطنت سهير إلى أنها تسمع حكاية بريتا كأنها تسمع حكايتها هي. حكاية الموهبة واللعنة والنبذ والألم.

بعدما أنهت سهير دراستها تطوعت في المركز لتفهم أكثر، لكنها كانت قد قررت أن تنسى ماضيها وكأنه لم يكن. ظلت تقابل بريتا من وقت لآخر حتى جاء يوم قالت لها بريتا فيه أنها مستعدة الآن لمواجهة ما تبقى من حياتها بشكل إيجابي أكثر دون الخوف من أن تؤذي أحدًا، وستعود لابنتها وتحاول تعويضها عن الحياة الصعبة التي عاشتها. قالت لسهير أن اسمها ديانا وأنا مطلقة تعول طفلين. أمسكت كف سهير وقالت: «اعتني بها إن حدث لي مكروه.»

تعرَّفت سهير على ديانا وحضرت أول مقابلة لها مع أمها بعد سنوات مما ظنته ديانا هجرًا، وأول ما احتاج المركز سكرتيرة استقبال رشحَّتها. في آخر مرة رأت فيها بريتا في بداية عام ٢٠٠٣، قالت لها: - أنا مدينة لك بالكثير. اعذريني يا سهير إن كنت قد تلصصت على ماضيكِ، لكن ما رأيته فيه أبهرني. أردت أن أعتذر لك قبل مغادرتي الولاية في جولة ربما تكون الأخيرة لزيارة من تبقى من عائلتي محاولة التكفير كما فعلت دون قصد. هلا سامحتني؟

قالت سهير دن تفكير:

- إن كنت مدينة لي يا بريتا وتريدينني أن أسامحك، امحي ما رأيته من عقلي. لا أريد أن أكذب كل لحظة وأخفي نفسي وخوفي منها. عالجيني لأبدأ حياة جديدة حقيقية. لا أريد أن أعيش هاربة من الماضي!

- الماضي هو ما يجعلك سهير زاهر. إن نسيتِ ما يؤلمك لن تصيري امرأة أخرى، بل نصف امرأة.

- نصف امرأة حية أفضل من امرأة كاملة ميتة. لن أسامحك يا بريتا على تلصصك على ذكرياتي ما لم تمحها!

زفرت بريتا، ثم قالت وهي تنظر إلى عيني سهير:

- هل أمحو معرفتك بي؟

ترددت سهير لحظة ثم قالت:

- كلا. لا أريد أن أنساكِ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت سهير لبريتا عبر الهاتف:

- بريتا.. هل تتذكرين ما نسيت أنا؟

- قلت لك يا ابنتي أنني لا أنسى شيئًا. تابعتك من خلال ديانا، وظننتك لن تسأليني أبدًا عن سرنا.

- أريد أن أتذكر يا بريتا. هل تستطيعين أن تعيدي لي ذاكرتي؟!

- للأسف، كلا. كل ما أستطيع فعله هو أن أحكي لك عن سهير التي نسيتِها لكنها بعد في داخلك.

جلست سهير على طرف الفراش تُنصت. تحكي بريتا عن سهير زاهر ابنة مدينة طنطا، والتي أحبت الرسم والتصوير، وخُطِبَت لحبيب هام بها حبًا. لكنه اكتشف أنها غير الآخرين، ذُعِر منها ومن صورها ومن كشفها زيفه. قالت بريتا: - الصور التي أخذها منك وزعها على الشارع كله، وظل يكرر أمام الجميع: سهير خطيبتي تصور أشباحًا، سهير ملبوسة، سهير مجنونة.. كل خطيئتك يا سهير أنك أحببته، وكشفت له موهبتك حقيقته. خطيبك ضحل التفكير، لم يحبك قَط إلا لأنك فتاة مسالمة، يتيمة، لن تسأل كثيرًا عن أصله وفصله ولا مستقبله الغامض، وستقبل جنون التملك والعظمة داخله. لم تصدمك حقيقته قدر ما صدمك ما صوّرتِ حوله وردة فعله على تلك الصور.

- وما الذي صورته حوله؟! ما الذي جعله يكسر الكاميرا؟

- شياطينه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزلت سهير من السيارة الأجرة ومدت يدها لرجاء كي تسند عليها، بينما ترجَّل لويد من المقعد الأمامي جوار السائق، ووقف ينظر إلى قاعة «الريتاج» في انبهار.

- سهير.. ما كل هذه الأضواء؟! وما وظيفة الرجال ذوي البذلات السوداء في الداخل؟! لحظة.. لماذا لا يرتدي الناس ملابس بخامات تناسب هذا الجو الحار؟

ضحكت سهير وأجابته:

- هذه هي الأفراح في مصر. خذها أو تركها. استمتع. الأفراح بالنسبة لي في أمريكا بنفس الغرابة التي ترى بها أفراحنا.

هز لويد كتفيه وابتسم ثم تبع سهير ورجاء إلى مدخل القاعة حيث ينتظر الجميع وصول العروسين. استأذن لويد في الذهاب إلى دورة المياه، فهو لم يستطع هجر شطائر الفول والطعمية حتى بعدما أعاد له نبيل جزءًا من ماله.

وصل العروسان في سيارة ليموزين طويلة للغاية مغطاة بالمصابيح الصغيرة. عانى السائق كي يخرج من الشارع الضيق بعدما أنزلهما، ثم انحشر عند المنعطف واجتمع بعض العاملين في المحال حوله يبحثون له عن مَخرج.

بدأت الفرقة في نفخ المزامير ودق الطبول، ورقص الحضور أمام العروسين بشكل عشوائي لعشر دقائق، ثم جاء رئيس الفرقة ذو البذلة السوداء الباهتة، يشير إلى حَمَلة المشاعل كي يصطفوا صفين أمام العروسين وهما يدخلان القاعة على صوت ماجدة الرومي تُنشد «طُلي بالأبيض يا زهرة نيسان.»

شعرت سهير بلويد يقف خلفها، نظرت إليه فقال:

- ما «التيمة»؟ أعتقد أن الموسيقا التي سمعتها وأنا في الحمام موسيقا فلكلورية مصرية، أليس كذلك؟ والآن هذا غناء عربي على ما أعتقد على موسيقا « Wedding March» لميندلسون!

جمعت سهير أطراف أصابعها معًا وهزت كفها أمام وجهه بمعنى «اصبر وسترى».

تبعوا العروسان إلى الداخل، وانبعث الدخان من مكان ما ليرقص العروسان في هدوء على أنغام أغنية رومانسية، لكن سرعان ما أحاط بهم الحضور في أزواج لا يـتألف أغلبها من رجل وامرأة. أحاط بهم الفتيات، والآباء والأطفال،

والأمهات والأبناء، وداس أحدهم مرتين على ذيل فستان العروس، وجلس آخرون في «الكوشة» يرتاحون قليلًا ويلتقطون الصور.

دون مقدمات، هدر صوت هشام عباس يتلو «أسماء الله الحسنى». نظرت سهير إلى أعلى نحو لويد الطويل لتجده يضحك منبهرًا بهذا الخليط المتلاحق. هذه غرائب وعجائب لن يسجلها مركز راين ولا مكتب التحقيق الماورائي أبدًا.

طافت رجاء بعكازها على الجميع، تضحك وتهنئ وتلكز تلك لومًا على ضيق فستانها، وتجذب طرحة هذه لتغطي شعرها، ثم تذهب لتتأكد أن الطعام سيكفي العدد الذي جاوز الحد المتوقَّع.

جلست سهير ولويد بعدما سلَّما على العروسين على منضدة في نهاية القاعة؛ هما الغريبان في المكان والجميع ينظر نحو سهير نظرات ساخرة تجسد سوء نيتهم في تفسير علاقتها بالبروفيسور الأمريكي.

قال لويد:

- أعتمد عليكِ تمامًا في أن تخبريني لو حدث أي شيء غريب. حتى الآن لا أرى سوى الغرابة ولا أعرف ما المفترض أن أتوقَّع، حتى أنني هلعت حين رأيت حمَلَة الأسياخ المشتعلة يتقدمون العروسين.

- لا تقلق. ركز أنت على ما درسته من قدرات العقل البشري واترك لي الباقي. المشكلة الحقيقية أنني لن أعرف الوجوه الغريبة إن كانت موجودة. أنا وأنت شخصيًا غريبان. أين رجاء؟!

تلفَّتت سهير حولها بحثًا عن أختها لتعينها على تحديد الغرباء إن وُجِدوا، فقد استنتجت سهير أن شخصًا أو شيئًا في الزفاف السابق حفز قدرات الإدراك الفائق للحواس عند العائلة، ولا تعرف إن كان منها أو هو شخص غريب.

لمحت سهير نِمنِم الصغيرة تنظر نحو حائط وتتحدث وهي تشير نحو سهير. المشكلة أنها كانت تُحدِّث الهواء. لمحت الطفلة سهير تنظر نحوها فاقتربت منها عدوًا وهي تصيح: - عمو يسألني عنكِ.

نظرت سهير نحو لويد ثم إلى الطفلة وسألتها:

- أي عمو؟

أشارت نِمنِم إلى الركن الخاوي ثم أردفت:

- هذا. هناك. أنت لا ترينه، أليس كذلك؟

- صفي لي شكله يا حلوتي..

- شخص عادي. طويل.. شعره «كيرلي» قصير، يرتدي نظارة وقميصًا أزرق في أحمر.. كلا، ليس أحمر..

مالت الطفلة على أذن سهير وقالت:

- أعتقد أنه «متعوَّر» وينزل منه الدم.

أفلت قلب سهير دقتين، وكادت تمد يدها نحو كاميرا لويد، لكنها تراجعت وأمسكت كفها تحت المنضدة وسألت الصغيرة ذات الشعر المهوَّش والفستان الوردي: - حبيبتي، هل يمكن أن تسأليه عن اسمه؟

هزت الطفلة رأسها وانطلقت نحو الركن.

فجأة، دوى صوت طبلة بلدي فاهتزت يد لويد وأسقطت كوب الشربات على بنطاله. وضع المنشفة على حِجره وهو يعتذر لسهير التي ضحكت للحظات قبل أن تحدق إلى وجه لويد كأنها لا تراه. حرَّك أصابعه أمام عينيها وصاح كي تسمعه: - سهير؟ هل أنت بخير؟

استعادت سهير انتباهها سريعًا ونظرت نحو الركن الخالي فلم تجد نِمنِم. التفتت نحو المسرح ورأت الطبَّال يقف فوق مقعد وينخرط في وصلة طبل حماسية منفردة دون أي موسيقا أخرى. تعبيرات وجهه منتشية، تمزج الحماس بالألم بالمعناة بالضحك بالنظرات الوقحة! اجتمع الناس من حوله وهو يصفقون، والأضواء تُعتِم تدريجيًا.

جاءت رجاء ممتقعة الوجة لتجلس جوار سهير، وتصيح جوار أذنها:

- أرسلت في إحضار المزيد من الطعام من المحل عندي. كل شيء مرتبك في هذا الزفاف. سيضيِّفون الناس يا سهير بهوت دوج بالبصل وأجبان؟ ما هذا، بوفيه إفطار مفتوح في فندق ثلاث نجوم؟!

خفتت الأضواء تمامًا حتى لم يعد من ضوء سوى المتسلل من أسفل فرجات الأبواب. لم يبد أن أحدًا قد لاحظ هذا. ضيقت رجاء عينيها وهي تنظر نحو المسرح ثم تقول: - ما هذا الطبَال المجنون؟ أم أحمد قالت لي أنهم لم يطلبوا هذه الفرقة، لكن حسن أبو لُغد اعتذر في آخر لحظة.

- حسن أبو لغد؟

- مطرب شعبي آخر. يقولون أنه من الزمن الجميل.

تضحك رجاء، لكن سهير تعقد حاجبيها. أبو لُغد والزمن الجميل؟ كأنها تسمع هذه العبارة بصوت رجولي سوقي. استأذن لويد في الذهاب إلى الحمام فهزَّت سهير رأسها شادرة. الإيقاعات والطبول غريبة..

أين نِمنِم؟!

تشعر سهير برغبة قوية غريبة في أن تمسك كاميرا لويد وتصور بها. أي شيء ستصور في الظلام؟ لا شيء.. لكنها ترى يدها أمامها تتحرك رغم إرادتها نحو الكاميرا الصغيرة. نظرت مستغيثة نحو رجاء فوجدتها قد غَفَت وتدلى ذقنها على صدرها، وانحرف غطاء رأسها ليغطي حاجبها الأيمن.

كيف نامت فجأة وسط هذه الضوضاء؟!

الكاميرا في يد سهير. إصبعها يزحف نحو الزر، عينيها تحدقان إلى الشاشة الرقمية. آخر كاميرا أمسكتها منذ ربع قرن تقريبًا هشمها خطيبها آدم الذي استولت الشياطين على جسده. لكنها لا تتذكر أي شيء سوى يده والكاميرا المهشمة، وتعتمد بشكل كامل على ما حكته العجوز لها عن ذكرياتها. لا صور، مجرد قصة ثنائية الأبعاد.

من خلال الكاميرا رأت سهير نِمنِم لا يظهر منها شيء، لكن ثلاثة أشباح يحيطونها، منهم الشاب الطويل ذو القميص الدامي، وامرأة ورجل مسنان شاردان لم تتعرفهما سهير. هزَّت كتف رجاء لتستيقظ وترى من في الصورة، لكنها سقطت عن المقعد.

صرخت سهير ودارت حول المنضدة لتركع جوار أختها. تحسست نبضها فوجدته طبيعيًّا. صرخت، لكن الجميع على المسرح، ومن لا يرقصون منهمكون في شجارات جانبية، منهم العروس التي تمزَّق ذيل فستانها.

الأمر يحدث من جديد.

هرعت سهير نحو دورات المياه تبحث عن لويد. ظلَّت تنادي عليه من الخارج حتى خرج سريعًا يسأل في فضول: - سهير؟! ماذا حدث؟

أدركت سهير أنها لا زالت تمسك كاميرته. قالت:

- لا أعرف.. ما حدث في الزفاف الأول يحدث مرة أخرى. رجاء فقدت الوعي، أو.. أو هي نائمة. رجاء تستطيع التجول بين الأحلام يا لويد وشيء ما حفَّز هذه القدرة أكثر الآن.

انطلق لويد نحو القاعة وسهير خلفه، وكلما اقتربت أكثر شعرت برغبة في أن تنظر عبر عدسة الكاميرا. ركع لويد جوار رجاء يحاول إفاقتها، وحين فشل حملها إلى مقعدها. عقد لويد حاجبيه فجأة وقال في حدة: - ما بكِ أيتها الحمقاء؟! يكفي أنني جئت مع أختك إلى هذا المكان الحقير.

- لويد؟! ماذا حدث؟

- لماذا تحملين كاميرتي؟ ستسرقينها أليس كذلك؟

- هل جُننت؟ ماذا بك؟!

- لطالما كنت غبية جاهلة، تورطينني مع عائلتك اللصوص. أنا راحل.

نظرت سهير إلى الشجار في ركن القاعة، والذي تطور إلى ضرب ولكمات، ثم إلى لويد الذي يجمع حاجياته في عصبية. سارت خلفه حتى خرجا إلى الممر المؤدي إلى الصالة المفتوحة بالخارج. توقف لويد فجأة ونظر إلى الخلف نحو القاعة ثم قال لسهير في هدوءه المعتاد: - أعتقد أنني لمحت شيئًا بالداخل.

- ما هو؟!

- لنعد ونر..

- انتظر. بمجرد أن نقترب من القاعة تتملكني رغبة في التصوير وتتغير أخلاقك أنت وتصير وقحًا. ثمة ما يؤثر علينا بالداخل.

- لقد كنا بخير حتى بدأت فقرة الطبول ثم ساد الظلام. هل هذا شائع في أفراحكم؟ هذا الظلام الدامس؟

- قطعًا لا!

- إذًا فأنا رأيت ما رأيت حقًا. من أين أحصل على سدادات أذنين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك لويد وسهير في الظلام وهما لا يسمعان شيئًا تقريبًا، لكن الشعور الغريب ظل مستمرًا وإن قل كثيرًا. اخترقا الزحام نحو الركن المظلم خلف المسرح، وأشار لويد إلى جهاز هناك وتأكد أنها رأته، ثم خرج الاثنان إلى الهواء النقي بالخارج، وضوضاء من نوع مختلف آمن، ولا زالت السيارة الليموزين محشورة وقد تحطم فانوسها الأمامي. قال لويد: - أنت لم تصعدي إلى المعامل قط. هذا جهاز استشعار ضوئي «فوتوملتيبلاير» لتسجيل الإشارات الضوئية الواهية. الكثير من الكائنات الحية تشع ضوءًا مرئيًا، مثل بعض المخلوقات البحرية وذبابة النار، وتستخدم هذا الضياء الحيوي للتواصل فيما بينها. هذا الضوء تفاعل كيميائي بين ثلاثي فسفات الأدينوزين والأكسجين و..

- لويد، أنت تعرف أنني لم أدرس هذه العلوم في أي مرحل من مراحل تعليمي. ما دور هذا المستشعر في حفل زفاف؟ هل تضيء عائلتنا؟!

- كل الكائنات تضيء يا سهير، لكن بضوء يختلف عما أحدثك عنه. الضوء الذي ندرسه في معامل الباراسيولوجي أضعف من هذا بكثير، أضعف مليون مرة من وهج ذبابة النار. أنا أتحدث عن البيوفوتونات.

يقول لويد:

- الانبعاث الضوئي من البيوفوتونات -ومصدره الجذور الحرة- يتأثر بمضادات الأكسدة والإنزيمات التي تنزع جزيئات الأكسجين المتفاعلة والجذور الحرة قبل أن تؤذي الخلايا، مما يقلل عدد الفوتونات المنبعثة إلى أقل من عشرة فوتونات في الدقيقة وهو مقدار يصعب التقاطه في أشد المعامل حُلكة في الماضي.

أضاف لويد:

- مع تطور العلم استطعنا تصوير انبعاث البيوفوتونات حتى في النباتات. وكلما زاد الضغط والتأثير على الكائن الحي سواء بالمرض أو الضغوط والمؤثرات الخارجية، زاد عدد البيوفوتونات المنبعثة.

- لويد.. اختصر أرجوك. لا وقت لدينا!

- حسنًا.. البيوفوتونات أكثر بكثير من مجرد إشارة لتعرض الخلايا للضغوط. اكتشف العلماء في جامعة نورث ويسترن أن بعض الخلايا تستطيع اكتشاف الضوء المنبعث من الخلايا الأخرى وتستجيب له. لن أخوض في تفاصيل علمية كما تشاءين، لكن الصلة بين الخلايا وبعضها وانجذابها للبيوفوتونات هو بداية ربط هذا العلم الحيوي بالبارسيكولوجي. ماذا لو تعلمنا لغة الخلايا هذه؟ هي سنستطيع توجيه الخلايا لما نريدها أن تفعله؟ هل سنستطيع أن نأمر الخلايا السرطانية بالتوقف عن النمو؟

بدأ المركز في استكشاف الوعي بالبشري من خلال قياس انبعاث البيوفوتونات منذ نهاية التسعينيات، رغم أن الوعي شديد الاختلاف عن بقية الوظائف البيولوجية الأخرى حيث تقوم كل ذرة أو جزيء بتأدية وظيفة منفردة خاصة بها، لكن البشر لا يستطيعون التفكير إلا من خلال عمل خلايا المخ بصورة متزامنة ومتناسقة، ولا سبيل للفيزياء التقليدية لتفسير هذه العملية، لكن فيزياء الكم تعترف بوجود أنظمة معروفة بأن كلًّا منها (كل في حد ذاته)، وهي ما يعرف بالحالات الكمية المترابطة.

أضاف لويد وسهير تتململ وتنظر إلى الممر المؤدي إلى القاعة:

- يمكن تقسيم مشكلة الوعي البشري إلى نصفين، الأول مشكلة تفسير ما أسماه عالم الأعصاب الأمريكي أنطونيو داماسيو ب «الفيلم المخي»، أي هذا السيل من الصور المترابطة التي تمر في أمخاخنا بشكل مستمِر. القسم

الثاني هو مشكلة تفسير إحساسنا بامتلاك هذا الفيلم كمشاهد أول للصور والأفكار، أو كذات مستقلة. هل يمكن اختراع جهاز يمكنه الاطلاع على ما يدور في رؤوسنا ومن ثم التحكم فيه أو التلاعب به عن طريق الصلة بين الخلايا باستخدام البيوفوتونات؟ هذا حلم ظننته بعيدًا، لكن أعتقد أن تفسير ما يجري بالداخل يا سهير هو أن هناك من اخترع هذا الجهاز، وهو يترصَّد لأصحاب القدرات الفائقة للحواس عن طريق قياس انبعاث البيوفوتونات تأثرًا بمحفز خارجي.. ربما الطبل أو الرقص أو شيء آخر، ويحتاج إلى هذا الظلام ليتمكن جهازه من تحديد الانبعاثات ومصادرها.

سألت سهير:

- وهذا يعني أن هناك جهازًا آخر في القاعة يتحكَّم في ذوي المواهب الخارقة؟ أم أن ما يحدث لنا نتيجة التعرض لمثيرات فقط؟ ماذا عنك؟ لماذا تأثرت؟

- أخبرتك يا سهير أن البيوفوتونات تنبعث من الجميع. ربما تأثرت فقط بالمثيرات فصرت عصبيًا. ألم تلاحظي أن أغلب أفراد عائلتك قد انخرطوا في رقص هيستري أو شجار؟

- ماذا سنفعل؟!

صمت لويد لحظات وهو ينظر إلى السيارة الليموزين وسائقها الذي يلطم خديه على ما تحطم منها. أخيرًا قالت سهير: - لإن كان هذا المخبول يرغب في إطلاق القدرات الخارقة، فالعائلة أولى بها إذًا!

أخرجت سهير هاتفها المحمول وضغطت زر الاتصال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت سهير ونبيل خارج القاعة يراقبان حتى انقطعت الكهرباء كلية عنها وأضيئت كشافات الطوارئ. عاد لويد سريعًا من خلفهم وهو يشير بإبهامه أن كل شيء يسير حسب الخطة، ثم قال لهما: - اقتنع العاملون في القاعة أن هناك ماسًا كهربيًا. لنتحرك سريًعا قبل أن يرسلوا أحدًا لتبيُّن الأمر.

نظر نبيل إلى المنهمكين في الشجار، وإلى الواقفين مع المسرح حول الطبال الذي توقف عن أدائه الحماسي، ينظرون إلى بعضهم البعض. همس نبيل: - لم أفعل هذا من قبل مع كل هذا العدد..

قالت سهير:

- حاِول. لم يلتفت هؤلاء العصبيون إلى أي شيء حتى لو اشتعلت القاعة بهم.

دسَّ لويد سدادتي الأذن في أذني نبيل وطلب منه أن يُغمض عينيه كي ينفصل أكثر عن المُشتِّتات، ووقف الثلاثة ينتظرون النتيجة. شعرت سهير بمن يجذب فستانها الفضفاض من الخلف، التفتت لترى نِمنِم تمسك قطعة حلوى ضخمة وأنفها ملوث بالشوكولاتة وتقول لسهير: - أين كنت؟ الرجل اسمه عمو أسامة. أسامة الصوصو أو شيء كهذا.

اتسعت عينا سهير وهي تمسك بكتفي الطفلة وتسألها:

- أي رجل؟! الشبح؟

- أجل. يقول أنك تعرفينه جيدًا ويريد أن يحذرك من أن آدم هنا. آدم لاشين.

دق قلب سهير بقوة حتى كادت تفقد الوعي. أسامة الصاوي هنا، جارها الشهم الذي أحبها في صمت واستمر في حبها حتى بعدما خُطبت لآدم لاشين، بل ودافع عنها ضد ما زعم الأخير، واقترح عليها أن تُكمل حياتها بعيدًا عن طنطا وتستمر في تطوير موهبتها. هذا ما قالته بريتا عن أسامة، وعن آدم الذي أرسل شياطينه لتمزيق الشاب المهذب الشهم.

رفعت سهير الكاميرا إلى حيث توقعت أن ترى أسامة. نظر إليها وابتسم. همس:

- سهير.. كنت معك طيلة الأعوام السابقة، ولكنك كبتِّ موهبتك فلم تستطيعي رؤيتي. أنا هنا لأجلك وأريدك أن تعرفي ألا ذنب لك فيما حدث لي. هذا هو ما أردتِ نسيانه يا عزيزتي.. أنت بطلة وموهبتك كشفت هذا الدجال في طنطا حتى رحل عنها. أنقذي الباقين يا سهير وخذي الحذر.

- أسامة..

بكت سهير وغطت وجهها بكفها. نظر لويد إلى شاشة الكاميرا فأجفل. لأول مرة يرى شبحًا؛ الأشباح ليست ظاهرة بصرية يمكن تصويرها، لكن سهير.. ما هي موهبة سهير؟! الثوتوجرافي! طباعة ما يستقبله عقلها على وسائط مختلفة. سهير مستبصرة..

قال لويد للشبح بحلق جاف:

- سيدي.. شكرًا لك أولًا، ثانيًا.. هل يمكن أن ندرس تجربتك في معامل راين؟ اعذر وقاحتي، لكنها فرصة لن تعوَّض!

ابتسم أسامة وقال وهو يحاول أن يربت على كتف سهير:

- أنا شبح امرأة واحدة إن كنت تفهم ما أعنيه. ظللت هنا فقط حتى تستعيد سهير نفسها، والآن أرحل. سهير قوية، حُرة، لا تحتاج إلى من يوجهها أو

يدفعها. سهير.. أحبك، وسأظل أحبك حتى نلتقي في العالم الآخر..

بهت حضور أسامة تدريجيًا حتى اختفى. صرخت سهير وبكت، ثم هوت على ركبتيها تعانق نِمنِم الصغيرة التي تركت قطعة الكعك تسقط على الأرض، وراحت تُمسِّد على شعر سهير بكف صغير ملوث بالشوكولاتة.

- لا تحزني. كلهم يرحلون لكن يأتي غيرهم سريعًا. لو أردت شبحًا آخر أخبريني.

نظر لويد خلفه ليرى الحضور ينصرفون، ورجاء تنظر حولها في حيرة. هز كتفي نبيل وهتف مشجعًا:

- أحسنت! برافو!

صفق تحية له ونبيل يبتسم في حرج ويسمح العرق عن جبينه، ثم يقول:

- هل أثرت فيهم وأقنعتهم بالرحيل؟! ماذا فاتني؟ ما بك يا سهير؟

قامت سهير تمسح عينيها وهي تقول:

- أنا بخير. المهم، أين آدم؟ أعتقد أنه هو -آدم لاشين- المتسبب في كل هذا. لقد كان يُدرِّس الفيزياء في الجامعة حين كنا مخطوبين، أضيفوا لهذا قدراته السحرية التي استمدها من شياطينه.

سأل نبيل:

- أتذكر هذا. كنت صغيرًا وقتها لكنني أتذكر تلك الفضيحة التي.. إحم.. لا عليكِ. المهم..

قال لويد:

- أي شياطين؟

- سأحكي لك لاحقًا، المهم.. لنبحث عنه. هل تتذكر شكله يا نبيل؟

هز نبيل كتفيه بمعنى أنه غير متأكد.

انطلق الثلاثة إلى القاعة ينظرون إلى الموجودين، قال لويد:

- لنسأل الطبال.. أعتقد أن له هو الآخر قدرة ما ورائية ما، أو على أقل تقدير يعمل مع هذا الفيزيائي.

أشارت سهير لرجاء، فلوحت لها الأخيرة وهي جالسة تحدق في الناس.

- سأعود فورًا يا رجاء.

قال لويد:

- لو وجدت شيئًا يا سهير اتصلي بي، سأضطر للاستعانة بنبيل، فلا أعرف إن كان مصور الزفاف سيفهمني أم لا. أريد مراجعة الصور مع أختك.

هزت سهير رأسها ثم اتجهت نحو الطبال الذي كان يقف جوار المقعد ينظر إلى ما حوله في غباء.

- سيدي، مساء الخير، أنا قريبة العريس. لقد رحل الآن وأخبرني أن للفرقة باقي حساب. أين كبيركم؟ أعني، مع مَن تعمَل؟

- القاعة هي التي تحاسبني. لا أعرف شيئًا عن الفرقة التي تتحدثين عنها. أعتقد أن دورها سيكون بعد العَشاء مثلًا. ماذا يحدث؟

- لا شيء. مشاكل عائلية. عزفك مختلف.. أين تعلمته؟

ضحك الرجل وقال:

- مواهب.. موهبة خاصة. سأرحل الآن..

ابتسمت سهير ابتسامة باهتة وهزت رأسها، ثم تركته يبتعد قليلًا قبل أن تتبعه. رن جرس هاتفها برقم لويد، ففتحت الخط وهي تسير عبر ممرات خلف القاعة. المكان مليء بالمقاعد والأدوات، ورائحة الطعام تتصاعد من مطبخ قريب.

- لويد.. ماذا عندك؟

- آ..م.. و.. آل...!

- ماذا؟ الشبكة ضعيفة؟ لو تسمعني فأنا أتبع الطبال لأعرف إن كان صادقًا.

- ...هير.. آلًا..

- سأغلق الخط..

قابلها أحد العاملين وسألها عن وجهتها، فقالت أنها تصورت أن الممر يؤدي إلى الخارج، فقال:

- يؤدي إلى الشارع الخلفي. لو سيارتك أمام القاعة ستسيرين يمينًا ثم يمينًا.

شكرته ونظرت إلى نهاية الممر لتجد الطبال قد اختفى. أسرعت الخطوات حتى خرجت إلى الشارع الخلفي المظلم. نظرت يمينًا ويسارًا فلم ترَ أحدًا. فتحت هاتفها للتصل بلويد، لكنها وجدت منه رسالة قصيرة أرعدتها: «سهير.. الطبال هو آدم لاشين. رجاء عرفته من صور الزفاف. عودي بسرعة إلينا.»

استدارت سهير لتعود، فشعرت بذراع قوية تلف من خلفها وتحيط بصدرها وترفعها إلى أعلى، ويد أخرى تكتم أنفاسها، وصوت خبيث يهمس: - أجل يا حبيبتي.. أنا هو الطبال. اشتقت إليك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجاء تسير في مرج مفروش بالأزهار، تحيطها فراشات زرقاء. تقول لسهير التي تطير هي شخصيًا بجناحين شفافين: - سهير، أين أنت؟

- أنا هنا.. في مكان مظلم. مع آدم لاشين..

- حسنًا، ماذا حدث قبلها؟

- خطفني. كنت واقفة في الشارع الخلفي وباغتني من الخلف.

هزت رجاء رأسها واختفت. من بعيد رأت سهير امرأة طويلة للغاية، بيضاء كالثلج، عيناها سوداوان أكثر من اللازم. همست لسهير وهي تعبر من جوارها:
- هل يمكن اختراع جهاز يمكنه الاطلاع على ما يدور في رؤوسنا ومن ثم التحكم فيه أو التلاعب به عن طريق الصلة بين الخلايا باستخدام البيوفوتونات؟ أم أن الأمر لا يحتاج اختراعات، وهناك بالفعل من يمكنه تحويل أحلك الأحلام إلى واقع؟ مملكة إلفام سبقت العلوم والخيال، وحققت ما لا يمكن تحقيقه؛ الفرص الثانية.

أفاقت سهير من سباتها لتجدني –أنا لاشين- جالسًا جوارها في سيارتي ذات الدفع الرباعي، أحاول الخروج من الشارع عبر الانعطاف يمينًا ثم يمينًا، لكن السيارة الضخمة البيضاء وسائقها المتخلف يسدان الشارع وقد تفتق ذهن أحدهم أن الحل الوحيد هو حمل السيارة والالتفاف بها.

ظللت أضغط النفير بجنون. أخرجت رأسي من النافذة وهتفت:

- أيها الحمير! أفسحوا!

- الصبر يا بيه! الرجل هنا منذ ساعتين لا أكثر. الدنيا لن تطير!

وقال آخر:

- دُر أنت حول نفسك واسلك حارة أبي السعود في الخلف.

قلت في حنق:

- وكيف أدور بسيارة وأنتم تصفون سياراتكم على جانبي الطريق؟

ثم فطنت إلى أن الحل أبسط. عدت إلى الخلف بزاوية حتى صدمت سيارتي القوية جانب سيارة فيرنا، ثم اندفعت إلى الأمام لأصدم سيارة فيات أخرى.

احتاج الناس وهرعوا نحوي، لكنني أنفذ اقتراحهم!

قالت سهير في ذعر وهي تتلمص من حبل جر السيارات الذي أوثقتها به:

- أنزلني حالًا! ماذا تريد مني ومن عائلتي؟ لقد انتهى الأمر منذ سنوات!

نظر إليها واقتربت منها وأنا أقول:

- لم ينتهِ ولن ينتهي. أنت يا سهير من بدأ العدوان بموهبتك الحمقاء تلك. أنتم مسوخ يجب أن تُحبَس في السجون ومستشفيات المجانين!

- أنت تدفع ذوي القدرات الخاصة لارتكاب الجرائم لتنتقم منا؟!

قلت وأنا أهرس جانب سيارة أخرى بمقدمة سيارتي:

- أنا لم أفعل شيئًا سوى البحث عنكم وتحفيز قدراتكم، وأنتم من اخترتم جرائمكم بأنفسكم! نبيل نصاب بالفطرة ففتحت به باب النصب. مراد خانع نصب عليه الجميع طيلة حياته، ففتحت له باب الرد عليهم. صفاء مختلة لم تتعافَ قط من حادث محاولة اغتصابها، وحين واتتها فرصة أن تكون الأقوى، اغتنمتها! أما تسريب امتحانات الثانوية العامة.. مَن منا لا يحمل رغبة الانتقام من هذا النظام التعليمي البائس!

ضربة أخرى لسيارة ورائي، فأستطيع توجيه مقدمة سيارتي إلى عمق الشارع الخلفي ومنه إلى الحارة المقصودة.

- لكنني لم أتأثر، وكذلك نِمنِم ورجاء.

- بل تأثرتم، لكنكم مسالمون إلى درجة تثير الاشمئزاز! ستلتهمكم مواهبكم وستستهلك الجذور الحرة خلاياكم. لكني لن أتركك تذوين وحدك يا صغيرتي؟ لن أفارقك..

ابتسمت لها ابتسامتي الواسعة المليئة بالأسنان كابتسامة القروش. تململت، صرخت. أغلقت النوافذ ثم نظرت أمامي لأجد الأجنبي الطويل ونبيل ورجلين آخرين من العاملين في القاعة يحملون الأسياخ التي يشعلونها في «زفَّة» العروسين. هتف لويد: - توقَّف حالًا واتركها.

أغمض نبيل عينيه وحاول إرغامي على طاعته وإطلاق سراح سهير، كدت أنصاع بالفعل، لكن في هذه الحالة أترك القيادة لشياطيني الأعزاء.

قبضت يداي على المقود، وضغطت قدمي دواسة البنزين فانطلقت السيارة نحوهم، وانفجرت الدماء لتغرق الـ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

مدد!

أقطع الطريق الطويل المظلم الذي يعبر من جوار مدينة السادس من أكتوبر متجهًا نحو قرية النمرسي قرب الصحراء الغربية. سهير نائمة على المقعد جواري كالملائكة وهي تمسك بين كفيها نظارتها الخاصة التي ترى بها الأشباح والشياطين.

أجذب الغطاء الخفيف نحو ذقنها أكثر، فتفتح عينيها الجميلتين وتنظر نحوي، وتبتسم.

- ما زال أمامنا الكثير؟

- ساعة تقريبًا. نامي يا حبيبتي.

تمسد على ذقني بكفها الصغير، ثم تجذب الغطاء وتغطي وجهها وتكمل نومها.

نامت سهير، فنظرتُ إلى تطبيق تحديد المواقع. الطريق نحو قرية النمرسي يمر بالفيوم أولًا، لكن القرية نفسها لا تتبعها.

أول أمس، كنت وسهير جالسين على الأريكة الجلدية الوثيرة نراجع أهم القضايا التي حققنا فيها العام الماضي، ونظرت لي سهير في انتصار وهي تشير إلى الإحصائية على شاشة حاسوبها المحمول وتقول: - ٧٧٪ من القضايا سببها قدرات ما وراء علم النفس، و٢٪ مصدرها أشباح.. أما النسبة الباقية فبلاغات كاذبة، وتهيؤات، وأسباب طبيعية.

مثَّلت أنني قد تضايقت، فعقدت ذراعيَّ على صدري وقلت:

-تقصدين أن الشياطين غير موجودة؟!

ضحكت ووضعت رأسها على كتفي وهي تقول:

- بالطبع موجودة، لكن يبدو أن حبيبي قد التهمها جميعًا.

كنت أعرف أنها ستقول هذا كي تواسيني، فمنذ زواجنا منذ عشرين عامًا وهي تحاول أن تهوِّن عليَّ مصيبتي، وزاد دعمها بعد أن فقدت جزءًا من طاقتي الشيطانية في مغامرة طائشة في الولايات المتحدة. من وقتها وأنا حساس للغاية، أحاول أن أقنع نفسي أنني كامل دون شياطيني، لكنني أخشى أن أفقد سهير وأنا عاجز عن الدفاع عنها. بحثت كثيرًا عن شياطين ألتهمها لأعوض ما فاتني، لكن يبدو أن الشياطين قد قللت تواجدها في عالمنا واكتفت بالوسوسة منذ بدأت أنا في التهامها وعجزت هي عن التخلص مني.

رن جرس هاتفي، وهو الرقم الذي أتلقى عليه الشكاوى الماورائية. فتحت الخط وقلت: - مركز لاشين- زاهر للتحريات الماورائية. من معي؟

قال صوت ذو لكنة ريفية:

- مَن معي؟ الأستاذ لاشين؟ أنا رجائي محسن من قرية النمرسي قرب الفيوم.

- أهلًا بك. أنا لاشين. ما هي المشكلة الماورائية التي تتصل بشأنها؟

ناولت سهير إحدى سماعتي الهاتف «إير بودز»، فسمعت رجائي يقول:

- أعتقد أن لدينا بسم الله الرحمن الرحيم في القرية. محصول الذرة اختفى بين يوم ليلة. رائحة –لا مؤاخذة- نتنة تزكم أنوفنا. أسقف بعض المنازل ثُقِبت، وتوجد حفرة عميقة ضخمة في الجبل لا نعرف من حفرها. هل يمكن أن تأتوا؟! مولد سيدي راغب اقترب ولن نحتفل لو استمر الوضع هكذا.

نظرت إلى سهير ونظرت لي. حفرة في جبل، رائحة نتنة..

- هذا شيطان يا سهير..

- ماذا عن الحقل وأسقف المنازل؟ هل يمكن أن يكونوا لصوصًا يختبئون في الجبل وسرقوا الذرة وحاولوا ثقب أسقف المنزل لسرقتها؟

- والرائحة؟

- لا علاقة لها بالموضوع. نحن تربية أرياف يا آدم ونعرف أن الروائح الكريهة سُنة الحياة قرب الحقول. ربما تخلص أحدهم من حيوان ميت هنا أو هناك.

- نذهب ونرى؟

ابتسمَتْ. أعرف أنها غير مهتمة، لكنها وافقت لأجلي.. لأجل الأمل الذي رأته في عينيَّ.

في اليوم التالي كانت ديهيا تزورني كعادتها كل جمعة، وانهمكت سهير في إعداد الطعام الذي لن يعجب حماتها قطعًا. فملكة مثلها تأكل من أيدي الجن لن تعجبها كفتة سهير وصينية البطاطس باللحم.

تتربع ديهيا على الأريكة وتتكئ بمرفقها على الوسادات، فتتمايل زينتها الذهبية المدلاة من صدرها وقمة رأسها وتقول: - لا أعرف ما سر رفضها لمساعدتي لكما. هذا إرثك يا بُني. أليس من الأفضل أن تسكنا في مملكتي بدلًا عن هذه الشقة الرثة؟

- هي تحب الاعتماد على نفسها. ونحن بخير، لا تقلقي.

بعد انصراف ديهيا غاضبة من الحلوى التي اشترتها سهير لضيافتها ولم تصنعها بنفسها –وبعدما دسَّت تحت الوسادة صُرة تحوي قطعًا ذهبية على سبيل المصروف الشهري- قلت لسهير لأغير الموضوع: - لنذهب لقرية النمرسي.

ابتسمت مرة أخرى وقامت تُعد حاجياتنا، وتعبئ الطعام الذي لم يؤكل في عُلب لتوزعها على «أهل الله» كما تحب أن تطلق على الفقراء.

هل أنت سعيدة حقًا معي يا سهير؟ هل أنت نادمة على اختيارك؟ هل حياتنا أكثر تسلية مما يجب؟ هل رغبتِ في أطفال وخفتِ أن يرثوا عني عهد الدجالين فتظاهرتِ بأنك لا ترغبين في الإنجاب؟

والأهم، هل تحبينني حقًا؟ هل أنا حلمك الذي تحقق؟

ظلت تلك الأسئلة تتردد في ذهني ونحن نقترب من حدود القرية المظلمة. أخرجت الهاتف أتصل برجائي ليخرج لي. الترعة الضيقة عن يساري سوداء كئيبة تُذكرني بأيام طفولتي التعسة حين كان يحاول أقراني إغراقي في الماء بسبب سيرة أبي الدجال. لكن سهير أنقذتني بابتسامتها الجميلة حين أسقطَت الكتاب فوق رأسي في المكتبة التي كنت أعمل بها في مدينة طنطا. ضحكتُ، فضحكت. سألتني عن ثمن الكتاب، فحدَّثتها عن محتواه وعن الكتب الشبيهة. في زيارتها التالية للمكتبة لم تستشعر الحرج في أن تخبرني أنها تعشق روايات الجيب. جلسنا نُقلِّب في صندوق الكتب المستعملة عن الأعداد التي تنقصها من السلاسل ذات الأغلفة المرسومة. قالت لي أنها تحب سلسلة ما وراء الطبيعة بالذات، وفتح لي هذا مجالًا أكبر للحديث معها تطور إلى اعترافي أن أبي ساحر، واعترافها أنها مستبصرة.

كنا –كما يقولون في الإنجليزية- زوجين خُلقا في الجنة.

خرج رجائي يرتدي جلبابًا فوق بنطال ترينج. لوَّح لي كي أقترب، ثم –دون استئذان- جذب مقبض باب السيارة الخلفي كي يركب معي. كان الباب موصدًا، فظل يجذب المقبض مرات متتالية وهو يميل إلى الخلف. فتحت القفل فدس جسده النحيف العضلي في فتحة الباب وجلس على الأريكة يمرر كفه على الجلد الطبيعي الذي يكسوها. تشمم رائحة السيارة ثم أشار إلى المعطر فوق التابلوه وقال: - بالخوخ أليس كذلك؟ الكل يحب الخوخ لكنه مرشوش الآن، وحين تنتظر أن يزول أثر الرش يكون الدود قد غزاه. وكذلك المشمش.

- المعطر برائحة الفواكه الإستوائية وليس الخوخ.

- إستوائية.. كلنا «استوينا» من الهموم يا أستاذ لاشين. من هنا..

أشار إلى شارع ضيق تحفه المنازل المبنية بالطوب الجيري، وتقف على أسطحها العِرَس والفئران تنظر إلينا بأعينها السوداء اللامعة كثقوب في الفضاء لا يعرف أحد إلى ما تُفضي.

أكره عيون الحيوانات الصغيرة والطيور.. قباب مظلمة خاوية غبية.

هذه قرية تشبه القرية التي تربيت بالقرب منها في طفولتي.

وهذا هو يومنا الأول فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال رجائي ونحن نقف على الحدود بين بيوت القرية والأراضي الزراعية الممتدة في الظلام يجثم فوقها الضباب: - هذا هو حقل الذرة الذي كلمتك عنه.

قالت سهير وهي بعد تعاني أثر النوم:

- احكِ لنا بالتفصيل. كيف اكتشفت اختفاء الذرة؟

- نمنا والذرة مزروعة، واستيقظنا فلم نجدها.

اقترب أكثر من حدود الحقل، وأمسك بعود ذرة قصير جاف وهو يضيف:

- انظروا كيف اقتُلِعت أكواز الذرة من العود؟

قلت:

- ألا يمكن أن يكون قد سرق أحدهم الذرة؟

- ولماذا يقتلعون الأكواز واحدًا تلو الآخر والحقل مظلم وشائك، بينما يمكن أن ينتظروا حتى الحصاد ويسرقونه بالطريقة السهلة؟ ثم كم لصًّا يحتاجون كي يقتلعوا الذرة في فترة سواد الليل؟!

هززت رأسي متفهمًا، وعرفت منه أن الحقل ملكه هو وإخوته وأبناء عمومته. سار بنا والحقل عن يسارنا والبيوت عن يميننا، تُحرك سهير الكشاف هنا وهناك وتتوقف قليلًا عند المقابر المكونة من صفوف من أنصاف الأسطوانات البيضاء، يتوسطها مبنى صغير يعلوه قبة خضراء. قالت سهير وأنا أعرف أن فكرة لوحة جديدة بدأت تتسلل إلى خيالها: - مقام؟

- مقام سيدي راغب الضيوفي. المفترض أن يقام المولد خلال ثلاثة أيام، ويخشى الباشمهندس بسيوني من مجيء الباعة والحواة والمشايخ إلى القرية ونحن بعد في هذه الورطة.

سألته:

- من بسيوني؟

لم يُعلِّق، وركع أمام كتلة بنية عملاقة خبيثة الرائحة، اغترف منها في كفه وقربها من أنفينا فأجفلنا.

- هذا الزَّرَق ([16]).. من أين جاء بهذه الكمية؟

قلت وأنا أتراجع متذكرًا أرض أبي ورائحة السماد العضوي الذي كان يشتريه أخي أنيس بالطن لينثره في المزروعات: - يبدو أن أحدًا اشترى فضلات دجاج لتسميد الأرض. ما المشكلة؟

أجاب رجائي وهو يرمي الفضلات على الأرض ويمسح يده في حائط منزل مجاور:

- لم يشترِ أحد سمادًا. التسميد قبل الزراعة يا أستاذ بينما نحن في موسم حصاد. ثم أن هذه الأرض ملك أبي جمعة وأكد لنا أنه لم يشترِ شيئًا.

ثم أشار نحو الأفق وأضاف:

- الفجوة في الجبل من هنا، لكننا لا نذهب في الليل. الصباح رباح. لماذا لم تأتيا نهارًا؟

قالت سهير وهي تنظر لي باسمة مشاكسة:

- قواعد التقصي الميداني للماورائيات تنص على الاستكشاف نهارًا فقط لتفادي اللبس وعدم دقة المعلومات والمخاطر.. وطبعًا الخوف الزائد بسبب الظلام.

قلتُ:

- لكن -ومع تفهمي لقواعدك يا سهير- لو أن ما نتحرى عنه شيطان، فلا سبيل سوى التقصي الليلي.

مالت سهير نحوي، فانحنيت لأسمعها تسألني:

- هل تشعر بتواجد شيطاني؟

- ليس بعد.

أخرجت سهير نظارتها الخاصة التي ابتكرتها لها وتُمكنها من الاستغناء عن الكاميرا لرؤية الأشباح والشياطين. وضعتها على عينيها ونظرت حولها. حدق

إليها رجائي وقال ممتعضًا: - هل هذا وقت فُرجة على أفلام؟ أليست هذه نظارة عرض أفلام؟ يبيعها الـ ـ«واد» محسن عنده في محل الموبايلات.

قالت سهير ضاحكة:

- ليست نظارة أفلام. هذه تساعدني على رؤية الأشباح.

هز رجائي رأسه في تفهُّم، ثم اقتادنا عائدين بين بيوت القرية، التي لاحظت أن الكثير منها لا يخلو من متجر أسفله، تتدلى وحدات التكييف الخارجية من جدرانه، وتعلو بوابته لافتات مطبوعة بطرق حديثة وأسماء إفرنجية.

قال رجائي:

- لو كنت أعرف أنكما ستأتيان ليلًا لدبرت لكما مكانًا للمبيت. لكننا أهل كرم.. لا تقلق.

طرق رجائي أحد الأبواب، ففتح رجل قصير سمين، نظر إلينا من فوق كتف رجائي، فقال الأخير: - معي ضيوف من مصر. هل عنبر الأرانب المهجور متاح؟ عندي فِراش «إيديال» ([17]) لكن لا مكان لهما وسط الجماعة والأولاد.

قبل أن يرد الرجل السمين هتفت:

- لا داعي يا أستاذ رجائي. سنبيت في السيارة.

قال السمين:

- ضيوفك ضيوفي، إن لم يبالوا بوجود البط في العنبر فأهلا بهما وسهلًا. البط هادئ وأنا ركبت له مروحة سقف كذلك.

شكرت الرجل وتأبطت ذراع رجائي وابتعدت به وأنا أقول:

- نحن معتادان على المبيت في السيارة.

- لكن هذا لا يصح!

- لا تقلق. عُد إلينا بعد الفجر لنستكمل جولتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست وسهير في السيارة نشرب الشاي من ال»ترموس»، ولا نرى شيئًا بسبب بخار الماء المتكاثف على الزجاج. تتحرك المسَّاحة على الزجاج الأمامي من وقت لآخر لتتيح لنا رؤية الشارع الطويل المُضبَّب، تسبح في هوائه الوطاويط وطيور الليل.

سألت سهير وبخار الماء يناسب على الزجاج الأمامي:

- سهير.. هل أنت سعيدة معي؟

قالت سهير وهي تنظر إلى البخار المتصاعد من كوبها، وتضع دفتر الرسم الصغير جوارها: - كم مرة تسألني فيها هذا السؤال يوميًا يا آدم؟ لماذا تظنني تعيسة؟!

قبل أن تُكمل ردها، اتسعت عيناها وهي تنظر إلى النافذة جواري، التفت سريعًا لأجد كفًا تمسح الزجاج من الخارج، ثم وجه مستطيل يحدق إلينا من خلف نظارة سميكة ذات إطار أسود. أنزلت الزجاج وكدت ألكُمه، فابتسم كاشفًا عن أسنان مصفرة من التدخين وقال: - لا مؤاخذة. كنت ذاهبًا لصلاة الفجر فرأيت هذه السيارة الغريبة، قلت لماذا لا تُلقي نظرة؟

- وهل فقدت لسانك كي لا تستطيع إلقاء السلام حتى؟ أرى كفك مثبتة إلى ذراعك، فلا مانع من الطرق على الباب على الأقل.

خرجت له، فاستقام واقفًا وقال:

- إن كنت لصًا، فالمباغتة أمر ضروري! عمومًا، لا يبدو أنك من أهل هذا. من تكون؟ ولماذا تجلس هذه الجلسة المريبة مع.. لا مؤاخذة..

قلت له وأنا أطلق شياطيني لتُرهبه:

- هذه زوجتي. اقترب خطوة أخرى من السيارة وستعرف من أكون بدقة.

تراجع الرجل إلى الخلف بضع خطوات، ثم انطلق في سبيله. جلست على المقعد ولمحت سهير تضحك. قالت: - لا داعي للغضب. هذه ليست أول مرة نتقصى فيها قضية في الأرياف. لاحظ أن وظيفتنا غريبة أساسًا ومن لا يعرفنا سيشُك في أمرنا.

- ومَن لا يعرفنا في مصر أصلًا يا سهير؟ طالما استضافتنا منى الشاذلي فمصر كلها تعرفنا.

التفتت سهير إلى الحقيبة على المقعد الخلفي وأخرجت إسدالًا للصلاة وقالت لي:

- اذهب أنت لصلاة الفجر وسأصلي أنا هنا.

ذكّرتها بما يحدث كلما صليت، فقالت لي وهي تضع يدها على كفي:

- هذه فرصة للتعرف على الناس هنا بشكل أدق. وكما قلت أنت، إن كنا قد ظهرنا في برنامج منى الشاذلي فهم يعرفون –على الأقل رجائي- أن شياطينك تحتج على صلاتك دائمًا.

الحقيقة أنني وجدتها فرصة ظريفة لرد فضول ذي النظارة والوجه المستطيل. تركت المفاتيح لسهير وأوصدت الأبواب ثم مشيت في الضباب مهتديًا بصوت مكبر صوت المسجد، الذي يبث ابتهالات تذيب القلوب.

تململت شياطيني كعادتها، وتمتمت بعبارات مختلطة لتُشتتني كعادتها.

«آدم.. لو أن هناك شياطين، لماذا لا تشم رائحتها؟

.. آدم.. ألا يمكن أن يكون هذا فخًا؟

.. آدم.. سهير وحدها.. سهير وحدها.. عُد إليها.. صلِ في السيارة، هه؟ ما رأيك؟»

مسحت العرق عن جبيني ودخلت دورة المياه خارج المسجد لأتوضَّأ. لا توجد أحواض منفردة، إنما صنابير تصب الماء في مستطيل طويل مبنى بالطوب الأحمر ومبطن بالسيراميك أسفلها. عند نهاية صف الصنابير لمحت الرجل ذا النظارة يبالغ في الاستنشاق حتى أثار اشمئزازي. يبدو أنه مصاب بالتهاب الجيوب الأنفية منذ وُلِد. لمحني، فشمَّرت ذراعيَّ وسميت الله، وانطلقت طاقة شياطيني الغاضبة المعتادة. تراجع الرجل حتى ألصق ظهره بالحائط، وارتجفت شفتاه تردد شيئًا لم أتبينه، وخرج منطلقًا نحو قاعة المسجد.

أنهيت الوضوء وقرت ألا أنصاع لشياطيني -نفسي- أكثر من هذا. جلست عند نهاية القاعة الصغيرة أذكر الله وأنظر إلى الموجودين. كانوا أحد عشر رجلًا، وقف ذو النظارة أمامهم ليؤمهم. بعد دقائق دوى صوته يؤذن، فيمُط الضمَّة على هاء لفظ الجلالة «الله» فتخرج منه العبارة « الله وأكبر»، بدلًا عن «الله أكبر».

إن صدق ظني، فهذا مُدعي القرية الذي يعرف كل شيء ويطيعه الجميع دون منصب واضح، بينما هو أشد جهلًا من قملة.

رأيت رجائي يدخل ومعه مُربي البط إياه، فسلما علي ووقفت جوارهما عند طرف الصف الثاني. صلينا وتصافحنا، فرآنا ذو النظارة. اندفع نحونا تاركًا كف أحد الرجال معلقًا في الهواء ينتظر مصافحة لن تحدث.

- رجائي، شاكر.. حرمًا!

صافحهما ثم نظر لي متوجسًا وقال:

- لقد صليت خلفي، إذًا أنت منا!

لم أخبره عن رأيي في ربطه للأمور ببعضها، لكني قلت:

- اتصل بي الأستاذ رجائي كي أحقق -أنا وزوجتي- في بعض الظواهر الغامضة في القرية.

ضرب الرجل جبينه بكفه وقال:

- وأنا الذي أسأل نفسي أين رأيتك من قبل! برنامج الأستاذة منى الشاذلي! أنا الباشمهندس بسيوني.

- وأنا مهندس آدم لاشين.

أخرج أحد الرجال مقاعد بلاستيكية خارج المسجد وجلست وبسيوني ورجائي، بينما التفت حولنا الآخرون بين متربع على الأرض ومتكئ إلى الحائط. قال قائل: - تمر علينا أيام لا يحدث فيها شيء.

أرسلت لسهير رسالة لأطمئِن عليها، فأرسلت لي صورة لجمع من نساء القرية وكتبت:

- كوَّنت صداقات جديدة!

هذه هي سهير.. لا بأس. حكى لي الرجال نفس ما زعم رجائي، وزاد واحد منهم أنه رأى ظلًا ضخمًا يتحرك عند الجبل قرب الفجر منذ عدة أيام. أمسك رجل آخر ذراعي وقال: - أنت لم ترَ الأغرب بعد.

فتح محفظته وأخرج منها بعض شعيرات بيضاء وبُنية، يختلط اللونان في كل شعره كما هو الحال في شعر بعض الحيوانات. حين أمسكت أحدها أدركت أنها ليست شعرة.. هذا نسيج زغبي أنعم وأخف من الشعر. أضاف الرجل: - وجدتها فوق سطح منزلي بعدما ثُقِب. كنا نيامًا، ثم سمعنا صوت خطوات ثقيلة على السطح كادت تدك السقف علينا. ثم ضربات متتالية ثقبته. صرخ الأولاد والنساء، وهرعت أنا وابني الأكبر إلى الخارج لنتبين ما يحدث. لا أعرف كيف أصف الصوت الذي سمعناه قبل أن نخرج... شيء أقرب إلى «وُب وُب وُب» عالية تحرك الهواء حولنا وتثير التراب.

قال رجائي:

- سمعت هذا الصوت مرتين قرب الحقل، ومعه صوت تهشم نباتات كأن أحد يجري فوقها.

سألت:

- وماذا وجدت فوق السطح؟

- هذه الشعرات في كل مكان، وحُفر في السقف كأنما حُفِرت بدق وتد ضخم.

ضرب بسيوني على ركبته وقال:

- اذهبوا إلى بيوتكم يا رجال. دعوني أتحدث مع الأستاذ وحدنا. لدي ما أريه إياه ولا يصح أن يعرف به أحد.

خطر لي أنه يتصنَّع الخطورة أكثر من اللازم. إن كان لديه سر ويريد الحفاظ عليه، لماذا يُلمِّح به أمامهم؟ أطاعه الرجال، وأشار لي رجائي أنه سيتصل بي –أو أتصل أنا به- لاحقًا. مشيت مع بسيوني إلى حيث سيارتي، لأجد سهير تجمع بعض النساء حولها، ويبدو أن هذا اللقاء قد تحوَّل إلى مجلس استشارات ما ورائية. قالت سهير وهي تخرج من حلقة النساء المغلقة حولها:
- لا تهملي أمر القيء الأسود. هذا ليس سحرًا.. استشيري طبيب جهاز هضمي فورًا، ربما تكون هذه علامة نزف داخلي.

اتجهت سهير نحوي وقالت:

- لطيفات جدًا نساء القرية.

هتف بسيوني:

- أفضل نساء أقسم بالله.. هيا، كل منكن تذهب إلى حال سبيلها. السوق لن ينتظر..

تفرَّقت النساء، والتقطت إحداهن صورة سريعة مع سهير ثم قبَّلتها ودعت لها بصلاح الحال. نظر بسيوني إلى سيارتي الفاخرة وسألني: - يبدو أن عملكما رائج.

قالت سهير:

- أعمالنا رائجة بالفعل، فالتحقيق الماورائي لا يدر أي ربح علينا. هو مهندس وأنا رسامة ومصورة.

قدمته إليها وأنا شارد فيما قالت. سهير تبيع لوحاتها وتكسب مالًا تظن أنه يكفينا دون مساعدة ديهيا، لكني لا أعمل. أقنع نفسي أنني عالِم وأن أبحاثي هي عملي، لكنني فعليًا عالة عليها وعلى ديهيا. لماذا أصبحت هذه الأفكار تراودني أكثر من اللازم بعدما فقدت جزءًا من طاقتي؟

أغلقت السيارة ومشينا إلى بيت بسيوني المكسو من الخارج بسيراميك أخضر قبيح كأنه محل عصير قصب قديم. كمية بهرجة مبالغ فيها جعلت البيوت غير المطلية حوله قصورًا مقارنة به. أدخلنا إلى حجرة ذات باب منفصل بها صالون مُذهَّب وثريا من الكريستال تسكنها العصافير. بعدما شربنا الشاي، تقدمنا إلى حجيرة خلفية من الطوب الأحمر ذات باب معدني.

أمسكت يد سهير ودخلنا خلفه. أضاء مصباح يتدلى من السقف، ثم انتزع ملاءة مُهلهلة كاشفًا عن.. قفص مكسور فارغ.

تلفَّت الرجل حوله، وفتش بين الأجولة والبراميل المُخزنة، وقطع الأثاث المهشمة عن الشيء الذي أراد أن يرينا إياه دون جدوى.

خرج ينادي أبناءه الصغار ويسألهم «عنه» فهزوا الأكتاف والرؤوس ينفون أن لهم علاقة بما يسأل عنه. أخيرًا وقف أمامنا مرتبكًا يردد: - يا لليوم الذي لم تظهر له شمس.. الناس في الطريق..

سألته:

- أي ناس؟

تجاهلنا وهرع يبحث عن هاتفه المحمول. شعرنا أنا وسهير بالحرج فخرجنا إلى الشارع نتحدث متجهين نحو سيارتي.

- ما رأيك يا سهير؟

- من كلام النساء، تأكدت أن هناك ما يجري، لكني لم أتبين أي شيء يدفعنا نحو الظن بأن ما يجري أمر ما ورائي.

أخبرتها عن الشعر الغريب، فعقدت حاجبيها مفكرة، ثم قالت:

- تُرى ما الذي فر من مخزن بسيوني؟

- ومَن الذي ذكر أنهم في الطريق؟

قبل أن أتصل برجائي لمحت سيارة هيونداي حمراء حديثة، توقفت خلف سيارتي وترجل منها رجائي ثم دار ليفتح الباب لشاب طويل الشعر، يعاني سوء تغذية قديم، ويرتدي إكسسوارات أكثر مما تتحمل بنيته الضعيفة. أول ما فعل هذا الشاب أن رفع هاتفه المحمول أمام وجهه ثم تحدث إلى شاشته وهو يدور حول نفسه يستعرض خلفية القرية. همست سهير: - تيكتوكر؟

- يسمون أنفسهم صُناع مِحتوى، بكسر الميم.

ضحكَتْ، اقتربنا منه ولمحت على الشاشة ما أكدت استنتاجها. أنهى الشاب ما كان يفعله، وبمجرد أن التفت نحونا، وجدت ذراع بسيوني تخترق الشبر الذي يفصلني عن سهير، ممتدة نحو الشاب تسلم عليه.

- أهلًا حمادة باشا ميتو.. أنرت القرية.

- أهلًا يا «هندسة». ال»فانزات» على نار ليروا الجن في القرية.

- طبعًا.. تفضل معي..

تجاهلنا بسيوني وجذب حمادة ميتو نحو بيته، وجذبتني سهير كي نتبعه وهي تقول:

- هذه قضيتنا! عن أي جن يتحدث؟

مال عليَّ رجائي الذي لحق بنا وقال:

- هو من طلب مني الخروج لاستقبال ميتو. أنا لم أتصل به. لم أتصل سوى بكما.

سألته:

- وما دوره فيما يحدث؟

- لا أعرف.. أنا لم أتصل بكما إلا عندما فقدت الأمل في أن يفعل الباشمهندس بسيوني شيئًا. يقابل الغرباء كل يومين أو ثلاثة ولا تنفرج الأزمة.

سألته سهير:

- أي نوع من الغرباء؟

- قابل مرة مهندسًا زراعيًّا يعمل في مركز الأبحاث أو شيء من هذا القبيل. ومرة قابل صاحب مصنع مُعلبات. في كل مرة يقول لنا أن الفرج قريب وأن ما يحدث خير لنا جميعًا.

نظرت إليه متعجبًا وسألته:

- إذًا هو يعرف ما يحدث؟

هز رجائي كتفيه وقلب شفتيه بمعنى «علمي علمك». طلبت منه أن يصحبنا إلى الجبل، فوافق على أن نذهب إلى هناك على متن سيارتي، وأضاف باسمًا: - الجو حار والسيارة مكيفة. سأنتظركما فيها حتى تنتهيا من الاستكشاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفنا أمام فتحة الكهف –الذي لم يكن كهفًا، بل فجوة هائلة محفورة بأداة ما- وظل رجائي في السيارة، يُخفض زجاج النافذة ليحدثنا ثم يغلقه مرة أخرى كي لا يتبدد هواء التكييف البارد. ارتدت سهير نظارتها ونظرت حولها. توقفت قليلًا وهي تنظر نحو المقابر وهست لي: - لا شيء سوى بعض الجان عند المقابر. عُمَّار المكان لا أكثر.

هززت رأسي وأنا أفكر في إمكانية أن تكون هناك بوابة لعبور الشياطين داخل هذه الفجوة. دخلنا بضع خطوات، الرائحة خانقة، رائحة أمونيا قوية تُدمِع العينين. أعرف أن سهير تريد أن تخبرني أن رائحة الأمونيا غير مرتبطة بالشياطين أو الرائحة التي يتسببون فيها لإخافة البشر، لكني أعرف أنها ستصمت. ركعت عند شيء لفت نظري، فخلعت سهير نظارتها الخاصة وحدقت معي إلى ما يغطي الأرض من شعر طويل ناعم مزغب.

قالت سهير:

- ما هذا؟!

- لا أعرف. خذي بعضه لنرسله للتحليل.

لم يفتنا أن نلاحظ كمية الفضلات على الأرض، وأكوام القش وفروع الشجر الجافة عند نهاية الكهف. أنرت الكشاف وانحنيت حتى وصلت إلى أعمق نقطة، صاحت سهير: - حذار!

لدهشتي، رأيت شيئًا يقفز من بين القش والأغصان، لكنه ظل في مكانه مخرجًا عنقه فقط إن كان للثعبان عنق.

- اخرج يا آدم.. بسرعة!

لم أتحرك، فالثعبان لن يؤثر في بالطبع. اقتربت أكثر وسهير تشهق وتطلق أصواتًا أقرب لصوت فأر في مصيدة. أزحت الأغصان عن الثعبان الهزيل لأجد نصفه السفلي ممزقًا..

- آدم.. كأن هناك شيئًا كان بداخله ثم مزقه وخرج!

جذبتي سهير عنوة وهي تنادي على رجائي الذي أطل من فتحة صغيرة في النافذة متسائلًا: - ماذا هناك يا مدام؟ لا يمكن أن أفتح الباب، أنتما تعرفان أن التكييف...

- تعالَ حالًا!

نزل رجائي متململًا، ليرى ما تشير نحوه سهير بالكشاف وهي بعد متشبثة بذراعي:

- ما هذا؟ ماذا يمكن أن يمزق ثعبان من الداخل هكذا؟

حك رجائي رأسه مفكرًا، ثم قال:

- ربما التهم شيئًا حيًا؟ لكن..

سألته:

- ما نوع الشيء الذي يستطيع النجاة من عضلات ثعبان ويستطيع اختراقه بهذا الشكل؟ لا بد أن نُخرج كل شيء في هذا الركن ونفحصه في ضوء النهار.

قالت سهير:

- نحن لا نعرف ماذا نواجه يا آدم. أقترح أن نُثبت كاميرا مراقبة الليلة على الأقل، ولنرَ من سيدخل أو يخرج من هذا الكهف.

سهير تنتهج المدرسة التي تعملت فيها حرفة التقصي الماورائي؛ مركز راين، أما أنا فأحترف مدرسة ديهيا؛ الاقتحام والمواجهة. اختلاف بسيط بيننا لا يُفسد للتقصي قضية. خرجنا إلى السيارة وطلبنا مساعدة رجائي في تثبيت الكاميرات اللاسلكية التي تبث ما تلتقطه إلى هاتفي المحمول. تدوم بطارية هذه الكاميرات نحو ١٢ ساعة، ثم سيستوجب علينا تبديلها. كل هذا من مال ديهيا بالطبع، لكن سهير تظنه من مال ميراثي من أمي. لن تقبل أن نستخدم أموال السحرة في عملنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا انتظرنا، وبدأت ليلتنا الثانية في القرية.

رحل زائر بسيوني بعدما عرفت أنه قد التقى ببعض الأهالي وطلب منهم إضافة بعض التفاصيل الشيقة للموضوع، وأكد حمادة ميتو أن القرية «جوهرة مخبأة» Hidden gem، وأن عربة أبي «سماعين» تقدم أفضل شطائر سمين مصر.

لماذا طلب بسيوني من شاب كهذا القدوم إلى القرية من الأساس؟ وما المقابل؟

بعد صلاة المغرب الذي أمَّنا فيها أحد الأهالي، رأيت بسيوني يقف مع سهير جوار سيارتنا. انطلقت نحوه استفسر عن سبب حديثه معها لا معي، فقال: - صلِّ على النبي يا أستاذ، أنا فقط كنت أطمئن على الأحوال وأرافق زوجتك حتى تعود. لا يصح أن تمكث امرأة وحدها في الشارع في هذا الوقت.

قالت سهير كأنما تتحداه:

- الباشمهندش بسيوني يا آدم يرى أن جهودنا ذات قيمة، ويعرض علينا مقابلًا ماديًّا، فهو كما قال لن يقبل مساعدة مجانية وأنه -كما قال– من بيت كرم ويقدِّر مجهود الناس.

قال بسيوني:

- دعونا نتحدث بصراحة. الضرر الواقع من وجود هذا الشيء قد يستمر فترة لا يعلمها إلا الله، والذكي هو من يستغل الكوارث في الكسب لتعويض الخسائر.

- لا أفهم. أوضِح.

- هل تتذكر أيام الكورونا؟ كانت كارثة على الجميع، ومن عمِل في تصنيع الكمامات كسب أكثر ممن استسلم للخوف. من سيعوِّض أهل هذه القرية غلق متاجرهم مبكرًا وفساد محاصيلهم؟

- وأنت ستعوضهم؟

- طبعًا. فقط لو تعاون الجميع سنخرج منها جميعًا أكثر ثراء. هذا الشاب التيكتوكر قد يعوض الأهالي عن طريق رواج السياحة..

سألت سهير متهكمة:

- سياحة في قرية؟ سياحة أكل السمين؟!

- أي نوع من السياحة، لا يهم. سياحة أكل السمين، سياحة استكشاف الغوامض.. سياحة الجن الأزرق.

قلت له وقد اقتربت منه خطوة أخرى:

- أستاذ بسيوني، القرية مكان خطر حتى نعرف بالضبط ما الذي يجري. ليلزم كل بيته حتى نتأكد من أن الوضع آمِن.

ضحك بسيوني ضحكة صفراء أتبعها بقوله:

- ومن سيتأكد؟ أنتما؟ «مت يا حمار».

- طبعًا. الحمار فقط هو من يموت بسبب الطمع وسط الكوارث.

- ليس طمعًا يا.. باشمهندس، بل أملًا.. حلمًا قد يتحقق وسط العتمة. أنتما لم تريا ما رآه أهل هذه القرية وغيرها من القرى غير الموجودة على الخريطة. تحت كل سقف أب يحمل هم إطعام أسرته، وأم تخشى أهوال الزمن، وطالب يتمنى الهرب إلى المدينة الرحبة، وطفل يتمنى لو يلعب في مكان آمن..

للحظات شعرت أن هناك من يتحدث من داخل بسيوني، عن طريق لسانه وتعبيرات وجهه. نظرت نحو سهير لأتأكد من أنها شعرت بما أشعر به. أخيرًا قال بسيوني: - لو تحب أن تستفيد وتفيد، فأنا في بيتي..

استدار بسيوني ليرحل، فسألته:

- ما الذي هرب من مخزنك؟

نظر لي من فوق كتفه وقال:

- حُلم آخر..

لم أر عينيه من خلف نظارته السميكة، لكن شيء في صوته أرعدني. ظللنا واقفين لدقائق، ثم عدنا إلى السيارة. شممت رائحة طعام قوية، ورأيت على المقعد الخلفي صينية مغطاة بمنشفة. قالت سهير: - هذا طعام أتت به نساء القرية. ثمة صندوق آخر به كعك.

ابتسمت، وفتكنا بالطعام البسيط الشهي. ظل عقلي يردد ما قال بسيوني عما تخبئه هذه الجدران البيضاء والأسقف النخرة من مخاوف وأمنيات. من أنا كي أحكم على أحد؟ أنا الشيطان الذي يأمل في المزيد من الشياطين؟ مهما كان مبرري، فأنا بسيوني آخر، أبحث عن مصلحتي وسط أطلال مصائب الآخرين.

عرضت على هاتفي المحمول ما سجلته الكاميرا حتى الآن. ساعات من اللاشيء. دخل ثعلب صغير إلى الكهف وخرج بعد قليل. كلب ينبح على شيء لا نراه. شيء يتحرك خارجًا بسرعة من الكهف.

الكاميرا بلا مكبر صوت، وما نراه مجرد صور صامتة تزيد من غموض الأحداث.

مهلًا، ما الذي خرج من الكهف منذ قليل؟!

قبل أن أعيد مشاهدة اللقطة، رأيت ما يعدو جوار السيارة ثم يختفي الظلام. قط؟

اهتزت السيارة بقوة كأنما ارتطم بها شيء. خرجنا نحمل الكشافات؛ غربت الشمس منذ أكثر من ساعة إلا ربع.

- سهير، ابقي قريبة من الباب.

ارتدت سهير نظارتها الخاصة ونظرت حولها، بينما أرجع أنا إلى الخلف، أوجه كشاف إلى ظهر السيارة. لطخة دم وأحشاء تغطي الإطار الاحتياطي المعلق على ظهر السيارة، و.. ما هذا أسفل اللطخة؟

قبل أن أنحني لأفحص الشيء الرمادي على الأرض، شعرت بثقل يدفعني إلى الأرض، ثم شيء يخترق صدري.. عضة..

صرخت سهير، وظلت تصرخ وهي تعدو نحوي حاملة الصحفة المعدنية التي كانت عليها الطعام. ضربت الِشيء الجاثم على صدري عدة مرات، وسمعت

أبوابًا تُفتح ونساء تصرخ ورجالًا يتصايحون..

«هات البندقية..»

«ولَّع فيه..»

«حوشي العيال عندك يا أم محمود..»

«الحق طلع فوق السطح!»

وسهير تضرب الشيء الذي انسحق تمامًا فوقي وأغرقني بالدماء وسائل لزج عفن.

- كفى يا سهير.. أنا بخير..

أمسكت الصحفة، فهوت سهير على ركبتيها جواري تبكي وتنظر نحوي في هلع. قميصي غارق بالدماء، وفجوة دامية في صدري يظهر منها شيء أبيض لا بد أنه قفصي الصدري. دفعت الشيء من فوق وضممت رأس سهير إلى عنقي لتهدأ.

- ما هذا يا آدم؟! ما هذا؟ كائن فضائي؟!

- اهدأي. أنا بخير.

دوى صوت طلقات من مكان بعيد. الرجال يهرعون نحوي يحملون أوعية ماء كأنني فقدت الوعي لا أكثر. غطيت صدري بكفي كي لا يلاحظوا أن الجرح يندمل سريعًا.

- مجرد جرح سطحي، لا تقلقوا.. المهم ما هذا؟

أتى بسيوني مهرولًا يرتدي ملابسه المنزلية ويضيء طريقه بكشاف هاتفه المحمول، ومن الجهة الأخرى وصل رجلان يحملان شيئًا ثقيلًا ملفوفًا في جلباب قديم.

صاح بسيوني:

- انقلوا هذه الأشياء إلى بيتي، ولتغلق النساء الأبواب عليها حالًا.

لم يجد الناس بُدًا من الانصياع لأمره. ذهبنا معه إلى بيته حيث اجتمعنا والرجال حول الشيئين المرعبين. كائنين بغيضين، لكل منهما ثمانية أرجل وفك قوي مرعب، وجسد مغطى بشرائح عرضية من الدروع.

قال بسيوني هو ينظر نحوي:

- هذا ما فر من المخزن. لكني لم أكن أعرف أن هناك المزيد منه.

هتف أحد الرجال:

- رأينا أكثر من خمسة في شارع واحد. لقد فر الآخرون.

قالت سهير وهي تنظر خارج النافذة الموصدة:

- هناك المزيد بالخارج. واحد منهم فوق سطح هذا المنزل.

بدا بسيوني قلقًا أكثر من اللازم. ظل يحاول الاتصال برقم من هاتفه مرارًا دون جدوى. ثم انطفأت الأنوار وصاحت سهير: - آدم! أرى شرارًا قويًّا هناك!

هرعنا نحو النافذة لنرى حريقًا عند المنعطف. كابل الكهرباء قد سقط وحرق شيء هناك، ربما شجرة أو قش. همست لي سهير: - انظر هذا الشيء في الظلام.. هذا الشيء الذي أسقط الكابل.

دققت النظر، ولأول وهلة لم أر شيئًا، لكني تبينت كائنًا ضخمًا بطول العامود الذي يحمل الكابل، يتحرك حركة سريعة مجنونة لا تتناسب مع حجمه. رباه، ما هذا إن لم يكن شيطانًا؟!

عرض بعض الرجال الخروج لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحريق، لكن بسيوني منعهم، فارتاحت ضمائرهم. لا ألوم من يخشى الخروج الآن. المشكلة أنني لن آمن على سهير معهم بمفردها، لا لسبب أخلاقي، لكني أعرف أن روح البطولة والاستشهاد عندها قد تزيد عن الحد فتتورط في شيء لن أستطيع إنقاذها منه. جلسنا حول الشيئين خبيثي الرائحة، نضيء جسديهما بكشافاتنا كأننا بهذا نمنع الحياة من أن تدب فيهما مرة أخرى.

قال رجل من خلفي:

- كأنه حشرة. حشرة ضخمة للغاية لا أكثر.

قال آخر:

- تشبه حشرة أعرفها جيدًا لكنني لا أستطيع تذكرها. ربما البق أو القمل..

قلت:

- السؤال الأهم من نوع الحشرة هو السؤال عن سبب وصولها لهذا الحجم.

رفع بسيوني عينيه عن هاتفه وقال في وجوم:

- يجب أن نُخلي القرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن أنبلج الفجر، رأينا الجميع يخرجون من بيوتهم، ينقل الرجال زوجاتهم وأطفالهم على ظهر السيارات نصف النقل وفي بطون التكاتِك إلى مكان آخر.

قال رجائي:

- سننقلهم إلى الموقف في الفيوم ومنه يركبون إلى أقاربهم. الناس لبعضها، ومنازل الأهل ستتسع للجميع بإذن الله.

قالت سهير:

- لنبلغ الشرطة. هذا خارج قدرتنا على المواجهة.

- بسيوني لن يرضى.

قلت في حنق:

- سحقًا لبسيوني! الرجل يعرف ما يجري ويتركنا نتخبط هكذا!

ركبت وسهير السيارة إلى الكهف كي نغير بطارية الكاميرا، وفي الطريق أبصرنا شيئًا غريبًا. الساحة جوار المقابر مزدحمة بسيارات النقل والرجال الذين ينصبون خيامًا هائلة كالتي تُنصب في الأفراح والمآتِم. قالت سهير وهي تشير نحو ضريح راغب: - أرى بعض النساء اللاتي أعرفهن هناك. لنتوقف ولنرَ ماذا يجري.

ترجلنا، تقدمتني سهير نحو النساء الجالسات حول القبة المطلية بالأخضر. لمحنا لافتة مكتوبة بخط طفولي (مقام سيدي راغب النمرسي). بعض الأطفال يتقافزن حول أمهاتهم اللاتي انهمكن في الدعاء.

«لجل حبيبك سيدي راغب، يا رب استرها معانا ومع عيالنا.»

«يا سيدي راغب، الرزق يا سيدي راغب أحسن العيشة بقت كرب.»

«الولد يا سيدي راغب، هاتطلق والبنات يتشردوا.»

رأينا قفصًا به دجاجتان هزيلتان فقدتا أغلب ريشهما، امرأة جوراهما تغلي ماءً في وعاء استعدادًا لذبحهما. طفل يقترب منها ويهتف: - ستصنعين محشوًا وملوخية يا أمي على مرقة الدجاج؟

- هذا الدجاج ليس لنا، لسيدي راغب كي يرزقنا.

- لكننا لم نذق الدجاج منذ الشتاء!

دفعته المرأة برفق وهي تتحاشى النظر إلى عينيه، ثم أمسكت الدجاجة القذرة وثنت رقبتها للخلف كي تذبحها. قالت لها سهير بعد التحية: - هل تبيعين لي الدجاجتين؟

- على عيني يا مدام سهير، لكنهما لسيدي راغب.

تربعت سهير جوارها وقالت لها:

- وسيدي راغب قد توفي منذ زمن ولن يأكلهما. ما رأيك أن أشتريهما منك ثم تطبخينهما ونأكل جميعًا منها؟

تهلل وجه الصبي، لكن المرأة أشاحت بوجهها وقالت:

- لا بد أن نذبح قبل المولد ونترك الذبائح في الضريح. الجميع يرحل وسيغضب سيدي راغب إن لم يذبح أحدنا شيئًا. ربنا تتحول النقمة التي نحن فيها إلى منحة، أليس كذلك؟ الباشمهندس قال هذا.

قلت لها وقد أثارت غضبي:

- هل أنت مقتنعة أن راغب سيأكلها؟ أم تتركينها لتتعفن في الداخل فقط وتحرمين أبناءك؟ أراهن أن الدجاج يصل إلى بطن بسيوني قبل أن يذوقه راغب هذا.

- بل يأكلها يا أستاذ. تختفي في اليوم التالي. أنت لا تعرف سيدي راغب.

أشارت لي سهير من طرف خفي كي أبتعد ولا أحتد عليها. سمعتها تقول شيئًا عن حُرمانية التوسل بالأولياء، وأهمية الدعاء لله لتفريج الكرب. سرت نحو الرجال الذين ينصبون السرادق الضخم، ورأيت رجلًا مكوَّر البطن، يرتدي سترة منفوخة برتقالية اللون، يترجل من سيارة فاخرة. نظر حوله في سعادة وقال للسائق: - ياه على جمال الريف! هنا الخير كله!

نظر لي، فسألني:

- أتعرف أين أجد الباشمهندس بسيوني؟

- أعرف. من تكون؟

- مهندس فريد.

ثم أعطاني بطاقة عمل ذات ألوان فاقعة، تحمل صورة وجهه عند الركن الأيمن.

مهندس فريد

صاحب سيرك الفريد

على استعداد لتقديم كل الفقرات الترفيهية

(مطربون من الزمن الجميل- راقصات- بهلوانات- عروض الأسد الراقص)

وضعت البطاقة في جيبي وسألته:

- أهلا وسهلًا. أنت تريد مقابلته بخصوص ال..

حاولت أن أبدو على علم بسبب مقابلتهما، فقال فريد:

- أجل. سنصطادها اليوم قبل غد. لقد دفعت عربونًا واثنين، والرجل يماطل. لا بد أنه لا يفهم شيئًا في الباذنجان الأسود. الرجال معي، لو تملّص مرة أخرى..

ولوح بقبضته المكتنزة في حنق. يبدو أن بسيوني يستغل الجميع أو كما يقولون بالعامية «يلبِّس عمه دَه لده»، فيأخذ المال من هذا على وعد بشيء، ليعطيه لذاك على وعد بشيء آخر. قلت لفريد محاولًا فهم المزيد: - ال.. هه؟ البضاعة، ضخمة للغاية كما تعرف.

- لا تقلق. الرجال معي، ثم قبل كل شيء هي مجرد كائن من مخلوقات الله. طلقتين في رأسها وستموت.

هززت رأسي، وعرضت على فريد مرافقته لبيت بسيوني، فقبل. صدَع رأسي عن عروضه الترفيهية وسألني إن كنت متزوجًا، أو إن كنت أرغب في زواج ثان حتى يستطيع أن يرد لي الجميل ويوفر لي عرضًا غنائيًا من المطرب سيد خنزيرة مع الراقصة هياتم. غمز بعينه وأضاف: - بالطبع لا أقصد الفنانة هياتم ملكة أفلام الثمانينات، لكنها لا تختلف عنها أبدًا.. أؤكد لك.. أبدًا!

امتقع وجه بسيوني حين رآنا سويًا، ورفض رفضًا قاطعًا أن أتواجد أثناء حديثهما. قلت لفريد على سبيل مضايقة بسيوني: - لن أفوت لحظة اصطيادها، هه؟

- هياتم؟

- بل الأخرى.. طلقتين في الرأس وتموت.

- طبعًا. أنت صديقي من الآن فصاعدًا.

ابتسمت ابتسامتي الشيطانية لبسيوني الذي أغلق الباب في وجهي. قررت أن أذهب سريعًا –راجلًا كي لا تلاحظ سهير اختفاء السيارة- إلى الكهف، لأفعل ما وددت فعله؛ إخراج كل محتوياته وفحصها.

أثناء عدوي إلى الكهف راجع عقلي المعلومات التي حصلت عليها حتى الآن.

الشيء كائن حي –على الأرجح- ويعيش في الكهف أو له علاقة به. الشيء يأكل النباتات في الحقول. ما الذي مزق الثعبان؟ الحشرات العملاقة؟ ما علاقة الحشرات بالكائن؟ الوضع يتدهور سريعًا مؤخرًا. بسيوني يعرف ما يجري ويخبئ عنا المعلومات حتى خرج الوضع من بين يديه.

بسيوني استعان بمهندس زراعي، وصاحب مصنع معلبات، وصاحب سيرك!

غيرت بطارية الكاميرا، ثم ثبَّت الكشاف على الأرض ورحت أحمل كل ما أجد في الكهف إلى الخارج. لماذا بدا بسيوني غريبًا للحظات؟ هل يتلبس شيطان ببسيوني؟ لماذا لم تشعر به شياطيني؟

وجدت ثعلبًا ميتًا، رقبته منهوشة وقد جف دمه تمامًا. لا أحتاج إلى ذكاء كي أعرف أن الحشرات هاجمته.

الناس تقدم قرابين لولي غامض. يقيمون له مولدًا يعلم الله أي طقوس تقام فيه. أليست هذه كلها علامات على عبث الشياطين في إيمان الناس؟

أخرجت القش والأغصان وجيفتين لثعبانين، و.. ما هذا؟ قشور؟

أمسكت القشرة البيضاء السميكة بين أصابعي. بحثت بطرف حذائي عن المزيد منها فوجدت. هذه قشرة بيضة عملاقة ولا ريب.. لكن ماذا كان بداخلها وأين ذهب؟!

هذا يفسر وجود الثعابين التي تحب البيض وتهاجم الأعشاش.

رن جرس هاتفي فأجبت على سهير:

- أنا في القرية لا تقلقي.

- وأنا مع النساء. قلقت عليك. آدم، خطر ببالي شيء مجنون.

- ما هو؟

- الدجاج مع المرأة كان مصابًا بالحشرات. رأيت بقع الدماء على ريشه قبل أن تذبحه. طارت بعض الريشات الخفيفة على ملابسي، أمسكت إحداها أفحصه فرأيت حشرة الفاش على الشعيرات الدقيقة التي يتكون منها الريش. شعيرات يا آدم تشبه تلك التي رأيناها في الكهف.

- ماذا تقصدين؟

- آدم.. الحشرات التي هاجمتك بق دجاج عملاق. الكائن الضخم الذي يحتل القرية دجاجة عملاقة يا آدم!

انقطع الضوء القادم من خلفي فجأة، خطر لي المشهد الخالد في الأفلام حين يكتشف البطل حقيقة ما يطارده، فيلتفت ليجده خلفه. لاشين الأول والأخير في مواجهة قاتلة مع.. دجاجة؟! التفت خلفي لأرى أربعة رجال أشداء، ليسوا من أهل القرية غالبًا. أحاطوا بي، وكيلوا لي الضربات. قال لي واحد منهم: - كي لا تحشر أنفك فيما لا يخصك. لو كنت مكانك لخشيت على زوجتي..

انهالت عليَّ الضربات، فتركتهم يضربونني. لا بد أن يقتنعوا أنهم انتصروا كي يرحلوا عني سريعًا. لو اطلقت سراح شياطيني عليهم لعرف من أرسلهم أنني تخلصت منهم بطريقة أو بأخرى. انتهوا من ضربي ورحلوا. اندملت جروحي وكدماتي سريعًا فزحفت نحو الهاتف الذي سقط مني أقول لسهير التي تصرخ: - أنا بخير.. لا تقلقي. سهير، قودي السيارة واخرجي من القرية. انتظريني في أي مكان.. اذهبي إلى الفيوم مثلا وانتظريني هناك. لا تناقشيني.

أغلقت الخط وهرعت إلى حيث الأرض الفضاء التي يُقام فيها المولد.

«آدم.. ستفقدها في يوم يا آدم ما لم تصر أقوى..

آدم.. لا توجد دجاجة بهذه الضخامة.. لا بد أن هذا بفعل شيطان..

آدم.. التهمه يا آدم.. أنقذ سهير وأنقذ صورتك أمامها..»

لم أجد السيارة ولا النساء اللاتي كُن هناك حول الضريح. رأيت بسيوني هناك مع فريد، وقد رحل رجال المولد ولم يتبق سوى سيارتين ملاكي وأخرى نصف نقل تحمل شيئًا لم أتبينه.

اتصلت بسهير، فقالت لي أنها أخذت النساء بالسيارة لتعود بهن إلى ديارهن، وأنها لن ترحل إلا معي ولن تتركهن وحدهن وسط هذا الخطر.

- اللعنة يا سهير! لماذا لا تطيعينني ولو لمرة واحدة؟!

هدر صوتي، وعرفت أنها ارتجفت. اعتذرت، فغمغمت شيئًا وأغلقت الخط. أنا أفقد أعصابي. يجب أن أعرف من أرسل الرجال لضربي وماذا يخطط بسيوني، والأهم: أي شيطان هو المتسبب فيما يحدث؟ لا بد أنه شيطان، ولن ينل منه أحد سواي.

أرسلت لسهير اعتذارًا مرة أخرى وطلبت منها ألا تغادر البيت الذي ستذهب إليه وأنا أعرف أنها لن تفعل ما أطلب.

كيف سأقترب من بسيوني ومَن معه دون أن يرونني؟

«آدم، أطلقنا وسنتصرف.

آدم.. التمسك بأخلاق البشر هذه لن تؤدي بك إلى أي مكان..»

أي قدرات شيطانية أو سحرية بقيت لي سوى هذه الشياطين الخائبة الضعيفة الموسوسة؟! مثلي كمثل أي ممسوس آخر.

«من دون شيطان تلتهمه ستظل هكذا، ممسوسًا مسكينًا في عيني زوجتك..»

ممسوس مسكين عاجز عن الموت..

رفعت قميصي إلى أعلى وأخرجت من حزامي عصاي. الضربات التي نلتها من الرجال شقَّـتها طوليًا. هل فسدت؟! رباه.. ما هذا الحظ!

تسللت من وسط المقابر نحوهم، ثم ركعت خلف السيارة نصف النقل. لمحت المفتاح فيها ولم أرَ السائق. ألقيت نظرة من مكمني على حمولتها فلم أفهم شيئًا. صندوق ضخم.. أجولة.. شيء قماشي أخضر مطوي.. أسطوانات غاز. ما هذا؟

حاولت أن أصغي لما يقال بين بسيوني وفريد والرجل الثالث الأنيق.

يقول بسيوني:

- لا تقلق.. كل سيأخذ نصيبه..

يقول فريد:

- كيف وقد وعدته بالدجاجة؟!

يجيب بسيوني:

- قلت لك أننا لو اصطدناها ستكون البداية فقط. المرة القادمة سأسيطر على العملية تمامًا.

قال الرجل الأنيق في ضيق:

- توقيعك على العقد يا باشمهندس يلزمك بشرط جزائي. لن أنتظر دجاج آخر في علم الغيب. أنت وعدت!

هتف فريد:

- ما رأيك في اتفاق آخر؟ أعرض أنا الدجاجة في السيرك لمدة عام ثم أعطيها لك. ستصير عتاقيًا رائعة المذاق، ثم إنك ستصنع منها اللانشون، فلماذا التدقيق في العُمر؟

- وهل ستعيش دجاجة كهذه لعام كامل؟!

ابتسم بسيوني مداهنًا وقِال للأنيق:

- الدجاجة ستبيض حتمًا، أليس كذلك؟ لك البيض كله.

- وماذا سأصنع ببيض غير مُخصَّب؟!

ضم بسيوني أصابع كفه على شكل هرم وقال:

- صبرًا. سيفقس البيض عندي وسيخرج منه قطعًا ديك واحد على الأقل. لقد نقلت البيض إلى منزلي بعدما اكتشفت العش في الجبل.

- هل أنت معتوه؟ كيف سيفقس بيض غير مخصب ديوكًا؟!

- من خلق دجاجة بهذه الحجم قادر على أن يفقس بيضها ديوكًا ودجاجًا! سنزوج الدجاجة والديك، وسنطعمهم من الذرة التي سيصنعها لنا صديقي الباحث، ذرة مصنعة بالهندسة الوراثية ستكفي الدجاج. لقد وعدني أن تكون حبة الذرة الواحدة أكبر من البطيخة!

ضحك الأنيق وقال ساخرًا:

- وبالطبع دفعت من مالي لتمويل هذه الأبحاث الكوميدية!

وقف فريد كالكرة بينهما وقال:

- كُفا عن الشجار كي لا تُنجِّسا العملية بالمقاطعة. قولا: إن شاء الله، حتى يوفقنا ربنا في صيدها، وإلا ستهرب منا وسنخسر جميعًا.

أشار بسيوني نحو فريد ورفع حاجبيه باعتباره يقول أكثر الكلام حكمة في العالم، ثم قال: - لنأكل لقمة في البيت أولًا، ثم ننتظر إلى المساء. لا أعرف أين تذهب تلك اللعينة صباحًا.

رن جرس هاتفي ورأيت رقم سهير. كتمت الصوت إذ نظر الثلاثة نحو مصدره. قال الأنيق: - يبدو أن السائق نسي هاتفه في السيارة. المهم، لن أتنازل عن الشرط الجزائي لو لم أتسلم الدجاجة المذكورة في العقد خلال شهرين.

قال فريد:

- كفاك مقاطعة. المهم، سأطلب من أحد الرجال مراقبة هذا الرجل المتذاكي لاشين لمعرفة إن كان غادر القرية بعد أم لا. لا نريد من يفسد علينا الخطة. وكنت أظنه صديقي..

ضحك بسيوني وهو يركب السيارة وقال:

- لقد عجنه رجالك، لا بد أنه سيظل فاقد الوعي هناك حتى الصباح، أو حتى تلتهمه الذئاب.. أو الدجاج!

اتصلت بسهير، فأخبرتني بمكانها وأخبرتها بما عرفت من أمر بسيوني ومشروعه الغريب. قالت سهير: - دجاج وهندسة وراثية وبسيوني؟! بسيوني؟!

- غريبة حقًا. هل تعتقدين أنه وجد الدجاجة ويتاجر فيها فقط دون أن أي سيطرة منه على الأمر؟

- قطعًا. بسيوني لم يُكمل تعليمه يا آدم. قالت لي النساء أنه فقط من نسل الشيخ راغب، ولا شيء يجعلهم يطيعونه سوى نسبه هذا! فكيف بالله عليك سيصنع دجاجة معدَّلة جينيًا! مخلوق لم يصنع مثله العلماء أنفسهم!

قلت لها وأنا أصعد إلى ظهر السيارة نصف النقل، وأفحص محتوياتها:

- امكثي مكانك. أنا فقط أحاول أن أفهم ما الذي يخططون له. سأختبئ في المقابر حتى المغرب؛ موعدهم. خبئي السيارة يا سهير ولا تظهري. دعيهم يظنون أننا رحلنا.

عدت سريعًا إلى المقابر، وخطر لي أن أقتحم الضريح، ففعلت. هالني ما وجدت من بقايا الهدايا التي يتركها الناس لمن يزعمون أنه ولي. بقايا حبال سُريَّة، خطابات بخط مشوش، أطباق خاوية، عملات معدنية، وأكاد أجزم أن بسيوني قد استولى على أثمن ما يُقدَّم باعتبار الولي قد قبل ال.. قربان؟

قربان الأمل، قربان الأماني، قربان التعلق بقشة الجهل والسلبية.

بسيوني احترف بيع الوهم منذ زمن، والآن هو يتعامل مع كارثة غامضة على اعتبارها مشروعًا آخر يستغل فيه الأطماع والأماني.

مكثت في الضريح وشاهدت الرجال الذين ضربوني مع آخرين يُركِّبون الشيء في السيارة النقل. لم أتبين جيدًا ما يفعلون بسبب بعد المسافة وشواهد القبور من حولي. قُبيل المغرب عاد بسيوني ورفيقاه وانتقلوا مع الشيء على ظهر السيارة النقل إلى منطقة الحقول قرب الجبل.

أرسلت لسهير المُستجدات، ثم خرجت أتسلل نحو الحقول. الكاميرا عند الكهف تبين جزءًا من الأرض الزراعية التي توقفوا عندها. أرى ظلالًا فقط على شاشة هاتفي. جاء رجل إلى الكهف ونظر فيه، ثم خرج. أتمنى أن يقتنعوا أننا رحلنا.

عبر الكاميرا رأيت وهجًا، تحرك هذا الوهج بعد قليل إلى أعلى. رفعت عينيَّ عن هاتفي لأرى الوهج يرتفع عن الأرض إلى السماء.

هذا منطاد!

ثم سمعت أغرب ما يمكن سماعه في موقف عجيب كهذا، مُكبر صوت ينطلق منه صوت لم أسمعه منذ كنت صغيرًا وأمي تنادي دجاجاتها لتُطعمها. صوت يُحدَث بطرقة اللسان على سقف الحلق، فيبدو مثل «نق نق نق نق». استمر النداء دقائق، ورأيت من مكمني خلف كومة السباخ من تبقى من أهالي القرية يخرجون حاملين الكشافات. صاحت امرأة منهم: - سيدي راغب يطير! انظروا! لقد استجاب لرجائنا!

ثم انطلقت هتافات: «مدد يا سيدي راغب» من حلق أحد مجاذيب المولد الذين جاءوا صباحًا. هذا جنون.

ضيقت عيني وأنا أنظر إلى الحقل والجبل، فرأيت الظل الهائل الذي رأيته من قبل. دجاجة بارتفاع ستين مترًا تقريبًا، أي بارتفاع عمارة عشرين طابقًا! خطر لي خاطر لن أعيره انتباها الآن..

«آدم.. الدجاجة التي رأيتها قرب عامود الكهرباء كانت أصغر بكثير.. هل كبرت أم هي دجاجة أخرى؟!..»

انطلق القرويون وعارضو المولد نحو الحقل يهللون. وقفت أصيح فيهم:

- عودوا! الوضع خطر! سيطلقون النار على الدجاجة! هذا منطاد.. بالون لا أكثر ولا أقل!

كررت عباراتي لكن أحدًا لم يعبأ بي. الكل يعدو نحو أمنية الخلاص حتى وإن كانت وهمًا. رباه!

أين سهير؟ يجب أن نرحل!

وانطلقت الرصاصات من أعلى نحو الدجاجة الهائلة، فصرخت وضربت بجانحيها لتغرق الحقول ببق في حجم القطط! البق يهوى على الناس، يهاجمهم.. أصوات التهليل والتكبير والصراخ تختلط. ماذا أفعل؟!

أخرجت عصاي ورحت أضرب بها الحشرات كأنها «شومة»، أبعدها عني وعن النساء والأطفال.

«آدم، هيه الدجاجة فتنة كما تقولون..

فتنة.. والفتنة مصدرها الشياطين..

الدجاجة شيطان مهما قيل عنها. ألا ترى الرصاصات التي تخترقها وتخترق أجساد القرويين؟ ألا ترى ما يتساقط منها ويقتل الناس؟

آدم.. أنت أحق من الجميع بهذه الدجاجة!»

للحظات شعرت أنني مسحور بها. هي أملي كي لا أضطر لاستخدام عصاي كشومة، ولا أضطر للاختباء كسائر الخلق. هي أملي كي لا أظل عاجزًا..

هي أمنية القوة المطلقة..

ضوء قوي قادم من خلفي، وصوت نفير. التفت لأرى سيارتي تقتحم المزروعات وتنطلق نحوي. كشافاتها تضيء الغبار العالق في الهواء، والذي يسبح فيه آلاف الفراشات الزرقاء.. فراشات زرقاء؟

صوت سهير يناديني:

- آدم، اركب بسرعة!

سهير تنقذني مرة أخرى..

صوت سهير يناديني:

- أفق!

تتكاثر الفراشات حولي..

صوت بسيوني من مكبر الصوت يهتف:

- هذه أمنياتكم أيها السُّذج.. موتوا من أجلها.. هي عشاء أطفالكم وشفاء مرضاكم وحياة جديدة تُمنح لكم.. موتوا من أجلها..

صوت فريد يصيح حانقًا:

- هذه دجاجة من الزمن الجميل! لا تدعها تهرب!

صوت طلقات تدوي، كتفي مصاب يتفجر بالدماء.. أرى أسامة الصاوي يمسك بالمسدس أمامي ويرتجف.. يصيح: - أفق أيها الشيطان الرجيم! أفق!

الدجاجة تعدو، تتخبط.. تصرخ.. تنهمر منها المزيد من الفراشات، أركب السيارة وأنا أنظر خلفي.. إنها تلاحقنا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

زوجان وقط

في اللحظة التي هوينا فيها جميعًا: أنا وسهير وأسامة وشريف ورانيا وابنها، ومن حولنا من حضور، ظل الحاجّ مدحت وزوجته الحاجَّة مريم محتفظين بوعيهما، ينظران حولهما في جزع.

ترك مدحت أسامة حيث فقد الوعي فجأة في الغرفة وخرج ليستنجد بالآخرين ليجد أنهم ليسوا أفضل حالًا. اتكأت مريم على الحائط، تجر ساقها خلفها، تتجه نحو سهير ورانيا. وضعت عمر جوار جدته وجلست بصعوبة تحدق إليهما.

- يا حاجة، ماذا حدث؟!

- لا أعرف يا حاج! لقد فقدوا الوعي فجأة. النجدة يا ناس! ليطلب أحد الإسعاف!

هرول مدحت إلى الاستقبال يحكي بكلمات ملتاعة ما حدث، ثم عاد إلى الفناء ومنه إلى ساحة انتظار السيارات حيث وجدت الكثير من فاقدي الوعي مما كانوا يحضرون الشجار ثم ابتعدوا وتفرقوا. رجل ذو وجه مستطيل يرتدي نظارة ذات إطار سميك.. فتاة محجبة.. شاب يحمل حقيبة ظهر ودفتر رسم مفتوحًا جواره به رسم لشخصيات أبطال خارقين.. ثم لمح مدحت مهدي وعالية، متصلبين، ينظران إلى أسفل ويتمتمان بشيء.

- يا أستاذ.. يا صديق شريف.. يا مدام! ماذا دهاكما؟! ماذا يحدث؟

هزَّه مدحت، لكن مهدي ظل يحدق إلى أسفل كأنه يتحدث إلى طفل غير مرئي بلكنة لم يفهما المُسن المرتعب.

عاد مرة أخرى إلى زوجته التي كانت تنظر حولها في ريبة، سألها عما بها فقالت: - جِن.. نحن في حضرة الجن. المكان مليء بهم.

- جن أم شياطين يا حاجة؟

- جن.. و.. انظر لاشين وعمر..

كنت والطفل فاقدي الوعي، لكن جسدينا ينتفضان، تتسلل من جسد عمر ظلال سوداء تحاول التملُّص لكنها سرعان ما تعود إليه كأنها مربوطة برباط مطاطي. أضافت مريم: - الشيطان يحاول الفرار من جسد عمر.

- هل يعني هذا أنه.. لا قدر الله، ألف بعد الشر عن عمر، يموت؟

هزَّت مريم كتفيها بمعنى أنها لا تعرف. توكأت على مدحت كي تقف، وحكى لها عما رآه على مهدي وعالية. سارا معًا إليهما ومريم تغمغم: - الجن.. المزيد من الجن..

ثم نظرت إلى مهدي وقالت وهي تضغط على كف مدحت:

- هذا الشاب يتحدث إلى جني. أكاد أراه يا حاج.. هذا جني مؤمن. كل هؤلاء من الجن المؤمن.

ثم بصوت أعلى قليلًا هتفت:

- السلام عليكم أيها المؤمنون. لا نضمر شرًا ولا نستعين بكم من دون الله. نريد فقط أن نفهم كي نساعد الناس..

ارتعد مدحت وهو يرى لهبًا يندلع من الأسفلت بين السيارات، يقصر ويطول، يلتهب ويخفت، ثم يتجسد على هيئة شِبه بشرية. رجل قصير ذو عمامة زرقاء، أنفه أصغر من اللازم، وعيناه زرقاوان بالكامل كأنها عمياء.

- السلام عليك. مهدي أبركان وعالية الوالي في خطر، ونحن هنا لأجلهما بحق العهد بيننا وبينهما، ودم الجن الذي يسري في عروقهما.

قالت مريم:

- هل تدلنا على ما ننقذ به ذوينا؟

- ملكة إلفام أقوى من قدراتنا.

-من هي ملكة إلفام؟

- ملكة مملكة إلفام؛ أرض الاحتمالات، سيدة المصابيح والأمنيات، وأميرة الجن الأزرق الطيَّار. كل ما نستطيع فعله هو نقلهما إلى مملكة ديهيا وهي ستتصرف.

اعتدلت مريم في وقفتها وقالت في صلابة:

- لن يرحل أحد من هنا قبل أن نعرف من هي هذه الجنية وماذا يحدث.

قال الجني الذي عرَّف نفسه على أنه من علماء الجن بني دهمان ([18]): - علوم الجن لا يطلع عليها من لم يُتم تعلُّم السحر في إحدى المغارات السبع، ويأخذ عهد الطلسم.

- لا شأن لي بعلوم الجن. هو سؤال واحد، كيف نعيد إليهم وعيهم؟!

أجاب في كبرياء:

- إن كنت تستطيعين التحدث إليَّ بهذه الطريقة، فأتمنى لك حظًا جيدًا في إقناع ملكة إلفام بمساعدتكم.

تحول الجني إلى لهب توهَّج لحظة ثم خفت. اتجه الزوجان إلى مهدي، وقال له مدحت: - بالله يا بُني أجبني، أين هذه الملكة وسنذهب إليها!

اهتز جسد مهدي كأنما يعاني رعدة حرارة، ثم اختفى هو وزوجته تاركًا خلفه سيارته.

قالت مريم:

- لا أحب هذا.. لكن لا مفر من إلقاء نظرة على سيارته. فهمت مما حدث أن شريف ومهدي ولاشين كانوا هنا بحثًا عن شيء. لنرَ إن كان في مقدورنا معرفة تفاصيل.

رأى الزوجان على المقعد هاتفًا محمولًا ولفافات ورق. فتح مدحت الدُرج في التابلوه ليجد سكينًا فضيًا منقوشة عليه طلاسم، وقطع من الجلد المدبوغ محفور عليها علامات غريبة. جذب مدحت مقبض فتح صندوق السيارة ودار مع زوجته إليه ينظران إلى ما فيه. سلاح ناري ضخم لم يتعرف مدحت على طرازه، وحقيبة قماشية فتحها فوجد فيها طوقًا مرصعًا بالأشواك، وحزامًا لم يريا أعجب منه في حياتيهما؛ على طوله جواهر ضخمة وتتدلى منه سلاسل ذهبية ويتوسطها ما يشبه البوصلة.

هتف مدحت في حيرة:

- كيف يتحرك هذا الفتى وفي سيارته وحول جسده كل هذه الأسلحة والغرائب!

هزت مريم كتفيها وقالت:

- لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. لنعد إليهم ولنَر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال ساعات قليلة، أجريت علينا جميعًا فحوصات وأشعات على المخ في مستشفى دهب المركزي وفي مركز السموم ولم تُظهر الفحوص أي مرض واضح. غيبوبة غير معروفة السبب، ولا يوجد ما يفعلونه بنا سوى الإبقاء علينا أحياء وإجراء المزيد من الفحوص وتدوين الملاحظات. حضر الأهل والأصدقاء من كل صوب حاملين المال الذين استطاعوا توفيره لإقامتنا غير محددة الفترة، منهم مهاب ورجاء من القاهرة، وأهل سهير من طنطا وأهل أسامة من دسوق، إلى جانب أهالي الآخرين الذين كانوا يشاهدون الشجار دون تدخل منهم.

وقف محمد طليق رانيا جوار فراش ابنه صامتًا، حانقًا، ولم يجد من ينفجر فيه سوى الحاجّ محمد الصاوي الذي جاء يزور الطفل بعدما اطمأن على أسامة وأسرته.

- لا تقل لي يا حاج محمد أن ما حدث مصادفة ولا علاقة للمخلوق المدعو لاشين به. الأطباء لا يعرفون سببًا لما حدث للجميع. ابني في خطر وسأضمه لحضانتي، ولن يقف أحد أمامي.

هز محمد رأسه وصمت. الحقيقة أن ما حدث غامض وغريب، وأغرب ما فيه بالنسبة له هو وجودي مع العائلة الصغيرة التي سافرت لقضاء عطلة عائلية. أما مهاب، فقد مكث جواري أنا وشريف بالتناوب، يحاول السيطرة على غضبه على حماقتنا جميعًا. أما رجاء فلم تفارق سهير، خاصة بعدما علمت بأمر طلاقها العلني.

كانت حانقة، تدق بعكازها الأرض كل خمس دقائق وتقاوم كسر رأس أسامة.

في المساء التالي، اصطحب مدحت مهاب إلى سيارته التي تجلس فيها الحاجَّة مريم في انتظارهما، وفتح صندوقها ليعرض على مهاب ما وجدوه بحوزة مهدي أبركان.

دقق مهاب في الأشياء ثم قال بعدما سمع الحكاية كلها من مريم ومدحت:

- يمكن القول إذًا أن شريف ذهب مع لاشين ومهدي للبحث عن شيء.

قالت مريم وهي تناوله منديلًا قماشيًّا ملفوفًا على حطام وعاء صغير:

- لاحظت أن مهدي قذف هذا الشيء لشريف ثم سقط منه فتحطم. شكله غريب. لاشين أمسك به للحظات ثم ألقاه أرضًا قبل أن يفقد الوعي.

أردف مهاب وهو يتحاشى لمس الشيء في المنديل:

- غطيه جيدًا. هل كانوا يبحثون عن هذا الشيء، أم أنهم وجوده صدفة وهم يبحثون عن شيء آخر؟ أكاد أجزم أن ما يبحثون عنه كنز نادر ولهذا احتاجوا زوهوريين، وربما يكون له خواص سحرية لذا احتاجوا ساحرًا عتيدًا مثل لاشين... أو ربما كان هذا الشيء بحوزة شيطان مثلًا..

قال مدحت:

- ما نعرفه يقينًا أن المتسبب في هذه الغيبوبة ملكة إلفام. جنية كما حكينا لك. يجب أن نجدها. كيف نعرف أين كان شريف ومهدي ولاشين؟!

- أين هاتف شريف ومهدي؟

فتحت مريم أحدى الحقائب المكومة على أريكة سيارتهما؛ حقائب عائلة أسامة، وناولته هاتف شريف وهي تقول: - هذه حقيبة شريف التي كان يحملها دائمًا معه، هاتف مهدي مغلق برمز حماية.

أمسك مهاب هاتف شريف فوجده غير محمي بأي وسيلة. قالت مريم وهي تراقب مهاب يفتش في الهاتف: - سامحنا الله. هذا تلصص، لكن الله يعلم أننا مضطرون..

حركت أصابعها على مسبحتها مطرقة الرأس، ومدحت ينظر بعينيه الواسعتين إلى مهاب في أمل، حتى هتف الأخير في انتصار: - آه! وجدتها. رسائل شريف ومهدي.

قرأ مهاب الرسائل فلم يجد فيها ما يفسر غموض ما يتحدثان عنه، لكنه قرأ رسالة شريف: «ستظل الخارطة معي يا مهدي. دعني أنظر إليها قليلًا فربما أشعر بمكان المصباح.»

- أي مصباح؟

سأله مدحت، فصمت مهاب قليلًا وقال:

- قلتما أن الجني ذكر أن ملكة إلفام هي.. سيدة المصابيح والأمنيات؟ من الجن الأزرق؟!

ارتفعت زاوية فم مهاب في ابتسامة ساخرة انقلبت إلى ضحكة مستنكرة متقطعة وهو يقول: - لن أصدق أبدًا ما يحدث لي منذ بدأت هذا البرنامج المتخلف.. سيدة المصابيح والأمنيات يا حاج مدحت! جن أزرق يا حاجة مريم.. ألا تشاهدان الرسوم المتحركة أبدًا؟!

اتسعت عينا مريم وهي تقول:

- مصباح علاء الدين؟! الجني الأزرق الذي يخرج منه هو ملكة إلفام؟! مستحيل يا بني.. هذه قصص وتخاريف!

- تخاريف؟! نحن نعيش في حلم أثناء نوم عصارٍ لا ينتهي منذ بدأنا البرنامج. ما الذي يمنع أن تكون فكرة مصباح علاء الدين مأخوذة من حقيقة؟ لا دخان بدون نار كما يقولون.

فتح مهاب سجل تحركات الهاتف المُسجل على خرائط جوجل، وتمنى أن يكون شريف قد فتح مُحدد المواقع وشغل الإنترنت قبل خروجه مع مهدي ولاشين.

رآى مهاب أن شريف تحرك من مخيم الفريد في سيارة متجهًا إلى قرب جبل الطويلات، وهناك سار مسافة خمسة أميال في عمق الجبل ذاهبًا وإيابًا إلى مكان السيارة، ثم انقطع تسجيل تحديد المواقع قرب المخيم.

قال مدحت:

- يبدو أن البطارية قد فرغت أو انتهت باقة الإنترنت.

- هذا يكفي ويزيد إن أضفنا أن شريف قد صوَّر جزءًا من رحلته على الهاتف.

شغل مهاب التصوير فرأوا مغارة مظلمة إلا من ضوء أزرق خافت. تشوش التصوير لدقيقة كاملة، ثم ظهرت صورة مهدي يحمل المصباح الصغير ويقول أنه سيحتفظ به لأنه الأقدر على الدفاع عنه في حال هاجمهم الجان، ثم صوتي أذكره باتفاقنا: المصباح سيكون له بعدما نستكشفه ونستخدمه إن كان استخدامه آمنًا.

التفت مهاب إلى الخلف يبحث في حقيبة شريف حتى وجد الخريطة المذكورة في الرسالة النصية. فتحها فرأى أنها تمثل طريقًا في الجبال مع كتابات بالأمازيغية، وقد صارت تلك الحروف مألوفة لمهاب بعدما رآها مرارًا على عصاي.

- سأذهب وأرى ما يمكنني فعله.

قال مدحت في جدية:

- مهاب، لن تذهب إلى هناك ولن تتعامل مع هذا الأمر. أنت رأيت بنفسك ما حدث للجميع حتى للاشين ومهدي! أنا والحاجة مريم الوحيدان المنيعان لسبب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولن يذهب أحد سوانا إلى المغارة. على الأقل ابنة أخي من المصابين وهذا واجبي!

- أنتما؟ مستحيل!

قالت مريم:

- أتقصد أننا مُسنَّان؟ هذا حقيقي، لكن إن كان ما ينتظرنا جنًّا أو عفاريت زرقاء حتى، فالأمر لن يحتاج إلى صحة لمواجهتهم. أنا والحاج رأينا من مباهج الدنيا ومن كرم الله ما أرضانا، ولو حدث لنا شيء فالحمد لله رب العالمين على نهاية تجمعنا سويًا، ونسأل الله أن نلقاه دون ذنب. نحن لا نتمنى من الدنيا شيئًا ولا نندم على قرار اتخذناه إلا ما أغضب الله وتُبنا عنه. الحياة أمامك واعدة يا بُني، وسهير وأسامة والأولاد يحتاجونك. حتى لاشين هذا وحيد ومقطوع من شجرة ويحتاجك. أنت الوحيد الذي تعرف ما حدث لهم بدقة، لذا دعنا نُجرب وإن فشلنا، فلك مطلق الحرية فيما ستفعل.

زفر مهاب في ضيق، وقبل أن يعترض سمعت صوت مواء من خلفه، التفت ليرى مشموش في قفصه يحاول المشاركة هو الآخر. قال مدحت: - ومشموش يحتاج إلى من يرعاه. لقد التهم كل الحلوى التي اشتريناها لعمر، ولحسن الحظ غفا في الخزانة فلم يطله ما طال الباقون.

هتف مهاب:

- أنا لن أغادر دهب قبل أن يشفوا. لن أستطيع العناية بالقط، بالإضافة إلى أنه ليس قطًّا عاديًّا.. ربما يساعدكما في شيء إن اصطحبتموه معكما. لدي فقط شرط: أن يظل هاتفاكما مفتوحين، وتتحدثا معي طيلة الرحلة، وترسلا لي تصويرًا دقيقًا لكل ما يمر بكما و..

قال مدحت مقاطعًا:

- اتفقنا.. هيا، لا وقت أمامنا. علِّمني كيف أستخدم الخريطة على هاتف شريف.

نزل مهاب من السيارة بعد تلبية طلب مدحت، وانطلق الزوجان والقط يتبعون طريقًا لم يسلكه من قبلهم سوى زوهورييْن ونصف شيطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق موحش، لا يؤنسهما سوى صوت إذاعة القرآن الكريم. أخرجت مريم القط وضمته إلى صدرها، فغفا شاعرًا بالأمومة التي تفيض بها وباطمئنان الذكر الذي لا ينقطع عن لسانها.

يخرج صوت مهاب من مكبر الصوت في هاتف مريم من الحين والآخر يسألهما عن أحوالهما.

الطريق الذي اتخذه شريف من قبلهما يسير باتجاه مواز للجبال، وعكس اتجاه طريق السائحين المعروف. المنطقة موحشة، والطريق غير مُمهَّد.

- هذه سيارة أصيلة يا حاجة. لو كانت سيارة من السيارات الحديثة الصينية لتفكَّكت.

- المهم مهارة السائق يا حاج.

ابتسمت له، فابتسم. قصة حب بسيطة لم أشهد مثلها -أنا لاشين- من قبل. رضا كامل عن الحياة.

بعد ساعتين وصلًا إلى المنطقة غير الصالحة للسيارات. نظر مدحت إلى زوجته وقال: - سأذهب أنا وأنت انتظري.

- على الحلوة والمُرة معًا يا حاج. دعنا نتعكز على بعضنا كما فعلنا طيلة حياتنا. هو مجرد طريق آخر وفرصة كي أتحرك قليلًا، لعل في الحركة الشفاء.

قرر مدحت أخذ حقيبة مهدي معه وكذا أسلحته، فإن كان جلب كل هذا العتاد معه، فهو أدرى بما يمكن أن يواجهه هناك. نزلت مريم وتبعها مشموش. تملص أكثر من مرة حين حاول مدحت إدخاله إلى القفص. سار أمامهما ببضع خطوات، وبين الحين والآخر ينظر خلفه كأنما يتأكد من أنهما يتبعانه.

- يا حاج، هل يضيء هذا القط أم..

- هو ضوء القمر إن شاء الله. لا داعي لإرعاب أنفسنا مؤقتًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتعامل مهاب على أنه المرافق الرسمي لي. يسأل الأطباء عن صحتي، ويجلس جواري طيلة اليوم، حتى أنه طلب أن يكون مرافقي في الحجرة. رحل الأهل بعد مواعيد الزيارة، ولم يبِت في المستشفى سواء مهاب ورجاء، بينما انصرف محمد والد عُمر إلى فندق قريب كي لا يتشاجر مع أحد.

يقول مهاب عبر الهاتف لطبيبته وقارئة سلسلة رواياتي طبيبة المخ والأعصاب ماريا: - هل تقترحين شيئًا آخر سوى الذي قام به الأطباء؟

فتجيب ماريا:

- نحن نعرف أنهم تعرضوا لشيء سحري ما، ربما شموه أو تعرضوا له بصريًا، لكن كيف نقنع الأطباء بهذا؟ على العموم إن كان ما تعرضوا له مادة غير معروفة فلن يتعرفوا عليها في تحاليل السموم والمخدرات.

- هل سنتركهم يموتون؟!

- بالطبع لا. هم الآن يتعاطون أدوية محفزة للإدراك، ربما يؤثر هذا في استعادة الوعي. ذكرت لي أن لاشين وعمر كانا يتشنجان.

- أجل. ربما حاولت الشياطين مغادرة أجسادهم، لكن الأدوية التي تعاطوها في المستشفى حسَّنت الوضع.. أو لعل الشياطين غادرت.

- لو غادرت لتفكك لاشين. يبدو أنك لا تقرأ السلسلة.

ابتسم مهاب؛ الطبيبة تحاول التسرية عنه، لكنه كان يعرف أن الشياطين لم تغادر جسدي وإلا تفكك بالفعل. لا تنسوا أنني تعرضت لإصابات قاتلة من قبل مئات المرات. نظر مهاب إلى النافذة شاردًا، تُرى هل سيستطيع مدحت ومريم الوصول إلى المغارة من الأساس؟

فتح محرك البحث وكتب بالإنجليزية elfam لكنه لم يجد أي نتيجة للبحث بالإنجليزية أو العربية. كان قد اتفق مع الطبيبة ماريا على ألا يبحث في ذاكرة مِهر مرة أخرى، وأن يركز أكثر على ذاكرته هو. تورطت الطبيبة أكثر مما يجب في محاولات علاج السحر بالعلم، لكن تعليماتها أفادته كثيرًا، بل وقرَّبته أكثر من أهله، وأعانته على تقبُّل فكرة فقد أخيه. لكن..

مِهر يعرف كل شيء عن تاريخ البشر والشياطين والجن..

إلفام..

إلفيم..

خطرت الكلمة على عقله بهذا النطق: إلفيم. عدَّل الكتابة مرة أخرى لكن لم تظهر له نتائج. لعن التعليم المجاني، ثم نطق الكلمة كما سمعها في عقله أمام مساعدة جوجل على هاتفه المحمول، فظهرت على الفور نتائج البحث عن كلمة: elphame. ملكة إلفيم في الأساطير الشمالية هي ملكة أرض الأقزام السحريين والجنيات المُجنَّحة. ذُكرت فقط في سجلات محاكمة السحرة في أسكتلندا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. أُشير إليها بأسماء: ملكة الجنيات، وإلفين، وإلفيم، وهي حاكمة أرض السحر والجن.

قال أحد السحرة في المحاكمة أنها معاونة من معاوني الشيطان ذات قدرات سحرية أضلَّته، وقال آخر أن لها قدرة على تغيير الشكل كيفما تريد، وقال ثالث أنها تظهر على هيئة امرأة جميلة ترتدي الأبيض والبني وتمتطي حصانًا أبيض..

وقيل أنها ببساطة مخلوق مُجنَّح شفاف يشبه الفراشات الزرقاء، ويحمل على جناحيه خريطة أرض الجنيات.. لعن مهاب مرة أخرى التعليم المجاني الذي منعه من متابعة القراءة بالإنجليزية، ولم يجد مصدرًا عربيًّا واحدًا آخر، حتى الكتب التي تناولت سيرتها كانت بإنجليزية عتيقة لم يفهم منها حرفًا.

أرسل رسالة صوتية إلى مريم يحكي ما عرفه عن الملكة المزعومة، فردَّت عليه باتصال تطمئنه فيه أنهما بخير، وأنهما يظنان أنهما على الطريق الصحيح.

- القط يضيء يا مهاب! نسمع مواء من كل صوب وكأننا في حقل قطط. لكن.. لكننا مطمئنان! شعور غريب أليس كذلك؟! سبحان خالق الكون.

- أنا لست مطمئنًا! ماذا يحدث؟

تذكَّر مهاب أم القطط التي كان يراها في شارعه تطوف حول منزل جده في المحلة، والتي عرف مني -أنا لاشين- أنني قتلتها عن غير قصد وهي تحاول

حماية بوابة الشياطين في بدروم بيته، وشرَّدت قططها.

- خذا حذريكما ولا تتورطا في شيء قبل أن تخبراني.

نظر لي فوجدني أتشنَّج مرة أخرى. أغلق الخط وهرع إلى الممرض الليلي الذي انطلق بدوره يستدعي الطبيب. في الممر رأى مهاب رجاء تصرخ طالبة النجدة.

- أنجدني يا مهاب.. عمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الممر يضيق أكثر، لكن الضوء الصادر عن القط يتزايد، والمواء يتردد ويندمج في بعضه حتى سمع الزوجان وسطه كلمات متناثرة.

«البوابة الفضية محمية كالبوابة السوداء، لا يدخلها شيطان ولا يخرج منها إنسان..»

اتصل مدحت بمهاب، فلم يجد تغطية شبكة. أرسل صورة لما أمامهم مع رسالة صوتية، ثم وضع هاتفه في جيب جلبابه الذي لم يجد وقتًا لتغييره.

- ماذا سنفعل يا حاجة؟!

- لا أعرف.. لا يوجد سوى أن نتبع القط.. بسم الله..

- بسم الله.. استر يا رب..

دخل مشموش مغارة تشبه التي رأوها في تصوير شريف، ثم أطل برأسه ليتأكد أنهما خلفه. عيناه الزرقاوان المحاطتان بالخطوط الرمادية مُطمئنتان كأنهما لمخلوق أعقل من مجرد قط.

تبعاه، وبدلًا من أن يريا داخل المغارة الصخور المتوقَّعة، رأيا مُتسعًا لا متناهٍ، حوائط شفافة مزرقة تُمثل متاهة متشابكة هائلة، في كل مسار منها آلاف الأحداث فوق بعضها البعض، يكفي أن تدقق النظر في أي شخص من الأشخاص الذين يتحركون فيها لتختفي باقي الأماكن والشخصيات ولا يبقى سواه، يمارس حياة تبدو معتادة. حياة مثل حياة أي شخص فينا.

- ما هذا يا حاج؟! أنا لا أصدق أنني أرى ما أرى!

- لنتقدم.. لنختَر مسار من هذه المسارات ونرَ ما سيحدث.

- نحن جئنا بحثًا عن ملكة إلفام هذه. لا تتشتَّت..

وبصوت هادر هتفت مريم:

- السلام عليكم يا أهل هذا المكان.

صوت رقراق كالماء انساب إلى عقلها يقول:

- أهلًا مريم.. لك أمنية من أعمق نقطة في وجدانك.. أمنية لم تخبري بها أحد ولا نفسك، لكني أعرفها..

عقدت مريم حاجبيها وسألت زوجها:

- هل تسمع هذا؟

- لا أسمع شيئًا.. لحظة..

أنصت مدحت ولم تسمع مريم ما ينصت إليه، ثم بعد هنيهة قال:

- صوت امرأة ترحب بي باسمي وتخبرني أن لي أمنية لم أبح بها لأي شخص، وهي تعرفها.

- ملكة الأمنيات.. لا يمكن أن تكون هذه المخلوقة ذات نية حسنة. لا تُنصت إليها.

يتردد الصوت في عقل الزوجين كل على حدة: لك أمنية تعيد لك فرصة الحياة من جديد. فرصة أخرى.. مسار آخر.. من قد يقاوِم؟

يسير مشموش في أحد المسارات، يموء هو ينظر نحوهما ثم ينطلق عدوًا بقوائمه القصيرة المشعرة. تناديه مريم: - أبطئ قليلًا.. صحتي لا تناسب العدو..

يهمس الصوت في قلب مريم:

- «ماذا لو.. شفيتِ؟ بل ماذا لو لم تمرضي قط؟ ماذا لو لم تملكي قدرتك على رؤية الجن والشياطين، وشجاعتك غير المحمودة في مواجهتهم؟ ماذا لو عشتِ حياة هانئة، هادئة، وتمتعت بصحتك.. للأبد؟»

تغمغم مريم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن وساوسه..

لكنها تكاد ترى نفسها في المتاهة تعدو في الحقل مع أحفادها.. أحفادها؟ سبعة أحفاد من ابن وابنة يسران الأعين، يناديها شيخ مثلها، لكنه ليس مدحت: هيا يا مريم، لقد حضَّر الخدم الغداء.

تغمض عينيها بقوة ثم تفتحهما وتغمغم وهي تحاول اللحاق بالقط متوكئة على ذراع مدحت النحيلة: - لقد أرضاني الله بما أنا فيه. لي أبناء وأحفاد لم أنجبهم،

لكنهم يسدُّون عين الشمس. هم ساقاي وذراعاي وقلبي.. ابتعدي عني وأبعدي وساوسك.

أما مدحت، فكان بدوره يرى زوجة ثانية تزوجها بعد إصابة مريم بالشلل النصفي. زوجة أنجبت له على كبر و..

- أعوذ بالله منك أيتها الشيطانة..

عرفت مريم أن مدحت يجاهد كي لا ينزلق في فخ «ماذا لو» الشيطاني. فراشات دقيقة زرقاء تطير حولهما، توسوس، تخلق المسارات التي لم يتخيلا لها وجود في عقليهما الباطن.

يموء مشموش، فيريا أمامهما امرأة عمياء، مُسنَّة، تنظر إليهما كأنما تراهما. يدور القط حول ساقيها ويحك رأسه، ثم يتسلق ملابسها الرثة. تقول المرأة: - لا تصغيا.. لا تبحثا عن أعمق أمنية دفنها عقلكما وضميركما. هذه القط هو جزء من بصيرتي لتنير عمى الإنسان. لا تنظرا إلا إليه، ولا تريا فيه إلا حياتكما الواحدة التي ليس بعدها شيء سوى الآخرة. لا توجد فرص أخرى إلا في حياتكما..

يسأل مدحت:

- من أنتِ؟

- أم القطط كما تحبون أن تطلِقوا عليَّ. لن تخرجكما ملكة إلفام من هنا، ولن تبصرا المخرج إلا بعين البصيرة.

قبَّلت المرأة القط، وناولته لمريم وقالت:

- هي رحلتكما واختياركما، ولا يخرج أحد من هنا إلا بعين بصيرته. سلامي لسهير.

تحولت المرأة إلى آلاف القطط الصغيرة التي تسرَّبت عبر الجدران. رأى مدحت شيئًا في الممر المتسع فهتف: - هذه رانيا هناك!

دقَّقا النظر، فتحولت التفاصيل المشوشة إلى أخرى واضحة. رانيا وعمر يجلسان في ستوديو وأمامهما مذيعة معروفة. نادت مريم وهي تتقدم نحوها: - رانيا! ألا تسمعينني؟

كانت رانيا تنظر إلى بقعة على جسد ابنها عمر، وهو ينظر إليها نظرة خبيثة. عبر جدارن الممر الشفافة لمح الزوجين أسامة يرتدي زي أبطال خارقين مُخزيًا، ويتحدث إلى شاب يحمل حقيبة ظهر ودفتر رسم. صاح مدحت: - هذا الشاب.. كان معنا في دهب، رأيته فاقد الوعي!

- إذًا.. كل من فقدوا الوعي هنا! يعيشون.. أحلامًا؟

- بل مسارات بديلة لحياتهم يا حاجة. كل من فقدوا الوعي يعيشون أعمق أمنياتهم.. وربما ألعنها.

دجاجة عملاقة تعدو بين الممرات، ومنطاد أخضر يمطرها بالرصاص. قالت مريم:

- ربي.. كيف سنتصرف..؟

ينزل القط من بين ذراعيها ويسير في الممر الذي تجلس رانيا عند بدايته. كلما تعمَّقا أكثر رأيها أحداثًا مختلفة من حياة رانيا في هذا العالم. القط يقابل نفسه في هذا العالم ويندمج معها، تتألف مشاهد أخرى متفرعة من الممر، مشاهد لحياة رانيا بلا مشموش..

يهدر الصور الرقراق في شك:

- من معكما؟ من يعبث باختيار رانيا؟

يقترب مدحت من رانيا في المسار الجديد، يحدثها قائلًا:

- رانيا يا ابنتي، هذا وهم.. أفيقي.. أنا عمك مدحت..

تنظر رانيا حولها في رعب، ثم تنظر إلى عمر كأنه مصدر الصوت الدخيل. هتفت مريم: - هي تسمعك! لو أفسدنا كل المسارات والاحتمالات ربما يسمعوننا ويفيقون!

هيا أيها القط السمين، خذنا إلى الاحتمالات الأخرى سريعًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقلو ا عمر إلى مركز أشعة لإجراء أشعة رنين مغناطيسي على المخ، ومكثت أنا في المستشفى مع مهاب في انتظار دوري لإجراء نفس الأشعة. جلست رجاء في حجرة الانتظار في مركز الأشعة بينما دخل عمر إلى الحجرة المعزولة. ظلت تقرأ القرآن وتدعو الله والدموع تنهمر من عينيها، تخشى الاتصال بأبيه فيلومها وهي لا تتحمل أي لوم. بعد أقل من خمس دقائق، تراقصت الأنوار في المركز، ثم أضيئت الكشافات الاحتياطية التي تراقصت بدورها وغرق المكان في ظلام لا ينيره سوى ضوء الصباح الباكر الذي يأتي من نافذة حجرة الانتظار.

خرجت الممرضات يصرخن، وطبيب الأشعة من خلفهم يهتف:

- الهدوء! تمالكن أنفسكن!

قالت واحدة منهن:

- هل رأيت ما ظهر على الشاشة؟!

- عُطل! ادخلي يا ريم وأخرجي الطفل.

ثم التفت إلى رجاء معتذرًا وقال:

- يبدو أنه ماس كهربي. على الأرجح تعطَّل الجهاز أيضًا. مركز الأشعة الأقرب في شرم الشيخ للأسف.

اتسعت عينا رجاء ذعرًا وقد تذكرت شيئًا. سألت الطبيب:

- هل.. هل جهاز الأشعة يطلق موجات كهرومغناطيسية أو شيئًا مشابهًا؟

- بالـتأكيد. لماذا تسألين؟!

قبل أن تجيب، خرجت الممرضة من الحجرة بعينين داميتين تعدو، لا تعبأ لساقها المكسورة ولا للدماء التي تتدفق من مفاصلها. دفعت باب المركز بقوة عاتية وانطلقت تجري في الشارع.

بيد مرتجفة اتصلت رجاء بمهاب، وصرخت عبر الهاتف:

- أنجدني! يبدو أننا حرَّرنا شيطان الرعب! جهاز الأشعة طرده من جسد عمر وقد دخل إلى.. جسد ممرضة! لا أعرف إلى أين هربت..

قال مهاب وهو ينظر إلى جسدي الذي انتفض رغم المهدئات التي تُحقن في دمائي وقال: - أعتقد أن شيطان الرعب يبحث عن عائل يتحمَّله، وأعتقد أنني أعرف العائل..

تخرج الممرضة الأخرى من حجرة الأشعة وتنادي الطبيب، فيهرع إليها. تجري رجاء خلفهما، عقلها لا يستوعب أن الطبيب يحاول إنعاش الطفل مفتوح العينين.

قلبها لا يصدق أن عمر يموت، أو قد مات بالفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يخترق القط كل حكاية، ويفسد فيها تفصيلة صغيرة للغاية مُحدثًا ما يسمونه بتأثير الفراشة؛ التفصيلة الصغيرة التي إن زادت أو قلت من الأحداث تُحدث تغيرات هائلة على المدى الطويل. لم تعد القصص التي يعيشها الناس من أمنياتهم ولا من تخطيط سيدة الأمنيات حتى. تسعى مريم ومدحت بين الشخوص، يهمسون في أذانهم أنهم واهمون، يحلمون.

تهتف مريم وهي تمسك صدرها وتتنفس بصعوبة من المجهود:

- أين باقي الناس الذين تعرضوا لهذه الملعونة؟ هل سننقذ من كانوا في المخيم فقط؟ ما مصير الباقين؟

- لا أعرف.. القط هو مَن يقودنا. هل تتخيلين عدد من تأثروا بالمصابيح عبر القرون؟! نحتاج إلى تدمير هذا المكان بالكامل لإنقاذهم.

- كم لنا هنا؟!

نظر مدحت إلى ساعته فوجدها عقرب الثواني يكاد لا يتحرك، كأن الزمن في مملكة إلفام أبطأ من الزمن خارجها.

- لنا عشر دقائق فقط!

تصدح صوت حوافر خيل تضرب أرضية الممرات. يتوقف القط عن الحركة وينظر تجاه الصوت ثم يطلق فحيحًا. تمسك مريم كف زوجها، فيقبض على كفها أكثر.

الصوت يعلو والقط يقف أمام الزوجين، مقوَّس الظهر منفوش الفراء.

حصان أبيض ضخم يظهر عند نهاية الممر، يقطع الصور والأحداث فتتبخر وترتبك. راكبته بيضاء البشرة والشعر، زرقاء العينين والجناحين. هذه جنية من جنيات قصص الأطفال بلا زيادة أو نقصان، إلا أن أسنانها البيضاء مدببة وعينيها مشقوقة طولية، وأظفارها أقرب إلى مخالب فضية معقوفة.

- أهلًا بكما في أرض الاحتمالات. احذرا مما تتمنيان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقف مهاب أمام حجرتي، يفكر في الكيفية التي سيواجه بها امرأة مسَّها شيطان الرعب نفسه.

تساءل مهاب: هل خرج شيطان الرعب حقًا رغمًا عنه من جسد عمر؟ هل في صالحه أن يسكن جسدي –أنا لاشين-؟ ألا يخاف أن أهضمه؟ أن يفنى في كما فنت عشرات الشياطين من قبل؟

يسمع مهاب هرجًا عند مدخل الطابق الثاني حيث نرقد جميعًا. تتزايد دقات قلبه ويتخذ وضعية لكم ممتازة لا يعرف إن كانت ستجدي. كيف يقتل المرء شيطان الرعب في مواجهة فردية؟

أنا شخصيًا لا أعرف.

رأى مهاب الكثير، لكنه لم يرَ جثة متحللة تعدو من قبل. الممرضة ممزقة الأوصال تتجه نحو حجرتي. تراجع مهاب حتى ألصق ظهره بالباب، وحاول استحضار كل هيبة مِهر فهتف فيها: - عُد إلى حيث أتيت.

ضحكت الممرضة وألصقت وجهها بوجهه وقالت بصوت سمعه مهاب في عقله:

- شقيق عمرو عمارة! الطفل الذي عصرته حتى مات!

- ارحل إلى حيث جئت!

- من يُكلمني؟ مهاب أم مِهر؟

كي يقاوم مهاب عليه أن يستعيد ذكريات مهر ويُنحي ذكريات مهاب، لكن لينقذني عليه أن يتمسك بمهاب المكلوم. أي مسار سيختار؟

همس شيطان الرعب:

- ما هي أعمق أمانيك؟ ماذا لو نسيت كل هذا الألم والضعف؟ ماذا لو استطعت التحكم في الإنس والشياطين دون أن تتخلى عن بشريتك؟ ماذا لو صرت نسخة أفضل من لاشين؟ احذر مما تتمنى، أم أقول: احذر مما لا تتمنى؟

دوت الضحكة في عقل مهاب فأمسك برأسه. دفعته الممرضة جانبًا واقتحمت الحجرة نحوي.

رآني مهاب أرتفع عن الفراش، وسمع شياطيني لأول مرة بأذنيه، تصرخ، تستغيث:

«آدم! أفِق! سيفنينا ويُفنيك شيطان الرعب!»

صاح مهاب:

- افعلوا شيئًا إذًا!

«آدم.. وعيك ليس هنا.. لن نستطيع فعل شيء سوى الحفاظ على جسدك.. أفق! لن تتحمل شيطان الرعب!»

في ذاكرة مهر الحل، لكن مهاب وعد طبيبته ووعد أمه وأخويه. يجب أن يظل مهاب، يجب أن يخشى حقًا مما يتمنى.

اقتربت الممرضة من جسدي وقالت والجذور السوداء تخرج ممزقة جلدها:

- هل سألت نفسك يا آدم ماذا كانت أمنية عمر؟ هو طفل ليس لديه ما يندم عليه أو يتمناه.. هل سألت نفسك يا آدم ماذا كانت أمنيتي وأنا في جسده؟ هل سألت نفسك لماذا قادتك قدماك البشريتان اللعينتان إلى مملكة إلفام؟ لا سبيل لإفقادك وعيك يا آدم سواها! هذه هي أمنيتي وفرصتي الوحيدة لتتخلص منك!

ضرب الرعب جسد مهاب وظل ينتفض بردًا وذعرًا. سوف يموت.. لن يتحمل، وربما لن أتحمَّل أنا..

ثم تذكَّر مهاب تفصيلة من يوم رمضاني بهيج قضيناه معًا في سرداب معملي في سيوة، نحاول اصطياد الشيطان أهرمان.. ([19]) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت قد بطنت الممر بالأسلاك، ورسمت رموزًا بصرية تحد من تركيز الشياطين، كتلك التي رُسمت على قفل حجرة عمر حين زرتهم. بعض البشر لديهم خوف غير مُبرر من الأشياء المُخرمة، وهو خوف مرضي يدعي ترايبوفوبيا، يشعر المصاب به بدوار ورعدة قوية وعدم القدرة على التنفس بشكل طبيعي، وقد تصل الحالة إلى فقدان الوعي. هذا بالضبط هو تأثير بعض الرموز على الشياطين، ولا علاقة لهذا بقدسية الرمز. أي شكل متماثل من الجهتين يسبب التوتر للشياطين، لذا تجد أغلب الرموز المُستخدمة في إبعاد الكيانات الشريرة متماثلة النصفين «سيمترية». أعرف أن هذا الشكل يُثيرهم كونه يبدو في عقولهم لا نهائي، مثلما تشعر أنت بالحيرة حين تنظر إلى مرآتين متقابلتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكر مهاب الرمز الذي رآه يومها، وزحف حتى غمس أصابعه في دماء الممرضة على الأرض، وتحامل على نفسه حتى رسم الرمز على الحائط، ثم هتف بصوت مرتجف: - أنتَ.. سحقًا لك!

التفتت الممرضة -ما تبقى من رأسها- نحو مهاب الذي وقف جوار الرمز، ثم تجمدت مكانها وتقلصت الجذور شيئًا.

ارتمى مهاب على جسدي المرتفع عن الفراش وراح يصرخ:

- أفِق يا آدم! أفِق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقول ملكة إلفام:

- لا يخرج بشري من هنا إلا بالموت. هذه حياة مثل أي حياة أخرى.

قال مدحت:

- ليست كأي حاجة.. هذه أوهام!

- بل واقع موازٍ.. احتمال آخر لنفس الحياة.. اختيار مختلف كما اخترتم من قبل تفاصيل حيواتكم السابقة.

تدور ملكة إلفام حولهما على ظهر حصانها وتضيف:

- الموت هو الاستيقاظ الحقيقي، ما قبل ذلك وهم، مسار من مسارات أرض الاحتمالات. البعض يُمنح فرصة أخرى عبر واحد من مصابيحي، والبعض يسير في مسار واحد حتى يستيقظ بالموت.

تشير ملكة إلفام إلى المتاهات حولها وتقول:

- هل لديكما إثبات أن ما تزعمان أنه الحياة الحقيقية ليس وهمًا؟ كم مرة شعرت أن هناك شيئًا غير معقول في حياتك؟ كم مرة شعرت أنك رأيت موقفًا من قبل قبل أن يحدث؟ كم مرة رأيت المستقبل أو قرأت أفكار غيرك أو أثرت في شيء دون استخدام حواسك؟ كل هذا لأن المسارات كلها على جناحين شفافين، يمكن أن تتداخل وتنفصل في أي وقت. الحياة معقدة، وأي تعقيد يفضي إلى أخطاء.. أعترف بهذا!

اقتربت مريم منها، وأمسكت لجام الحصان بقوة وقالت:

- ما نعيش فيه هو خلق الله تعالى، وما حولك هو أوهامك. خلق الله مُحكَم وخلقك مُفكَّك أيتها اللعينة.

- من قال أنني لست من خلق الله؟ ألم يخلق الله الأحلام؟!

سألها مدحت:

- ماذا تريدين؟

- أن أحقق لكما أمنيتين.

- لن نتمنى منك شيئًا.

- ولا حتى الخروج من هنا؟ ولا حتى إنقاذ أصدقائكم؟

- لن نطلب منك شيئًا فترسلينا إلى وهم نعيش فيه حتى نموت.

أمسكت ملكة إلفام وجهي الزوجين بين أظفارها وقالت مكشرة عن أسنانها الحادة: - كيف لم تتأثرا بالمصباح؟!

دفعتها مريم وقالت:

- ليس لنا أمنيات خفية تتلاعبين بها. أنا والحاج لم نندم على شيء فاتنا ولم نتمنى سوى ما رزقنا الله به. ملايين مثلنا لن يتأثروا بمصابيحك ولا بك وإلا لفقدت البشرية كلها وعيها!

فردت الجنية ظهرها في كبرياء وقالت:

- لن تخرجا من هنا.. لا يخرج بشري من هنا.

استدار الحصان وسار متهاديًا مبتعدًا. نظرت مريم إلى مدحت فوجدته شاردًا، سألته فيمَ يفكر فأجاب: - لن يخرج بشري من هنا، لكن.. لاشين.. هذا الشاب ليس بشريًّا بالكامل ولا تسيطر عليه شياطينه كما تسيطر على عمر. أين هو هنا؟

أثناء بحثهما بين الممرات مهتدين بحركة القط، لاحظوا أن هناك أشخاصًا لا يتحركون بعدما ينتهون من أداء دورهم في حياة بطل الممر أو المسار. رجاء تقف متجمدة بينما سهير تتحدث مع أجنبي طويل القامة في مقهى ما. الحاجّ زاهر نفسه لا يتحرك في الأوقات التي لا يتعامل فيها شريف معه.

غمغم مدحت الآية الكريمة:

- «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين.»

- صدق الله العظيم. كل هذا وهم، لكن وعي الناس محبوس فيه للأسف.. انظر يا حاج!

نظر الحاجّ إلى حيث تشير مريم، فرأى سيارة دفع رباعي تقودها سهير وبجوارها أنا: لاشين، نقطع حقلًا مظلمًا ودجاجة عملاقة في إثرنا، تسقط من ريشها مخلوقات رهيبة.

وقف الحاجّ مدحت في طريق السيارة يلوِّح، لكن لم يبدُ أن سهير رأته. قفز القط فوق مقدمة السيارة وارتطم بالنافذة، فتوقفت السيارة على الفور ونزلت سهير تنظر إلى جسده الصغير المُمَدَّ أمامها. صرخت: - آدم! لقد دُست قطًا!

نظرْت إلى الخلف لأجد الحقل خاويًا تمامًا. ظلال ممتدة في جميع الجهات. تساءلت، أين الدجاجة؟ نزلت من السيارة أنظر إلى القط الذي بدا مألوفًا بشدة، كأنني رأيته مرارًا من قبل وخمش جسدي عشرات المرات. قالت سهير: - الحمد لله، هو حي. هذا القط مألوف، ليس قطًّا ضالًّا..

حملته بين ذراعيها ونظرت حولها للتأكد أن كل شيء قد اختفى. عادت إلى السيارة وأخرجت نظارتها التي ترى بها الأبعاد الأخرى بمخلوقاتها. ارتدتها

ونظرت حولها وهي تقول: - كل شيء اختفى.. لحظة..

أشارت سهير نحو مدحت ومريم وهتفت:

- عمي وزوجته؟! ماذا حدث لكما؟ هل.. هل أنتما ميتان؟! كيف أراكما بالنظارة فقط؟!

تهلل وجه مدحت وانطلق نحو سهير مع زوجته وهو يقول:

- حمدًا لله أنك رأيتنا! أنت ولاشين في وهم يا ابنتي. نحن حيان في العالم الحقيقي، وأنتما في وهم في عقليكما خلقته جنية تحقق الأمنيات.

نقلت لي سهير ما قاله الرجل الذي لا أراه. عقدت حاجبيي ونظرت مرة أخرى إلى ما حولي. أين ذهبت الدجاجة وبسيوني و..

- قولي له يا سهير أنه أملنا في أن تفيقوا. هو نصف شيطان، وربما يستطيع إنقاذ الجميع من هنا. لا يمكن أن يخرج بشري من مملكة إلفام.

سألتهما سهير:

- وكيف دخلتما؟

أشارت مريم إلى القط المتكور على نفسه في السيارة وقالت:

- قطك مشموش.. هذا قط سحري، عين البصيرة كما قالت لنا صاحبته حارسة البوابات الفضية والسوداء أو شيء من هذا القبيل. هناك المزيد من القطط لكننا لا نراهم.

سألتهما عبر سهير:

- وأين أجسادنا الآن؟

- في المستشفى في دهب. كلكم في غيبوبة لكن أنت وعمر تصيبكما رعدات من وقت لآخر بلا تفسير طبي. أعتقد أن شياطينكما تحاول فعل شيء.

تراجعت بضع خطوات محاولًا تقييم الموقف. أين الوهم وأين الحقيقة؟ أكلم شياطيني، فيأتيني صوتها بعيدًا مرتعبًا: «آدم.. وعيك ليس هنا.. لن نستطيع فعل شيء سوى الحفاظ على جسدك.. أفق! لن تتحمل شيطان الرعب!»

«أعيدوا لي وعيي!»

«لن نستطيع! وعيك حبيس عالم آخر!»

أدور حول السيارة ولا أبالي بأسئلة سهير وقلقها. هل سيتحمل جسدي شيطان الرعب؟ ماذا لو لم يتحمَّل؟ سأموت؟ هل أترك حياة أنا فيها زوج

سهير حتى ولو كانت وهمًا وأموت؟

لأول مرة لا يكون الموت خيارًا مقبولًا لي. لأول مرة أشعر أنني حقًا جبان، فعلت ما فعلت في العالم ولست على استعداد لتحمل مسئوليته.

نظرت إلى عيني سهير عبر النظارة، وتساءلت عن مصيرها في العالم الحقيقي. هل ستظل في غيبوبة إلى الأبد؟

قلت لشياطيني وجسدي يرتجف:

- حافظوا على جسدي بكل ما أوتيتم من قوة، واتركوا شيطان الرعب يدخله.

تردد صوت في عقلي، صوت رقراق يقول:

- أليست هذه هي أعمق أمانيك؟ أن تحوز قوة شيطان الرعب يا آدم؟

لكن وقت التفكير قد فات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سقط مهاب أرضًا فاقد الوعي، الحجرة تهتز فيتشقق الجدار، وتتفتت العلامة التي رسمها الشاب الشجاع.

أفتح عيني.. سقف الحجرة مغطى بالجذور التي ليست جذورًا، بل ترجمة عقولنا البشرية لتواجد شيطان الرعب. أترك شياطيني تحرك جسدي، فتحملني لأقف، وتحرك ساقي لأقترب من شيطان الرعب. أحدق في وجهه البغيض المغطى ببقايا بشرية.

- أرعبتني وأرعبتك.. فررت مني لسنوات، لكني لم أفر منك أيها اللعين. أتيتني في ضعفي، وها أنا آتيك في عنفوان قوتك.

غُصت في كينونته الحالكة، وغاص في جسدي الضعيف. لا أحتاج لطقوس تغريه بالدخول في جسدي، هو يريد ذلك وخطط له، هو يريد تمزيقي أو احتلال جسدي بديلًا عن عمر. الوحش قرر مواجهة البشري أخيرًا.

لا بأس..

سقطت على الأرض، شياطيني تصرخ، تحاول الإبقاء على أوصالي مترابطة. لا أملك سوى أن أحرك عيني، وجهي قرب وجه مهاب. عينيه تنفتحان.. ينظر لي في ذعر.. أهمس له: - مهدئ قوي.. منوم.. أفقدني الوعي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول الطبيب أخيرًا لرجاء:

- البقاء لله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكأن شيطان الرعب كان يجاهد كي يخرج من جسد عمر حين فقد الوعي، لكن الطفل كان يتمسك به لسبب ما. هل يعي عمر أنه يحتوي ظلامًا ليس للبشرية قِبل به؟ هل كان بطلًا طيلة هذا الوقت؟ حفيد سهير لا بد أن يكون في نُبلها..

يقول لي شيطان الرعب:

- لم يكن أمامي سوى أن أطلب مساعدة ال.. بشر كي أخرج منه. بعض التشنجات قد تفيد.. بل أفادتني كثيرًا! استخدمت طريقتك نفسها يا آدم، الموجات الكهرومغناطيسية!

- شعرت شياطيني بك ولم يكن لها من قوة دون وعيي. حاولت لفت النظر لي وقد نجحت أيضًا. لولا مساعدة البشر الآخرين؛ مهاب ومدحت ومريم، ما كنت لأستعد لمواجهتك.

- البشر.. البشر الملعونون..

تلتهم خلاياي حلكته، فتنفجر.. تعالج شياطيني جسدي فتلتهم خلاياي المزيد منه.. من سينتصر؟ متى أفقد الوعي كي آخذه إلى عالم الأوهام حيث نتساوى؛ كلانا بلا جسد مادي؟

أسمع صوت مهاب من بعيد، صوت طبيب، صوت ممرض، سائل بارد يضخ في عروقي... تُبطئ ضربات قلبي..

صوت سهير يناديني. أفتح عيني على الحقل الممتد، والقط الأبيض يضيء بلون أزرق وينشِب مخالبه وأسنانه في رأسي.

- دعيه يا سهير..

- آدم! ماذا يحدث لك؟!

تنظر سهير إليَّ عبر نظارتها وتعرف أن شيطانًا هائلًا يتشبث بي. تنقل ما يحدث لمدحت ومريم. يُنزل مدحت حقيبة مهدي عن كتفه ويفرغ ما بها على الأرض وهو يقول لسهير: - هل يمكن أن تمسكي أيًّا من هذه الأشياء؟

اقتربت سهير ومدت يدها نحو الخنجر، فمرت من خلاله. قالت مريم وهي تحمل طوق الأشواك وتعطي زوجها السلاح الناري: - لا بأس يا ابنتي. أخبرينا فقط بما ترين.

هتفت لسهير:

- سهير.. سأحاول فتح بوابة شياطين من هنا. لن يتحمله جسدي كثيرًا.. أحضري كيسًا وضعي فيه بعض الزلط واكتبي خلفي ما سأقول لترددیه وأنت تحركين الكيس.

كنت بالطبع أرتجل، أحاول –بذاكرتي الحقيقية- فتح بوابة عبور باستخدام طريقة ديهيا، لكن كيف سأجبره على مغادرتي وعبورها؟ بل كيف أضمن ألا تعبر المزيد من الشياطين إلى هذه المملكة؟ تفعل سهير ما طلبت، وينظر مدحت حوله ليجد الحوائط الشفافة بين الممرات تتهاوى. السيارات تتصادم، المنازل تسقط. هذا العالم يتداعى.

الصوت الرقراق يهدر:

- آدم.. لماذا تتخلى عن أعمق أمنياتك؟! احتفظ بشيطان الرعب في جسدك وأنقذهم! لماذا تغامر؟ لماذا تقامِر؟

أصرخ فيها:

- لأنني بشري! جسدي قادر على احتواء هذا اللعين، لكن هل سأظل بشريًا؟! هل أعمق أمنياتي اللعينة أن أتحول إلى شيطان بالكامل؟

ما تستخرجه تلك المصابيح من عقولنا ليس أمنيات، بل أطماعًا. الرياح تتزايد، تنظر سهير إلى الأعلى وتشهق. ترى ملكة إلفام تطير فوق الحقل وقد استحالت كلها إلى لون بني متغضِّن. فراشة عملاقة قبيحة ذات مخالب وأنياب.

- ماذا تفعلون بمملكتي؟! ماذا تكون؟!

شيطان الرعب يحاول تثبيت جذوره في الأرض، بينما سهير تقرأ التعاويذ وتحرك الحصى في الكيس. أردد تعاويذي، لن أحتاج إلى خنزير أو أي شيء.. أنا أريد إرسال شيطان الرعب إلى الجحيم لا أكثر. تقول سهير في ذعر: - آدم.. الفجوة في الجبل تتسع وتزداد ظُلمة..

ينزل القط عن رأسي ويموء، فتجيبه مئات القطط بمواء ممطوط كالعواء، ثم تنبثق من كل صوب نحو البوابة في الجبل، تتبعهم امرأة عمياء تنظر تجاهي. أتذكرها.. أم القطط. تقول لي: - لست من قتلتها، لكني مثلها. لا ضغائن.. هذه مهمتنا ولأجلها نموت..

تسير المرأة خلف القطط ثم تركع أمام البوابة. القطط تفتك بالشياطين الصغيرة التي تحاول العبور. لم أرَ شيئًا بهذه الشراسة من قبل. أشلاء تتطاير في كل اتجاه كأنها لطخ من طين أسود نتن. رغم ألمي الشديد، لا أجد بُدًا من

أن أتلو أنا نَص الإجزوسيا كي يخرج اللعين مني. ملكة إلفام تصرخ وتطير فوقنا، تضربني وتضرب شيطان الرعب بمخالبها كأنها تطردنا. أهتف: - أنا أحاول طرده! ابتعدي!

تنشق الأرض تحت أقدامنا. يصوب الحاجّ مدحت السلاح الناري تجاه ملكة إلفام، يصيب العيار أحد جناحيها فتتزلزل الأرض من تحتنا.

أتلو الإجزوسيا..

سهير تبكي وتحاول نقل ما يحدث مع مدحت ومريم لي..

ملكة إلفام تزحف في غضب نحو مدحت، فتسير مريم نحوها في شجاعة، أتذكر الآن كيف حكت سهير –في الواقع- عن مريم التي وكزت الجني في صدره كي يكف عن المزاح والتجسد. مريم لا تخشى شيئًا. دون تردد ربطت حزام الشوك حول عنق ملكة إلفام وهي تقول: - ملكة أو سلطانة.. أنت جنية لا أكثر ولا أقل، وقد تماديتِ كثيرًا بحق!

شيطان الرعب يخرج من جسدي، يدور، يصرخ.. لن يستطيع المكوث في هذا العالم الذي يتداعى، ولن يتحمله جسد بشري أكثر من ساعات، وها هو قد فقد طريق العودة إلى عمر.. يتحاشى المرور جوار أم القطط، تتسلق جذوره الجبل وتتسلل إلى الفتحة الداكنة. تضربه مخالب القطط، مشموش بالذات كان متحمسًا حتى أنه غرق في مادة سوداء لزجة من كثرة ما هاجم الشيطان اللعين.

أكاد أفقد وعيي، شياطيني مُنهكة..

يصرخ الحاجّ مدحت:

- المكان يتداعى! هل نجحنا أم أفسدنا كل شيء؟!

تقول ملكة إلفام من بين أسنانها:

- لقد دمرتم مملكة عمرها آلاف السنوات! ستندمون!

- اخرسي!

قالتها مريم، ثم اتكأت على ذراع زوجها وقالت:

- لنحاول الخروج من هنا..

قفز مشموش قاطعًا المسافة بين الفجوة التي تتقلص تدريجيًا خلف أم القطط، وبين مدحت ومريم. راح يعدو وهو ينظر من وقت لآخر خلفه كي يتأكد من أن الزوجين يتبعانه.

أنظر أنا إلى سهير، فتخلع نظارتها وتنظر لي. تمسك كفي ويبدو عليها الإعياء.

- آدم.. أنا أفقد الوعي..

- وأنا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

كتبت الصحف أن غموض حادث دهب لم يُكشف حتى الآن، فبعد إصابة سبع وعشرين شخصًا بغيبوبة غير معروفة السبب، أفاق الجميع في نفس التوقيت، بعضهم في حالة ذهول، والبعض في صدمة، وواحد منهم أصيب بهياج شديد نُقل على إثره إلى مستشفى في القاهرة للوقوف على صحة قواه العقلية بعدما ظل يردد هلاوس عن دجاجة عتاقي ضخمة.

لم تسفر الواقعة إلا عن حالة وفاة واحدة، وهي وفاة الطفل عمر محمد رجب، عن عمر أربعة سنوات ونصف بعد خضوعه لأشعة رنين مغناطيسي لتحديد سبب التشنجات التي ألمَّت به قبلها. أعرب والد الطفل للصحافة أنه سيرفع قضية إهمال أفضى إلى موت على طليقته ووالدتها المصورة الشهيرة سهير زاهر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست رانيا وسهير أمام قبر عمر الذي دُفِن مع جده الحاجّ زاهر في مقابر قحافة في طنطا. المرأتان ذاهلتان، ترتجفان..

أسامة وشريف ومهاب ومحمد برفقة رجال العائلة والأصدقاء يجلسون في ساحة قريبة من القبر. جنازات الأطفال ثقيلة مرعبة، كأنها كابوس مريع.

أقترب من الرجال، أصافحهم، يتقبلون العزاء مني وقد فرغوا من أي قدرة على الجدال. أقف أمام أسامة الذي تحاشى النظر إليَّ. أقول له:

- لنا حديث لاحقًا. البقاء لله. عزاؤنا أننا تخلصنا من شيطان الرعب.

- شيطان الرعب الذي كنت أنت السبب في دخوله عالمنا. اعتبر كلامي هذا إعلانًا للحرب يا لاشين بيني وبينك.

- هي الحرب إذًا.

هززت رأسي وابتعدت نحو سهير ورانيا. رفعت رانيا نظرها نحوي وتصورت أنها ستشتمني، لكنها قامت وصافحتني وقالت لي:

- شكرًا يا باشمهندس. على الأقل لم يمُت ابني هباء. عاهدني على أن تنتقم لكل من قتلتهم الشياطين. أنت الوحيد القادر على هذا. أثق به.

ثم التفتت إلى أمها وقالت:

- اعذريني يا أمي. كنت أنانية، جبانة، أعمتني ثقة أبي في علمه وكرهه للاشين. أنا معكِ في أي شيء يمكننا من الثأر لعمر وعمرو.

قلت لرانيا:

- سنتحدث كثيرًا لاحقًا، تقبلي عزائي يا رانيا.. تقبلي عزائي يا سهير.

في طريق الخروج رأيت رجاء تبكي في هيستريا جوار مريم، والحاج مدحت يمسك زجاجة مياه معدنية كبيرة ويحاول أن يقنعها أن تشرب.

- يا ابنتي، صلي على النبي. أمانة الله واستردَّها. اشربي.. هيا، سيعلو ضغط دمك هكذا.

لمحني مدحت، فاتجه نحوي وصافحني ثم قال:

- أنت شجاع يا بني.

- وأنت وزوجتك ومهاب أكثر شجاعة مني ألف مرة.

- بيتي بيتك.. اعتبرنا أهلك يا بني. سأرسل لك حاجيات الساحر الآخر؛ مهدي، لا أريد شيئًا يذكرني بما حدث. فقط ابتعد عن سهير حتى نستطيع إصلاح ما بينها وبين أسامة. اعتبره رجاء من رجل في سن والدك.

لا أعرف لماذا عانقته، ولا لماذا هرعت إلى سيارتي وحبست عيني خلف نظارتي الشمسية. رغم المأساة التي تسببت فيها –مرة أخرى- عمدًا وبلا قصد، أشعر بملمس أكف العائلة وهم يصافحونني، وتدور في عقلي دعوة مدحت الصادقة أن أزوره، وأن أعتبره في مقام أبي.. هل قال هذا حقًا أم أنها أمنية عميقة في قلبي؟ لو كانت مصابيح الأمنيات حقيقة، وكانت لي أمنية، لن تكون سوى أهل مثل هؤلاء، وحياة قاسية مثل هذه لا يواسيني فيها سوى محبتهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب العاشر بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞





متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) ذكرنا الحاجة مريم وحكايتها في الكتاب الأول. الخلاصة أن شيطان ما ضربها بجناحه فأصابها بالفالج انتقامًا من شيء فعلته ولا أعرفه

[←2]

(2) حكاية البرنامج مذكورة بالتفصيل في الكتاب الأول

(3) أنا –لاشين- أحب جمصة للغاية، يبدو أنني قد وجدت شيئًا مشتركًا بيني وبين أسامة غير حب سهير طبعًا [←3]

[←4] (4) مستمعو برنامج بعد منتصف الليل سيعرفونه فورًا، سأشرح لمن لا يعرفه لاحقًا، تتعجلوا وتسبُّوا البرنامج.

[5←]

(5) شريف يتحدث عن حبكة فيلم الحب في طابا، حيث أصيب الشباب بالإيدز جراء علاقة غير شرعية مع فتيات إسرائيليات.

[6←]

(6) الأولى بمعنى تلال أو مرتفعات، والثانية بمعنى جحيم. هل ترون معي المشكلة؟! لن أتحدث بالطبع عن اسم الكومباوند كاملًا.. هيل بوي؟ ابحث على جوجل عن Hell boy.

[←7]

(7) كف الناس في كومباوند هيل بوي على قول كلمات مثل «يع» أو «يالقرف»، واكتفوا باللفظة الأجنبية التي يبدو أنها أكثر رقيًا وأقل قرفًا

[8←]

(8) ترجمت المصطلحات الأجنبية التي تملأ كلمات الأطفال كي نفهم جميعًا، كفانا أن رانيا لم تفهم نصف ما يقال.

[9←]

(9) ذكَّرني الموقف بفيلم إشاعة حب، حين قال يوسف وهبي عن زوجته التي تدعي الرقي: أهي صوتت بالبلدي بنت سلطح بابا (لاشين)

[←10]

(10) معي –أنا لاشين- خاتم منهم، حكيت حكاية وصوله لي في كتاب «دقة ليل»

[←11] (11) طريقة أخرى للتعجب يمارسها سكان الكومباوند (لاشين)

[←12]

(12) فوبوس وديموس: الخوف والرعب

[←13]

(13) لنتفق على أن بيلَّا في عُرف فريد تعني فيلَّا، وشوكوريل هو نفسه شيكوريل

[←14]

(14) رواية موجودة في الواقع بالطبع

[←15]

(15) أداة غير قانونية لفتح الأبواب المغلقة، والبعض يصنعونها من دبابيس الشعر

[16←]

(16) فضلات الطيور

[←17]

(17) فراش هيكله معدني، كان يستخدم في المستشفيات الحكومية قديما ولا يزال في بعض الأماكن (لاشين)

[←18]

(18) ذكرتهم بالتفصيل في الكتاب الثالث: كاهنة الأوراس

[19←]

(19) الكتاب السادس: جزيرة الضحاك